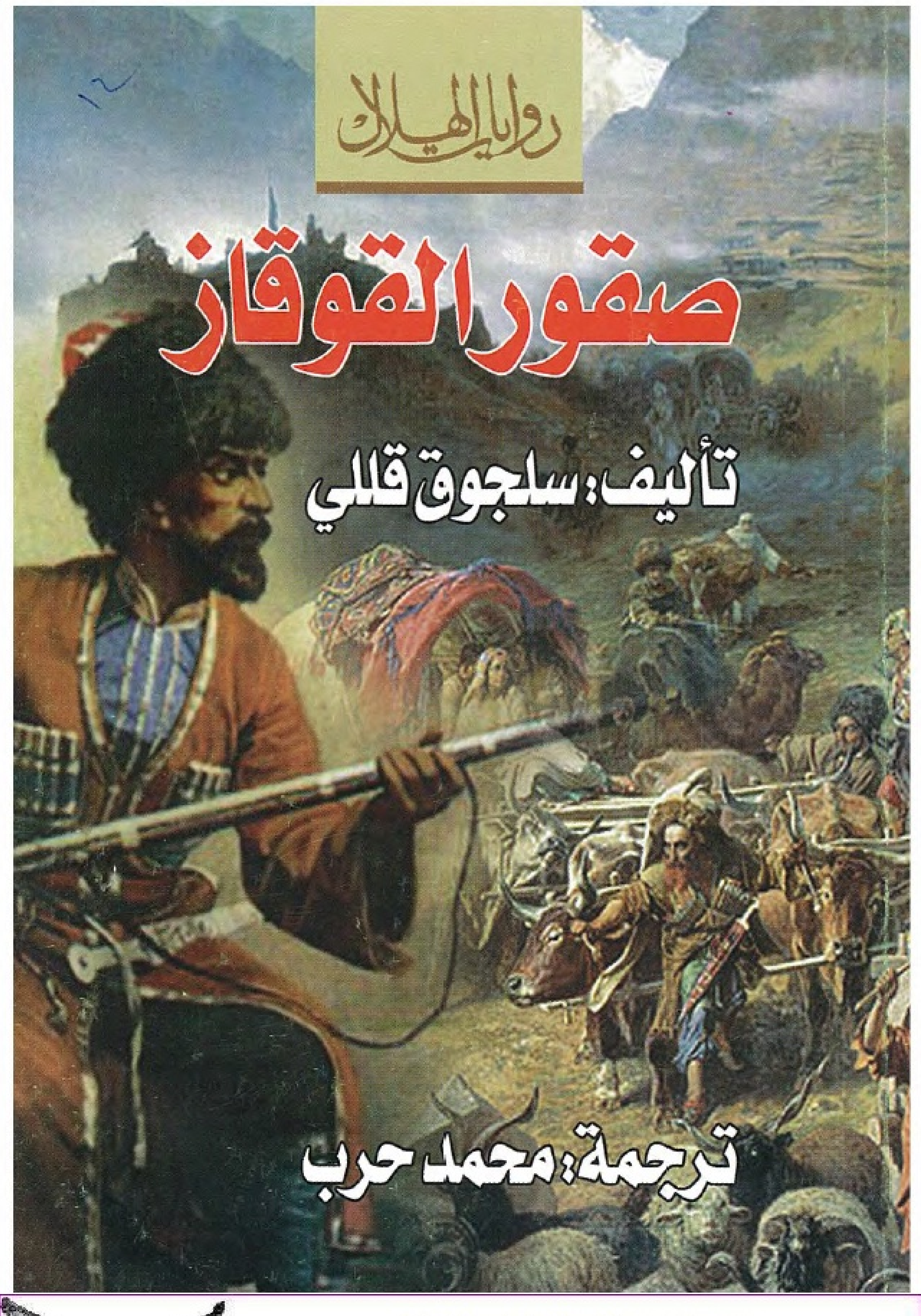

روايات الهلال
صقور القوقاز
تأليف: سلجوق قللي
ترجمة: محمد حرب

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
يحيى غانم

رئيس التحرير
محمد الشافعي

روايات الهلال

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الغلاف تصميم: محمود الشيخ

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٨ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٦٠٠٠ ليرة - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - اليمن ٥٠٠ ريال - فلسطين ٢ دولار.

الإشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٤٥ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩
العدد ٧٦٧- ديسمبر ٢٠١٢م - محرم ١٤٣٤هـ

رقم الإيداع : ٢١٨٤٨/٢٠١٢م

الترقيم الدولى :I . S . B . N X 978-977-07-1562-8

صقور القوقاز

تأليف
سلجوق قللى

ترجمة: محمد حرب

إهــــداء

قد نجد فى حياتنا من يصدق مع نفسه .. و مع الآخـرين وهؤلاء قلة وندرة فى زمـاننا هذا .. ومن أوائلهم الدكتـور خـالد الدالى .. الذى إتسم بالإخـلاص و الشـهـامـة.. و تقـدير دور العلم فى حياة الأمة .

وإليه أهدى بكل الحب والإعزاز هذا الكتاب.

محمد حرب

مقدمة

قصة بطولة وتضحية وفداء . تلك هي قصة الإمام القائد العسكري الشيخ شامل أسد القوقاز صقر الجبال الذى دوخ روسيا القيصرية وتصدى لظلمها وجبروتها وجيشها وخاض معارك شرسة بثلة من رجاله.. صقور القوقاز .. وحقق انتصارات شاملة مؤزرة صعقت بتخطيطها أرقي العقول العسكرية وأعظم القواد الروس الذين كانوا ينهزمون ويجرون أذيال الخيبة والفشل ...

هذه القصة التي دبجها يراع الكاتب العبقرى سلجوق قللى وترجمها الدكتور محمد حرب وهى هدية قيمة وعظيمة يهديها الدكتور محمد حرب إلى المكتبة الإسلامية وإلى المكتبة التاريخية. إنها ليست قصة تفتق عنها ذهن الكاتب .. إنها مكتوبة بمداد دم الشهداء تحكيها كل شجرة فى جبال القوقاز والشيشان وتروى حكايتها قمم الجبال الشماء التى كحلت مآقيها تلك الملاحم الخالدة التى أملاها الشيخ شامل وجنوده البواسل على سمع الزمان.

إنها قصة تاريخية وأكاد أقول سجلاً تاريخياً مجيداً وتقريراً عسكرياً رفيعاً وشاملاً عن الخلجات النفسية والانفعالات .. والتحركات العسكرية.. معركة بعد معركة ، وظفراً بعد ظفر إنه القصص التاريخى .. ربط المؤلف بين أحداثه ربطاً فنياً محكماً .. وأجرى القصة بفنية سامقة.. تشد القارئ صفحة بعد صفحة

ووجدتنى متشوقاً منذ الصفحات الأولى إلى أن أستمر وأستمر لأعيش فعلاً فى عالم البطولة والصفاء والإخلاص فلا أترك القصة إلا بعد أن وصلت إلى خاتمتها .. والآن وأنا أكتب هذه الكلمات وبعد أسابيع من قراءتى للقصة وبعد رجوعى إلى الملاحظات المتناثرة التى كتبتها عنها .. أشعر أننى مازلت أعيش فى وجدانى مع هؤلاء الصقور الشجعان والأسود الأشاوس .. إن هذه القصة رائعة رائعة حقاً تحفر بصماتها فى أعماق الوجدان فخراً بما أنجبه الإسلام من رجال ، وعزة بما يستطيع هذا الدين أن يصبه من عزم وبطولة وشجاعة فى قلوب أتباعه ، وسروراً بهذه الانتصارات .. حتى إن قلبى ليقول : جزى الله المؤلف كل خير وشكر الله لسعى المترجم الدكتور محمد حرب جهده ونيته وعمله..

حين كنت أقرأ هذه القصة كنت أحس أننى لا أرى الشيخ شامل فى القوقاز فحسب ، بل كنت أرى وأسمع وأعيش مع أبطال الإسلام عبر التاريخ الإسلامى المجيد .. حين كانت الله أكبر ، الله أكبر.. ترددها حناجر الأبطال من صقور القوقاز وهم يرفعون أعلام النصر فوق القلاع الروسية المفتوحة ، كانت هناك عبر الزمن حناجر وسواعد وقلوب تنتصر أيضاً فى معركة أنوال على الامبراطورية الفرنسية فى أزهى عصورها فى أوائل هذا القرن ، بل كنت أحس قوة تصميم ونقاء وشجاعة القائد عمر المختار رحمه الله وهو يروع الفاشستية الإيطالية ليسطر ملاحم الشرف والإباء.. بل كان هناك فى قافلة الشهداء والأبطال والعظماء كان هناك عبد القادر الجزائرى .. وعز الدين القسام .. والشيخ بن باديس والإبراهيمى وحسن البنا

وعلى الطريق نفسه سار الشيخ أحمد ياسين بل إننى ألمح أسد وادى باتشير يستمد من طريق يقف وعلى أوله أسد الله حمزة .. وسيف الله خالد وسعد وعلى .. طريق العظماء .. والشهداء .. وأهتف أنا ويهتف الجميع ذلك الأثر الشريف :

أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره

كل هذا الاستطراد لأن قصة صقر القوقاز تدفع بالإنسان إلى أن يطالع فى صفحات التاريخ أمجاد هؤلاء كلهم .. بل إن الخيال ليجمح حين يقرأ قصة الشيخ شامل لتطالع أيضاً البطولات الشاملة لأبطال الإسلام.

تطالعك عزيزى القارىء بعض العبارات الجميلة الأخاذة مثل :

أرسل الإمام شامل إلى الجنرال غراب وهو المكلف بتعقبه خطاباً يقول له فيه : «لقد رصدت ضدى ثلاثين ألف روبل وأنا سعيد بذلك ، ولكن اعلم أننى أضن بدفع كوبيك واحد نظير رأسك ، ولا أقول رأسك أنت فقط ، بل أقول رأس القيصر نيقولا الأول المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة».

وحين يقارن الكاتب بين مواجهة الروس للآخرين ومواجهتهم لشامل رحمه الله فهو يقول : «أما عندما يواجه الجنرالات الروس شاملا فالأمر مختلف ؛ فالرصاص المنطلق خلفهم لا يلحقهم» كناية جميلة رائعة عن الفرار والذعر والفوضى بين جنود الروس ، إن هناك بعض الصفحات الرائعة يحسن فيها الكاتب رسم شخصية الشيخ شامل رحمه الله تشعر القارئ بنفحة عزة إيمانية عجيبة كتلك المقابلة بينه وبين رسول القيصر الجنرال فون كلو جناف فى ١٨ سبتمبر عام

١٨٣٧ عند نهر صولاق شمال داغستان ، لن أنقل المقابلة لكى لا أطيل على القارئ.. وحين يصل إليها ويقرأها سيفرح لأن الإسلام والتاريخ والقدر يتيحون للبشرية أن تهنأ بوجود أبطال ولكنهم مع ذلك لا يعرفون إلا الثقة والعزيمة والتصميم .. الثقة المطلقة بالله عز وجل ثم بالقضية التى يقاتلون من أجلها .. مقابلة رائعة سيستمتع فيها القارئ إلى درجة أنه سيعتقد أنها من خيال الكاتب .. وليست من خياله لأن شخصية الشيخ شامل كانت هكذا أو أكثر من ذلك ، فإن سيرة وشجاعة الشيخ شامل ودفقات الإيمان الراسخ فى قلبه تمثل سمواً وشجاعة لا تقرأ مثلها إلا فى سير الصحابة والصدر الأول رضوان الله عليهم.

ولقد كان الشيخ شامل أحق ببيت شوقى:

الله أكبر كم فى الفتح من عجب

يا شامل العز جدد خالد العرب

وكمثال رائع للشجاعة تجد فى القصة مواقف اقتبسها الكاتب من سيرة الخنساء وأسماء بنت أبى بكر رحمهما الله ، فها هى أم تودع وترسل ابنها الرابع ليقاتل مع الإمام شامل بعد أن فقدت زوجها وأولادها الثلاثة.

أم عظيمة ما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه وصيتها بوصية أسماء ووصية الخنساء.

وإذا كان النثر هو أسلوب قصتنا هذه فإنها مع ذلك لا تخلو من ترنيمات تضارع جمال الشعر كالترنيمات التى يصف فيها جمال الشهادة وعظمة الشهيد فى سبيل الله يقول :

«أنت إنسان كبير ، ومكانك عند الله كبير ، لقد نلت

الشهادة.

قد لا يكون لك قبر معلوم ، ولكن هل هناك شاهد قبر أعظم من هذه الشجرة ؟

فى نومك الأبدى سيكون حفيف هذه الأشجار نشيداً لك.

وتغريد البلابل هو الدعاء لك ، الدعاء الذى لا ينفد ولا ينتهى.

أنت شهيد وابن شهيد.

النهار كفنك الأبيض .. والليل سريرك».

إن المؤلف كما ذكرت آنفاً يرسم لوحات جميلة ليس فقط لبلاد القوقاز الساحرة ولا لبلاد الشيشن الخلابة .. إنه بارع أيضاً فى رسم لوحات رائعة للنفوس الكبيرة العظيمة المؤمنة . هنالك جمال الدين ابن الشيخ شامل .. وهناك زوجته العظيمة «جوهرة» ووالدته .. رسم المؤلف أيضاً صورة لتقاطيع الشيخ شامل عن طريق وصف الشيخ قاسم الذى يشبهه . وكما هو معلوم فقد كان عدد كبير من المقاتلين من الدراويش والمؤلف الأستاذ سلجوق يرسم لوحة كاملة فى الصفات والأمثال لأحد هؤلاء الدراويش وكأنه يريد أن يقول إن الدراويش ليسوا كسالى.. إنهم ليسوا منعزلين ولا اتكاليين إن لهم دوراً يؤدونه حتى آخر القصة .. إنهم يقدمون الخدمات فى كل مكان .. ويظهرون عند كل ضائقة ليقدموا العون والمساعدة .. وترى الشيخ قاسم فى المعارك وفى رؤوس الجبال.. وفى ندوات العلم.. تراه يكتب ويسجل وينصح ويعظ ويصف روعة الشهادة فى سبيل الله ، وما أجمل وصف الدرويش حين يتحدث عن نفسه:

«قلت لك إنى درويش .. هل يمكن أن يكون للدرويش بيت؛ قبة السماء لحافى ووجه الأرض سريرى.. وكل مكان منزل ، وكل ناحية موقد» .

أما الروس القياصرة .. أما ضباطهم.. حتى القيصر نفسه، حتى فساد بلاطه .. كل هذا تجده أيضاً تجد عجرفة القيصر وانحرافاته وحده وجبروته فى أجمل وصف وأحسن تحليل .

الصور والتشبيهات : يقول الكاتب فى وصف بلاد الشاش «الشيشان» (١) :

(بلاد الشيشن تكون فى قسم كبير من السنة مثل سرير الضيف النظيف المغطى بملاءات بيضاء) (وارتفعت أراضى الشيشن المباركة وأشجارها الطويلة الباسقة الهائلة الحجم مثل أصبع الشهادة فى يد الإنسان) .

«جبال الشيشن جميلة كل مكان فيها فى بياض الكريستال» .

تأمل فى هذه الجمل : «ليس من السهل إطفاء عشق هذا الدين» .

ويسأل الشيخ قاسم شاملاً هل تثق بجنودك ؟ فيقول له الشيخ شامل : إنى أثق بالله . والشيخ شامل رحمه الله يدرس نفسية أعدائه ويضع نفسه مكانهم ليعرف كيف يفكر عدوه ؛ إنه يعرف بالتجربة والخبرة والذكاء نقطة الضعف عند أعدائه ويبنى خططه العسكرية على هذه الاستنتاجات والافتراضات التى تحتاج إلى ذكاء خارق .

---

(١) الذين تحركوا فى آخر عامنا هذا ١٩٩١ ورفضوا الانصياع لأحكام الطوارئ التى فرضتها عليهم الحكومة المركزية فى موسكو حتى اضطرت موسكو إلى سحب المجموعات التى أرسلتها.

لقد ازدهانى الإعجاب بوصف المؤلف لرجوع الجندى الروسى الأم التركى الأب إلى معسكر أبيه التركى .. إنه يصف كيف تسلسلت الأحداث شيئاً فشيئاً ثم يصف الخلجات النفسية النفيسة لباتوف الذى أبت أصوله التركية الشريفة إلا أن تستيقظ بعد أن رأت الانحدار المعيب والمشين للروس فى القوقاز .. لقد رأى الوضاعة والكيد والمكر والظلم والخسة هذا كله يصوره المؤلف.. ويصف رجوع باتوف إلى قومه ودخوله فى الإسلام ويختم المشهد بقوله : (إن الدم هو الدم) .

لقد كانت اللمسات الإنسانية فى معاملة الشيخ شامل للأسرى وذلك من تعاليم الإسلام السمح هو الذى دفع باتوف هذا إلى القول : بدأت أحب الأتراك (١) .. ليتهم عاملونا بقسوة حتى لا أحبهم ، لقد وصف المؤلف فى حوار شيق دار على ألسنة الأسرى الروس عدم إيمان الروس بالمعركة التى يخوضونها : «إنهم يقولون : إن المعركة معركة الضباط الكبار .

«هم الذين يربحون ، وهم الذين يخسرون» .

«أما هؤلاء الشيشان فإنهم يلقنوننا دروساً فى الإنسانية ، ما أعجب هذا ..

«تحاول الروسيا الكبيرة أن تفتح أسباب الخلاص لنفسها ثم ترسل الرقيق ... مساقين إلى الموت . وعندى أن هذا هو السبب الرئيسى فى ضياع الحروب» .

---

(١) [illegible]

لقد قال لنا الكاتب أشياء كثيرة فى قصته .. عنده فلسفة يريد أن ينقلها إلينا عبر قصته الهادفة العميقة . إن وجهة نظره فى الحرب بين المسلمين والصليبيين تتجلى فى قوله : «المتصارعان هما الصليب والهلال ويستمر هذا الصراع حتى يوم القيامة» .

«قال باتوف : مادام الله مع المسلمين فالمسلمون هم المنتصرون .

ونظر فى أعماق عينى الحاج قاسم:

أليس كذلك أيها العجوز الطيب.

- ماذا تقول أنت ؟ أتريد أن تفقد الدنيا ماهيتها كساحة امتحان.

ألا يمكن لو أن الله أحب أن يجعل كل من على وجه الأرض مسلمين أن يفعل ذلك لماذا يكون على الأرض أديان مختلفة ومعتقدات مختلفة وأمم مختلفة وقضايا مختلفة.

همهم على وقال : حكمة.

لكن لسبب ، المسلمون سيؤدون فرض الجهاد من أجل نشر دينهم وسيثابون على ذلك.

الكفار يقومون بما يستوجبه الكفر ويقتحمون بلر غيا الذى فى جهنم وباختصار ، إن امتحان تنفيذ القانون على البشر لموضوع يمكن كتابة كتاب كامل عنه» .

إن القصة تحتاج إلى مخرج ومنتج يضحيان لإخراج عمل سينمائى ضخم وإذا كان الإفرنج يصنعون من الحبة قبة ويهولون فى أفلامهم من بعض أحداثهم فما أحرانا أن نلج هذا المجال ، ليكون لنا عمل سينمائى كالعمل الذى أنتج عن عمر المختار رحمه الله.

لقد أطلت فى الكتابة عن هذه القصة الشيقة وبقى لى أن أقول للذين قد لا تعجبهم خاتمتها .. إن هؤلاء العظماء وأمثالهم يقومون بواجبهم فى سبيل الله وأجرهم عليه . إنهم يشقون الطريق للأجيال ويتخذ الله منهم شهداء والله لا يحب الظالمين .. إنهم معالم على الطريق . طريق الحق وطريق الآخرة .. ولا يعتقدن أحد ما أنهم لم ينتصروا...

لقد انتصروا على أنفسهم وبهروا أعداءهم ببطولاتهم ولهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .. والله ينصر من يشاء.

إن مقاييس البشر جد خاطئة حين تعتبر عملا مثل عمل الإمام شامل ناقصا ، لعل روح الشيخ شامل رحمه الله كانت فى ممر خيبر وسالانغ . بل على قمم أفغانستان ومع أرواح المجاهدين .. إنها الروح التى انتصرت حتى بعد موت ابن باديس فى الجزائر والشيخ شامل فى القوقاز .. الروح التى تبقى نبراسا لا تنطفئ شعلته أبداً إنه جهاد مبارك مؤيد من عند الله.

وأختتم كلامى بجملة وردت فى القصة:

«الدعاء الذى تقويه الأفعال يقبله الله».

ثم بالدعاء الخالد الذى أورده المؤلف فى قصته على لسان أحد أبطاله قال :

«اللهم انصر الذين يدافعون عن المسلمين المنكسرين المسحوقين الذين تبعثر شرفهم» . آمين

محمد نادر عبد الله بازرباشى

كانت الطرق الضيقة الموصلة إلى (أهولكو) طويلة ممتدة وكأنها شريط من تلك الأشرطة الجميلة المستخدمة فى الزينة . يبدو هذا الشريط وكأنه قد أخذ حماما لتوه .. يبدو الجنود الروس بقعا سوداء قذرة فوق هذا الشريط الأبيض الناصع البياض.

وكان «شامل» وهو الإمام الذى اتخذه المجاهدون فى داغستان شيخا لهم والذى كانوا يعتبرون الموت فى سبيل تنفيذه أوامر الله نعمة من نعم المولى عليهم ، يقف على رأس حفنة من مجاهدى القوقاز قائداً لهم منذ ثلاثة أشهر ، يدافعون بإيمان عن قلعة «أهولكو» ضد القوات الروسية التى بلغت أربعين ألفاً من الجنود والضباط.

رفض «شامل» ، بكل الإباء والكبرياء ، وبلا أى تردد ، طلب القائد الروسى له بالتسليم للغزاة الكافرين ، ولم يكتف «شامل» بهذا الرفض فقط، بل كان يهزأ به.

كاد الجنرال «غراب» قائد الجيش الروسى ، يجن . صدر هذا الجنرال الشهير مغطى بالميداليات الذهبية التى منحها له القيصر ، هذا الجنرال الشهير يمتلك تحت إمرته كل أنواع الأسلحة المتقدمة . هذا الجنرال الشهير معروف بعلو كعبه القاهر للإنسانية ، ومع ذلك فلم يتمكن بعد من إخضاع هؤلاء المسلمين الداغستانيين . لذا كان يخفى غيظه وحقده بأن يضغط على أضراسه وأسنانه . كان يبدو كأنه يريد أن يخرج من نفسه.

كان يعلم أن فى القلعة التى يحاصرها نقصا فى مياه الشرب. ونقصاً فى الأكل ، وأن هذا النقص فى الماء والطعام قد بلغ حده .. كان يعلم هذا

لأنه سلط نيران مدفعيته منذ عدة أيام على صنبور نبع الماء مصدر الشرب والذى جعله الله مصدراً لكل شئ حى . وتسبب بذلك فى جفاف النبع . أما عن الطعام فلم يحدث أن جاءهم إلى القلعة مدد من أية جهة ومن أى مكان . إذن فهل يعيش هؤلاء الرجال داخل القعلة على الهواء فقط أكلاً وشرباً ؟

والحقيقة هى هذا : أهالى القلعة يجاهدون أن يعيشوا على الهواء . لأنهم منذ فترة لم يدخل حواصلهم الطعام ولم تبلل نقطة ماء واحدة شفاههم ، وأصبحوا فى شوق إلى الطعام والشراب . لكن لم تضعف قط قوة مقاومتهم لعدوهم ولو مقدار ذرة . إن الهواء الذى يتنفسونه كان هواء حراً . أوليس هواء داغستان الحرة بكافة أهلها ؟

ربط هؤلاء الداغستانيون الأحجار على بطونهم حتى لا يشعروا بالجوع ، وكان كبار السن من الرجال والنساء ومعهم الفتيات يعملون ويجاهدون . الكل يعمل . كان الجميع يبذلون أقصى طاقاتهم وكامن قواهم لكى يحملوا الرصاص والذخيرة إلى أبراج القلعة ليستخدمها الرماة . كان الجميع ينظرون إلى الموت بشوق وإلى الأسر بفزع . كان الشئ الوحيد الذى لا يريد أحد أن يذكره هو الأسر . فلقد كانوا يرون الوحشية الروسية بين حين وآخر. وكان حكمهم هذا مبنياً على تجاربهم مع الروس ومعاملة هؤلاء لهم. لقد كان الموت أفضل ألف مرة ، بل أن يموتوا ثم يبعثوا ليحاربوا ألف مرة أخرى أهون لديهم من الوقوع فى أسر الروس.

كان هذا الشعور يدفع المجاهدين وأهل القلعة للصمود ليلاً ونهاراً . لقد كانت العيون التى أرهقها الحرمان من النوم وملأتها الدماء احمراراً متوهجة تنظر من فوق أبراج القلعة بوهج مشرئبة إلى تحقيق الانتقام الرهيب لتكيل اللعنات على الجنود الروس.

كانت هنالك صيحات تصل إلى أذنى الجنرال غراب بين الحين والحين . كانت هذه الصيحات ؛ أصوات المجاهدين الداغستانيين وأهل القلعة . كانت هذه الأصوات تصرخ قائلة:

– الموت للجنود الذين أتوا لقتل حريتنا . لعنة الله على الأسر الذى ينعق كالبوم فوق الحرية. اللهم إنا نسألك الشهادة فى سبيلك.

وكان هذا كفيلاً لأن يعض الجنرال شفتيه بحقد أسود . وكان هو بدوره يتمتم قائلاً :

– قهراً لهم جميعاً قهراً لكل أهل داغستان وليأخذهم الشيطان جميعاً .

كان الجنرال منكفئا على شجرة ، وخلف هذه الشجرة يقف ياوره وقد مد رأسه وهو واقف فى صمت التماثيل واضعاً يديه على صدره . قال الياور لقائده:

– لم أفهم يا سيدى الجنرال .

نظر الجنرال بنظرات مستخفة إلى ياوره . كان واضحاً حتى من وقفة هذا الرجل مدى احتياجه إلى الضبط والربط والنظام . لذا صاح به قائلاً :

– أيها الحمار .. أيها الحمار البرى الكبير ..

لم يهتم «الياور» بهذا الكلام وكأن أحداً لم يسبه ، وقال :

– الحق معكم يا سيدى.

– بالطبع إن الحق معى ، وإنك لحمار قوقازى ضخم.

– أ .... أنا ؟ ولماذا يا سيدى الجنرال . وماذا فعلت حتى أستحق كل هذه الشتائم ؟

صاح الجنرال «غراب» بحدة قائلاً :

– قف وقفة استعداد.. استعد !

تحرك الرائد الشاب وكأنما أصابه مس من جنون . ثم استعاد نفسه . شد رجليه وألصق يديه على خطوط بنطلونه ، وحيا قائده بشدة قائلاً :

- أمركم يا سيدى الجنرال .

مد غراب إصبعه نحو الخلف وقال :

- هيا اغرب عن وجهى ولا تأت مرة أخرى إلا إذا استدعيتك.

- تمام يا أفندم .

وبينما كان يبتعد عن المكان حدث نفسه قائلاً :

- إنه يتقيأ علىّ لأنه لا يستطيع أن يوصل حقده هذا إلى شامل . هذا الجنرال الأحمق يظن أنه سيصبح سلطان الدنيا . إذا قبض على شامل . والتفت خلفه وبصق .

- تباً لجنرال مثلك ! انظر واخجل مما تفعله فى سبيل الحصول على ميدالية أخرى.

كانت كل جهود الجنرال غراب تهدف إلى حصوله على ميدالية ، فتزداد ميدالياته واحدة . والعكس بالنسبة لشامل الذى كان قد حمل السلاح دفاعاً عن دينه وحريته . وكان حوله مريدوه الذين كانوا يقاسمونه نفس أفكاره . كل واحد منهم قلعة ، كل واحد منهم مدفع صحراوى :

- إنه لشئ تافه . أن يقترح الروس علينا الأسر فى حين أننا رجال فى حالة استعداد دائم لاحتضان الموت احتضاننا لأحبابنا . إننا رجال فى حالة تعطش دائم للاستشهاد فى سبيل الله.

على هذا ركز «شامل» خطبته ، وبهذا قال . ودخل المسجد بين أصوات التهليل والتكبير . وأرجع غطاء رأسه قليلاً إلى الوراء . وكان غطاء رأسه هذا قالباق أسود كثيف الشعر مصنوعاً من جلد الحيوانات . وفتح جبهته على آخرها . وانتظر أن ينتظم الناس فى صفوف للصلاة . وبعد أن اطمأن لهذا كبر ، بدءا بالصلاة .

لم تكن صلاة الظهر هذه ، تشبه صلاة مثلها حتى لحظة إقامتها . كانت تحمل معانى عظيمة وعميقة . فحصار العدو ، والمدافع الهادرة ، وطلقات

البنادق والقذائف التى تسقط على حجارة المسجد بين الحين والحين ، لم يكن كل هذا يؤثر على القلوب الطاهرة المتجهة إلى الله ، فالطمأنينة والسكينة تغمر الجميع ، ويغمر الإخلاص القلوب بقوته العظيمة.

التفت «شامل» بعد الصلاة ، نحو جماعة المصلين وقال :

– الجنود ، إلى مواقعهم ، أما نوابى فيبقون هنا.

تحلقوا حوله . سكت لفترة وهو يسمع أصوات المدافع . ثم أدار وجهه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . وفحص نوابه فرداً فرداً وقال :

– الموقف كما تعلمون وأعلم ، وليس هناك مدعاة لتكرار الكلام ، وأرى قراركم قرار إجماع الأمة ، فهيا نبحث الأمر؟

– لم ير أحد حاجة للانتظار ، أما التردد فلم يخطر ولو لحظة على قلب أحد . وهمست الشفاه بالجملة التى ألفوا تكرارها منذ شهور :

– لعنة الله على الذين يهربون من الشهادة ويفضلون الأسر عليها.

– إن خبزكم كله قد انتهى ولم يعد منه شئ.

– حاربوا فى «أحد» فى ظروف أشد قسوة.

– وماؤكم قد انتهى.

– لا نظن أنهم فى بدر كانوا يفكرون فى ماء يشربونه.

– وانتهت الذخيرة.

– لكن سيوفنا مازالت معنا.

تنهد شامل بعمق وقال :

– آه ! لو لم يكن فى القلعة مسنون ونساء ، لكان الأمر فى غاية التمام..

– فلنعتبر أنهم غير موجودين . ويمكن أن نعتبرهم كلهم جنودا مثلنا.

قالت لى امرأتى قبل قليل : «لماذا نخاف الصراع مع العدو ، لماذا نخاف الموت فى سبيل ديننا ونحن بجوار رجالنا . لتحمل السيدات أطفالهن على ظهورهن وننطلق مثل إناث الصقور».

- الله أكبر!

وسقطت قذيفة مدفع فوق سطح المسجد ، بشدة جعلت عروق الخشب تنفلق وتتحطم . وانسابت وحدات الطوب إلى داخل القلعة .

- انبطحوا أرضاً !.

ولم ينبطحوا أرضاً ، بل سجدوا لله . وتحركت الشفاه ، سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان الله.

وعندما رفعوا رؤوسهم رأوا وجه السماء . فلقد انفتحت فى سقف المسجد فتحة كبيرة.

- اللهم حطم أياديهم ، تلك الأيادى التى امتدت إلى مسجدنا .

التفت إلى نوابه قائلاً :

- مادمتم قد اتفقتم على مواصلة الجهاد ، فهيا جميعكم إلى مواقعكم . إننا قلة . لكن عزمنا كبير. وإننا مؤمنون .. وطاقتنا تكفى للدفاع فترة أخرى والله المستعان.

تسللوا إلى الأبراج فى صمت.. وقف المدفعيون بجوار مدافعهم لكنهم لم يشعلوا نار أى مدفع قط حتى لا يذهب البارود سدى. فلقد أصبح الجرام الواحد من هذا البارود ثميناً وغاليا . مع أن الروس ينفقون هذا الذهب الاسود وكأنه ميراث ورثوه.

كان الجنرال «غراب» قد بدأ هجومه الكبير على الداغستانيين المحاصرين فى القلعة المدافعين عنها لأنه كان يؤمن مائة فى المائة بأنه سيصل إلى نتيجة قطعية . وكان قد جمع ضباطه وجعلهم يقسمون اليمين وحمل عليهم قائلا :

- فلتذهب القلعة إلى الجحيم . احضروا لى «شاملا» حياً . وفى نظير ذلك أصفح عن مائة قلعة.

كان «شامل» هو كل ما يريده هذا الجنرال الروسى . كان يتصور أن صراع القوقاز لا يمكن أن يستمر بدونه . وأن الداغستانيين بدون «شامل» يتامى وجنود مصابون قطعت أياديهم وأرجلهم ولا يأتى منهم أى نفع.

– لا حجر على حجر ولا رأس على جسم . يا أولاد القيصر .. هيا اهجموا.

وصل هذا الأمر فى اللحظة نفسها إلى كل الخطوط القتالية . وصل من فم إلى فم ومن أذن إلى أذن. وضرب فى الغابات الكثيفة وجثم على الأرض على ركبتيه دون أن يستطيع تسلق أبراج «أهولكو» البائسة.

قام الجيش الروسى بتنفيذ الهجوم مرتين ووقف المحاربون الداغستانيون وهم من أولى العزم بسيوفهم العارية ضد المدافع يقتلعون الجنود من جسم القلعة ونجحوا فى إبعادهم إلى خطوطهم القتالية مرة أخرى.

أحاط «غراب» رأسه بيديه وضغط عليها ضغطاً شديدا . وقال لياوره وهو يبتسم ببلاهة :

– إنه يريد أن يطيح بعقلك .

لكنه لن ينجح . وإن شامل . وإن شامل سينسف عقلك الضيق أصلا ما أجمل هذا !!

آثار الدماء الآن على كل الطرق الموصلة إلى «أهولكو» كان الداغستانيون يعيشون فى سلام مع الجنود الروس لآخر لحظة من حياتهم التى لم يشبعوا منها . وكان سلاماً بلا روح ولا إحساس. سلام الأجساد الخالية من الروح. وإلا فليس فى الإمكان أن يسود السلام بين الروس وبين الداغستانيين فى أى وقت من الأوقات.

أقسم من فى القلعة مرة أخرى على هذا :

– كل من يكون عوناً للروس فهو روسى وهو عدونا الأزلى . إننا نقسم باسم الله على الجهاد حتى الموت.

حمل الجنرال «غراب» مرة أخرى على المسلمين قبيل العصر . ولكن القذائف الروسية ذابت بعد أن اصطدمت بالصدور المفعمة بالإيمان واستطاع السلاح الأبيض الروسى هذه المرة الامتداد حتى وصل إلى القلوب الثابتة بالعقيدة . لكن السلاح الأبيض لم يستطع اجتثاث هذا الايمان من أى قلب قط . وارتد حد السلاح الأبيض الطاعن ، ارتد أمام صلابة القلوب الشديدة الإيمان بالحرية والغيرة الدينية الراسخة بقوة فى الصدور.

أصاب الرصاص الغادر الظالم الغاشم ، الزوجات الحوامل والنساء اللاتى يربطن أطفالهن على ظهورهن . ومع ظلام المساء ، وصل اقتراح سافل من الجنرال «غراب» ، يقول :

– سلموا دون قيد ولا شرط . فكروا جيداً فيما سيحدث لكم إذا دخلت قواتى القلعة عنوة . وإنى أعانى صعوبة فى السيطرة على جنودى . إنهم فقدوا صبرهم ، لأنهم يريدون الاستيلاء على القلعة سريعاً . وستقع مسئولية المذابح التى ستحدث فى القلعة على الذين يرفضون تسليم القلعة حيث يموت فيها الجميع من كبار السن إلى الأطفال فى المهود .

لم يتعجل شامل الرد . وقال إنه سيبلغ قراره فى الصباح وعاد المندوب الروسى من حيث أتى . ثم سأل نوابه :

– ما رأى الأمة ؟

– فكروا وأطالوا التفكير.

– لنطلب مهلة نصف شهر . وليسمحوا لنا خلال هذه الفترة بالحصول على الماء . وبعد ذلك ندع الأمر لله.

أبلغ المندوب الروسى وكان قد أسرع بالمجئ صباحاً بالكلام نفسه . وعاد الرجل إلى الجنرال «غراب» حائراً تائها ، وقال له :

– إنهم يريدون أن تسمح لهم بمهلة نصف شهر وأن يحصلوا على الماء. ثم يستطيعون بعد ذلك دراسة شروط التسليم.

انطلق الجنرال «غراب» يعوى قائلا :

– ما كل هذا ؟ إنهم قد جنوا ولا شك . ألا يرون أننا نحاصرهم ، ألا يعلمون أننى أستطيع أن أفنيهم عن آخرهم ؟ أهم المنتصرون أم نحن ؟

– إنهم يقولون أن ليس فى الأمر حتى الآن غالب ولا مغلوب ، كما يقولون بأنهم سيجبروننا على الخضوع والتسليم.

– أيها المعتوه ! أأنت محام عنهم ؟

– إنى أنقل ما يقولون يا سيدى.

– الأمر لا يحتاج ذلك ، فلا تنقل . قف ! إلى أين تذهب ؟ أقلت لك أن تذهب ؟ نعم ، أقول اذهب ، الآن وفوراً.

– إنى ذاهب يا سيدى.

– إلى أين ؟

– ألم تقل لى يا سيدى الجنرال أن أذهب ؟ إنى ذاهب لأنام.

– يا حمار ! إنى قلت لك اذهب ولم أقل لك اذهب لتنام . ستذهب إلى القلعة.

– إلى القلعة !

– ستقول لهم : إذا أعطيتمونا جمال الدين بن شامل رهينة فيمكن فى تلك الحالة أن أقبل رغبتهم . وإلا فإن الهجوم النهائى سيبدأ مع الشفق.

– سأذهب فى هذا الظلام . أليس كذلك يا سيدى الجنرال؟ سيقتلونى بالرصاص فوراً.

ضرب قدمه بحدة.

– إن معارضة الرتب الأعلى فى حالة الحرب تمرد . أتود أن تعدم رميا بالرصاص ، أم تذهب إلى القلعة ؟ أنّ الرجل وقال :

– إذا كان لابد من الموت ، فمن الافضل أن يموت الانسان برصاص عدوه.

– هيا ، ولا تتوقف !

وذهب المندوب ، أخذ طريقه قفزاً . واقترب أكثر وعندما وصل إلى مكان يمكن منه سماع صوته بدأ يصيح عالياً.

– يا أهل القلعة !

– من أنت ؟

– مندوب الجنرال «غراب» ، ائذنوا لى بمقابلة شامل لأن عندى ما أقول له .

أخبروا شاملاً بالخبر ، فأمرهم بألا يتعرض له أحد بأذى وأخذوا الرجل مباشرة لمقابلته.

– لقد أحضرت جواب الجنرال.

– هيا قله..

لم يكن فى وجه أحد ما ينم على الانفعال ولا القلق ، لم يكن فى الوجوه أثر الخوف . ولا قلق لأمر ما . لكن المندوب الروسى مرتبك.

– قلنا لك هيا تكلم ..

– الواقع .. إنى مجرد مندوب . ولا يستطيع أحد أن يعتبرنى مسئولا عن أى اقتراح . أليس كذلك؟

نظر «شامل» وهو مشمئز إلى الرجل الذى يخاف على روحه بهذا الشكل.

– إن عاداتكم القبيحة هذه ، لا نعرفها نحن فخيانة العهد شئ خاص بكم ، وكذلك قتل السفراء.

– يقول الجنرال .. وهذا لا يعنى قولى أنا ، يقول الجنرال ، عن ابنكم جمال الدين..

اقشعر بدن «شامل» . واستقام شعره كالشوك وقال :

– نعم ...

– والحق إن اقتراحاً كهذا يبدو فى نظرى رهيباً . لكن أرجو المعذرة والعفو ، فإنى مجرد رسول.

صاح الإمام :

– هيا تحدث ! ماذا يريد من جمال الدين؟

– أن ترسله رهينة . إنه بهذا الشكل يمكنه إعطاء المهلة التى تريدونها . وتلفت بهلع.

– لن تفعلوا بى شيئاً أليس كذلك؟

لم يكن هناك أى تعبير من أى نوع كان ، على الوجوه الجامدة كالجدران لا صوت ولا معنى.

وبعد قليل إذا بصوت «محمد الآهوردى» يقول :

– إنى أشمئز من مهنة العسكرية أمام هذا العجز الذى يبديه الجنرال. لكن هذا شئ خاص بالروس.

وصاح بالمندوب الروسى بكل الاشمئزاز :

– جوابنا الرفض . هيا اغرب عنا.

– يعنى أأستطيع الانصراف؟

قال له الشيخ «شامل» :

– قف .

ثم التفت الشيخ «شامل» إلى «محمد الآهوردى» ، وقال :

– لست أنت وحدك فى هذا المكان فقط . ولكل واحد رأيه.

– ولكن يا شيخنا . إن ابنكم هو موضوع الكلام إنه ابنكم ، فلذة كبدكم. فمن يستطيع قبول اقتراح كهذا؟

- أنا ...

نزل هذا الرد على المجتمعين فى صفير يلسع كالسوط . اعتدل شامل ، واتجه سائراً نحو «محمد الآهوردى» :

- لو كانوا طلبوا ابنك رهينة ، أكنت تقول لهم : «إن حياة ابنى تعادل أرواح أهل القلعة ؟».

- كنت أقبل طلبهم بالطبع.

- أرأيت يا محمد ؟ لماذا تجد ما هو سهل على نفسك ، صعباً علىّ؟ أليس إيمانى قدر إيمانك؟ أأنا ضعيف للدرجة التى لا أستطيع منافستك فى التضحية؟

- أستغفر الله يا شيخنا ، لم يكن هذا هو المراد من قولى .

عاد الشيخ الإمام إلى مكانه مرة أخرى . فحص نوابه بنظراته.

- أخبرونى بما ترونه . ولعنة الله ثم لعنة رسوله على الذى يصدر حكماً يحابينى فيه ويستهدف منه حمايتى.

فكر النواب ، وتحادثوا ، وتهامسوا ، ثم كان القرار:

- الولد ولدك ، فافعل به كما تريد.

اعتدل الإمام . واعتدل معه كل الموجودين . ساد الغرفة سكون شامل مزعج . ثم إذا بصوت شامل يأتى ممتلئاً:

- فلينتظر مندوب الجنرال.

ثم خرج . واتجه مباشرة إلى بيته . وجد أن السيدة «جوهرة» إحدى زوجاته آخذة ابنها محمد سعيد الصغير ذى السنتين من عمره فى حضنها ومشغولة بتنويمه . وعندما رأت زوجها يدخل البيت صامتاً كالصخرة ضغطت ابنها على صدرها ثم نهضت.

همست له قائلة :

- أهلا بك .

لم تكن قد رأت وجهه بهذا القرب منذ أيام وأيام.

اقتربت منه أكثر لتملأ عينيها وقلبها برؤيته.

- أهناك ما يشغلك ؟

تركزت عينا «شامل» على ابنه «جمال الدين» ذى الثانية عشرة سنة من عمره والذى كان ينام فوق جلد خروف مدبوغ فى وداعة ظاهرة . ولم يستطع إبعادهما عنه.

- يا زوجى العظيم وقد أقسمت على أن أفديك بحياتى ، لماذا لا تفصح لى عن همك ؟

كان قلب الأم فى هذه السيدة الشابة يرتعش . انغرست كالمثقاب فى مخها بعض أفكار رديئة . ترى أن عينى زوجها لم تنفك مركزة على ابنها «جمال الدين» وشعر قلب الأم بالقرار الفظيع . وضعت صغيرها محمد سعيد على جانب ، وانطلقت إلى «جمال الدين» كأنها أنثى فهد مجروحة . ضغطت على قلبها المملوء بالحب العميق العلوى. بلعت آهتها التى انسدت فى حلقها :

- أجئت لأخذه؟

اضطر «شامل» لإنزال عينيه عن ابنه. أحس «شامل» وهو صقر داغستان الذى لم يكن ينزل نظراته أمام القوات التى تفوقه مرات ومرات نظرات هذا الصقر الذى لم يعرف إحناء الرأس ، أحس فى هذه اللحظة أنه يذوب أمام الارتعاشات الضعيفة التى تصدر من قلب الأم الشابة. لا ينبغى أن يطول هذا المشهد أكثر من هذا . وإلا فإنه لن يستطيع تحمله ، وإلا فيمكن أن يتراجع . مد ذراعيه وقال :

- أعطه لى .

- ألن تقول إلى أين ستذهب به ؟

– سأعطيه رهينة للروس . وعند ذلك سنكون أنقذنا الأطفال الآخرين من أولاد أهل القلعة المسلمين . اليوم جاء دورنا لتضحى يا زوجتى «جوهرة».

لم تطرأ أدنى حركة على المرأة يمكن أن تؤول بأنها تردد . ولم يكن الذى حدث سوى أنها مست بشفتيها الجافتين اللتين هربت منهما الدماء شعر ابنها الذهبى . ومررت شفتيها إلى عينيه. استيقظ «جمال الدين» على هذه الحركة التى تثير القشعريرة.

نظر إلى وجه أمه الطاهر وإلى عينيها الدامعتين وهو يبتسم قائلاً:

– هل أذن المؤذن لصلاة الفجر يا أمى؟

– لا يا بنى العزيز . لم يدخل وقت الفجر بعد . إن هذا وقت عبادة أخرى لك . هيا ، اذهب إلى حضن أبيك . وافعل ما يقوله.

انطلق الطفل قائلاً:

– لو قلت لى يا أمى مت. سأموت ، المهم أن يكون قلبك هانئاً.

أحاط الشيخ «شامل» ابنه بذراعيه القويتين . وحدثه قائلاً :

– سأسلمك حتى يأخذوك إلى القائد الروسى يا «جمال الدين» . وهناك سترسم لوحة شجاعة . ستريهم كيف أنك ابن الإمام.

تسحبت نظرات «جمال الدين» وقال :

– هل هو شرط أن أكون أسيراً يا والدى ؟ ألا يمكن أن أحارب فأموت مثل كل الداغستانيين؟

– لا يمكن يا ولدى.

– ألا يمكن أن تخنقنى بيديك ولا تسلمنى للرسول ؟

ثم سكت عندما رأى بريق الحزن فى عينى أبيه ، وقال :

– سامحنى . افعل ما هو لازم ، فأنت أدرى بالأحسن.

انطلقت الأم الشابة مرة واحدة وقالت :

– ولدى.

تعلقت ثم صمتت. صاحت بزوجها الذى تلعثم ربما لأول مرة فى حياته:

– خذه ، ولا تهتم بحالى . إنى أفعل ذلك وأنا غير راغبة . آه .. إنى أخاف أن أضعف فأجعل الناس لا يستمعون إلى ما يجب عليهم من تضحيات.. هيا اذهب سريعاً.

وصلت هذه الكلمات الأخيرة إلى كل من كان مجتمعاً فى الخارج : النواب والجنود والنساء. فاضت العيون بالدموع . وغمغمت الشفاه كأنها تئن :

– ما أروع هذا يا ربى!

وسلم «جمال الدين» إلى المندوب الروسى.

غابت «أهولكو» بقلعتها ، وأشجارها ، وطرقها ، وممراتها ، وأبراجها فى صمت عميق. ولم ينفك قلب السيدة «جوهرة» عن الدق بعنف حتى الصباح . وبللت دموعها فرو الخروف الذى تصلى عليه وهو فرو ذو شعر كثيف . وهزت أناتها الكوخ الخشبى عدة ساعات . وهى تقول : «ابنى ، يا جمال الدين».

أما الإمام «شامل» ، فقد عاد إلى المسجد الذى طار سقفه . ولم يفتح قلبه إلا لله . وطلب من ربه أن يمنحه القوة . والصبر . والمتانة والمقاومة.

وماذا عن غراب ؟ ماذا كان يعمل هذا الجنرال الروسى ، الألمانى الأصل والتابعية ؟ هل سيحفظ وعده ؟ هل سيعطى مهلة النصف شهر فعلاً ؟

دعك يديه فترة ثم استدعى ياوره وأصدر إليه هذا الأمر :

– لن ينام أحد . كل شئ لابد أن يكون على استعداد . سنقوم بهجومنا العام مع الشفق.

وخرج الياور دون أن ينبس ببنت شفة . حتى بعض العقل الروسى لم يكن يستطيع هضم هذه الدناءة.

ظن أهل «أهولكو» أنهم ضمنوا بذلك وقف إطلاق النار مدة نصف شهر كما ظنوا أنهم سيهنأون بنوم لأول مرة منذ عدة أشهر . وقبل أن ينبلج الشفق سمعوا أصوات دوى المدافع . ونزل أمر شامل إلى كل الأطراف بحدة سيف:

– غدر العدو بنا ، فليكن ، لا تبادلوه النيران . فلم يبق من البارود معنا إلا القليل جداً . فليقتربوا جيداً ، ثم بعد ذلك ننزل على رؤوسهم .

وضع قطعان موسكو كل وحداتهم لتحيط بجسد القلعة وأخذوا يحرقون ويدمرون المكان بنيران جهنمية . الأطفال الجدد الصغار الذين فتحوا أعينهم على الحياة منذ قليل اختنقوا فى دمائهم من قبل أن يطهر دم أمهاتهم.

مدفعية العدو تسعر كلما انطلقت ضاربة . وكانت قذائف مدافع الحصار أى المدافع القاذفة الثقيلة ترتد مثل البلى الزجاجية فى الأطلال التى كونتها مدافع الصحراء ومدافع الحصار . ثم تدفقت خطوط القناصة الكثيفة فى فرق المشاة الروسية نحو القلعة ، فى موجات وتحول جسر (قويصو) إلى أنقاض . وقطع نهر «آشيلطا» مقدمة جنود موسكو.

يريد الجنرال «غراب» ألا يخسر دقيقة واحدة . فى الوقت الذى سكتت فيه مدفعية المسلمين وكان سكوت نيران الداغستانيين على هذا الوجه يعنى انتهاء ذخيرتهم من بارود ورصاص.

وأصدر الجنرال أمره :

– عليكم باجتياز النهر حالاً.

ولكى تنفذ وحدات القناصة ، أمر الجنرال ، ألقوا بأنفسهم فى أحضان النهر وساروا فيه . فكانوا كمن يحمل نفسه على الماء.

كانت هى اللحظة التى يترقبها شامل منذ ساعات بفارغ الصبر. فأصدر أمره فى صوت يكاد يمزق حنجرته :

– أطلقوا النار فى سبيل الله !

لم يفطن الجنود الروس الذين دخلوا فى المياه حتى حاذى سطح الماء صدورهم ، لما وقعوا فيه بل حتى لم يجدوا الفرصة لكى يفهموا ماذا حل بهم . وزهقت أرواحهم تحت نيران البنادق الكثيفة . واصطبغت مياه «أشيلطا» بالدماء . وجرف تيار النهر أجساد الروس فسارت فى سرعتها وأخذت فى سحبها وجرها.

وأصدر الإمام «شامل» قراره الحاسم :

- تعالوا كلكم خلفى . وليكن هذا النهر إما قبراً لعدونا أو قبرا لنا .

وانطلق المجاهدون وكلهم ذوو عزم إلى النهر بسرعة سهم انطلق تواً من قوسه . ودخلوا فى معركة حياة أو موت داخل النهر . واستخدم الجميع كل شئ من الأظافر إلى الأسنان إلى اللكمات .

وأخذ «شامل» يكيل الموت كيلاً للأعداء بالسيف الذى استخدمه بيده اليسرى . كان الداغستانى الواحد يقطع على الأقل عشرة رؤوس من رؤوس الروس عن أجسادها فتختفى فى مياه النهر الباردة.

غاب الإمام عن وعيه . وبينما كان يطلق الصيحة تلو الصيحة إذا بصوت امرأة ضعيف يسمعه فيلتفت:

- زوجى العظيم ، ها أنا ذا مع ابنك أتينا لكى نقضى آخر أنفاسنا فى سبيل ديننا.

كانت تلك المرأة هى السيدة «جوهرة» امرأته التى شاء حظها فى الأمس فقط أن تسلم ابنها رهينة ، جاءت وهى تهز السيف فى يدها وتربط ابنها الصغير «محمد سعيد» بإحكام فوق ظهرها .

لم يستطع أن يقول شيئاً . لكنه رأى أنها محاطة من كل جوانبها . انطلق إليها . لكن هذا الانطلاق جاء متأخراً . فلقد كان سيف البندقية الذى دخل صدر «جوهرة» قد خرج من ظهرها وقد خرق جسمها وجسم ابنها الصغير الذى تربطه على ظهرها ، ابنها ابن السنتين من عمره.

وسقط من بين شفتيها صوتها يقول :

- الله !

ولم يكن هذا الصوت مثل أية صيحة تمزق القلب بل كان دعاء ، وعبادة.

دارت عينا «شامل» . كبّر بكل ما فى صوته من قوة وغاص فى داخل العدو الكثيف.

أدرك الجنرال «غراب» فى نفس اللحظة مدى وخامة الموقف ، ورأى مرة أخرى ماذا يمكن أن يفعله الداغستانيون ، فساق قواته الاحتياطية بعد لم شملها.

أصيب «شامل» بثلاثة جراح بالغة فى ثلاثة أماكن من جسمه ففقد كثيراً من دمائه ولكنه ما زال واقفاً على قدميه . يهتز لكنه يتماسك ولا يسقط . ومع أنه فى حالته هذه ، فلم يجرؤ أى من الجنود الروس أن يقترب منه.

أصدر الشيخ الإمام أمره بالانسحاب لأنه أيقن ، بعد أن رأى الاحتياطى يدفع إلى الأمام ، أنه ينبغى وقف إراقة الدماء وإن قتل المسلمين بهذا الشكل لا ينفع لشئ قط فاتخذ قراراً بعدم لزوم استمرار القتال.

وأخذوا ينسحبون بهدوء . وعادوا مرة أخرى إلى القلعة . وأخذوا يزيدون نيران البنادق.

لم يعد يمكن تسمية المكان بالقلعة . فلقد أصبحت أنقاضا أكثر منها شيئاً آخر . وبعد ساعتين اجتاز العدو أكوام هذه الأنقاض .

وانتشر خبر استشهاد «شامل» كرياح الموت.

وأصاب هذا الخبر أخته «مسعدة» فى قلبها.

كانت تصيح قائلة :

- أيكون موت هذا الأسد الذى لم يحن رأسه للقياصرة ، سهلا هكذا وبسيطاً ؟

ورغم عدم رغبتها فى تصديق الخبر فقد كان قلبها يتمزق . قامت وكأنها أحد الجنود بالانطلاق إلى الخارج بسرعة جنونية آخذة سيفا فى يدها . وغاص السيف العارى بين صفوف العدو.

- إذا ن شامل قد استشهد فينبغى ألا أعيش . هيا تعالوا واقتلونى .

وأخذ تصيح بهذا الشكل حتى استشهدت .

بدت ا: مشة عليهم وقالوا:

- سبحان الله . إنه لموت يليق تماماً بأخت شامل.

مع أن الأمر لم يكن يعدو أن «شامل» قد فقد وعيه . كان يرقد أمام باب المسجد رآه جندى فأخذه إلى داخل المسجد. وذهب يزف البشرى للأحياء.

- شامل لم يمت.
- شامل حى.
- كل ما فى الأمر أنه مصاب ، ولابد من أخذه قسطا من الراحة.
- جروح فقط.

ثبتت قوة جديدة للعدو الذى يدخل القلعة . ماتت الأبدان المحملة بعشق الحرية ولكن عشق الحرية كان عالى الجبهة خالدا . سرت دماؤها لكى تشتعل فى القلوب الأخرى وفى الأجساد الأخرى الممتلئة بالعزم . تركت هذه الأبدان «أهولكو» بعد آخر جندى لفظ أنفاسه الأخيرة.

حارب العدو عدة شهور ، وخسر من المال والعتاد والأرواح ما لا يحصى عدده ولكنه مع كل هذا لم يستطع فتح هذه القلعة . لم يرفع العلم الروسى ليس على جسم القلعة فقط. ولم يرفع فوق صدور الشهداء الذين بذلوا أرواحهم من أجل دينهم وحريتهم (٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٩).

الحاج قاسم

تشرق الشمس ساطعة فى بلاد «الششن» فى أكثر الأيام . إنها تظل تحافظ على سطوعها هكذا فترة طويلة ، وأخيراً تترك وراءها شريطا أحمر اللون وتختفى خلف الجبال العالية وتذهب .

أما حرارة هذه البلاد التى تستطيع أن تذيب طبقات الجليد السميكة فلا تستمر حتى أوائل الصيف . لهذا السبب فإن بلاد «الششن» تكون فى قسم كبير من السنة مثل سرير الضيف النظيف المغطى بملاءات بيضاء.

حل ربيع عام ١٨٤٠ م مبكراً . ووجه السماء يلتف بوجهه الشاحب المكفهر فى أيام الشتاء حتى سطوع الربيع ، قد غطى بقيته السماوية الزرقاء هضاب «الششن» وجبالهم الوعرة.

الشمس تتسرب إلى داخل بلورات الجليد نقطة نقطة . والنباتات البرية التى ظهرت قبل أوانها ، تهتز بموجات الرياح الباردة التى تحملها الرياح الجبلية . وهذه تذكرنا بإيقاع التمايل المنغم الذى يقوم به الدراويش فى خشوع.

وارتفعت أراضى «الششن» المباركة . وأشجارها الطويلة الباسقة الهائلة الحجم مثل أصبع الشهادة فى يد الإنسان .. تظهر كثافتها فى بعض الأماكن وتندر فى أماكن أخرى ، وانتشرت هذه الأشجار بشكل كبير منذ اليوم الذى دخل فيه الروس الحرب الضروس مع الداغستانيين . إن كل شجرة من هذه الأشجار ترتوى أحياناً بدم شهيد ، وأحياناً أخرى توصم وتشان بدماء أحد الجنود الروس.

جبال «الششن» جميلة إلى درجة لا يمكن تصديقها فى أشهر الربيع والصيف. إنها تذكر الإنسان بركن من أركان الجنة. كل مكان فيها فى بياض الكريستال . وفى كل ناحية أزهار جبلية أحنت رقابها ، وعلى كل ضفة مخلوقات برية أجمل من نظيرتها تتنافس فى الجمال .

الرجل الذى فوق التل الصغير مرتبك . يحاول أن يحمى عينيه من الشمس بأن يضع يداً من يديه الاثنتين حاجزاً فوق حاجبيه وينظر بإصرار دون أن يهتم باحتراق بؤبؤ عينيه بالشمس الحارقة.

تزحلقت رجله ذات مرة فأمسك جيداً بعرف البغل المصاحب له وبذلك لم يقع . راقب جيداً وبعناية فائقة المكان الذى وضع قدميه عليه . إنه يرتدى جبة واسعة لا يرتديها إلا الدراويش ، وعلى رأسه عمامة منخفضة ملفوفة بيضاء. وأحاطت بوجهه لحية مستديرة مقصوصة قصيرة سوداء. يبدو ضعيف البدن نحيله قصير الجسم وتبعث على الحيرة استطاعته الوقوف على قدميه . وازرقت من البرودة عظام وجنتيه.

كان يمكن الظن بأنه ميت واقف على قدميه بشكل أو بآخر . لولا بريق يتوهج فى عينيه . بريق لا يكون إلا فى الرجال الأذكياء جداً . كان ينظر بهما متفحصا متعمقاً وباحثاً.

وبعد فترة ، مسح فك بغله ، وقرب فمه من أذنه . خفض من صوته كأنه سيقول له سراً.

– هيا نمشى الآن يا صديقى لعلنا نلتقى بأحد الرعاة «الششن» يمكن أن يقدم لك طعاماً تشبع منه . إنى أعدك بذلك.

شده من لجامه . وأخذ فى إنزاله من التل الصغير وهو يكاد يسحبه.

والحق أنه وجد راعياً ششنياً يرعى حيواناته تحت السطح . وعندما رأى هذا الراعى ، درويشاً وبغلاً معه ، أبعد الناى عن شفتيه وأسكت كلبه بعد أن كان ينبح ، ونهض على قدميه ، وانتظر.

سلام عليكم ، أيها الراعى الشفنى الصديق ، هل عندك كوب من الحليب تعطيه لى أنا الحاج «قاسم» المسكين حتى أستطيع مواصلة سيرى؟..

قال الراعى:

– نعم . عندى حليب أعطيك إياه ، كما أن عندى عشباً يشبع بغلك . دع حيوانك ليرعى قليلاً ، أو أقدم له العشب الجاف ، إذا كانت لك رغبة فى هذا...

– يفضل رفيق سفرى – وهو عزيز على – العشب الجاف . ذلك لأنه لم يعد لديه الوقت ليتعلم الرعى.

ضحك الراعى غصباً عنه وقال :

– غريب هذا ، أول مرة أرى بغلاً ليس لديه الوقت للرعى.

– هل نحن فى مأمن إذا سرنا فى هذه المنطقة ، أنا وهو ؟ إنه لنقص بالعقل كبير عدم معرفة بغل بالرعى ، لكنه ، لا يهتم بهذا . إنه يعرف أشياء أخرى . أشياء لا يعرفها بغل غيره.

نظر الراعى إلى الرجل بكلامه الغريب ، نظرة حائرة ثم قال :

– أمعقول أن البغال تتكلم ؟

– إنه لا يستطيع ذلك حتى الآن ، لكن لديه الاستعداد لشئ أكثر أهمية بالنسبة للبغال مثله ، يتسلق جيداً ، ويتغلب على الصخور الحادة الشديدة . وبفضله اجتزت جبالاً كانَ من المعتقد أن لا يمكن لأحد اجتيازها.

– معنى هذا أنك رحالة بهذا البغل. حسناً ! ولكن لماذا لا تركب فوق ظهره؟

نظر الدرويش إلى بغله . وقال :

– أليس من الظلم أن أحمله نفسى بثقلى هذا فوق الجوالات الأربعة التى على ظهره؟

التفت إلى الراعى مرة أخرى ، وأشار إلى عقله وهو يضحك ويقول :
– لو استطعت أن أستوعب ما فى هذه الجوالات فى عقلى البسيـ
هذا . لكان لى الحق فى أن أمتطى صهوة بغلى . إنى أمتلك عقلاً وهو يحم
لى .
– عقل ؟
لم يجب الحاج «قاسم» عليه . فك الحاج «قاسم» رباط أحد الجوالا
المربوطة على ظهر البغل . وأدخل يده فى داخله . وأخرج كتاباً ضخماً
وهزه نحو الراعى وقال له :
– كل الجوالات مملوءة بمثل هذا . فيها معلومات أحتاجها . ولا أستطيـ
أن أتركها وأذهب فى مكان.
لم يستطع الراعى أن يمسك نفسه من الضحك.
– إنى أفهم الآن كيف حمل هذا البغل ، عقلك ، أنت تسمى هذه الكتب
التى يحملها بغلك بأنها عقلك.
ضحك الحاج «قاسم» بدوره ، وقال :
– حسناً ، ولكن ، إذا امتد الحديث أكثر من هذا ، فستجد هذا الذى
يتحدث معك الآن درويشاً ميتاً بدلاً من الحاج «قاسم».
– صحيح إنى نسيت أنك جائع . المسألة أن رؤية درويش هنا فى أرض
الله وجباله أدهشنى .
أسرع الراعى . وأحضر إناء كبيراً مليئاً باللبن . وأسلمه إلى الدرويش.
– بالهناء والعافية ، والآن سأحضر لبغلك عشباً جافاً وبعد ذلك إذا
سمحت لى أن أطعمه الرعى.
انتهى الحاج «قاسم» من شرب اللبن فى ثلاثة أنفاس . وفى هذه المدة
كان الراعى قد أحضر عشباً جافاً ورماه أمام البغل.
سأله الدرويش قائلاً :

- وكيف ستعلمه.

مد الراعى يده نحو الجبال وقال :

- بالعصا طبعاً ، ولقد ألقينا دروساً كثيرة على الأشرار الروس بالعصا انطلاقاً من إيماننا.

قال الحاج «قاسم» :

- الحمد لله .

ثم مسح شفتيه ، ومد يده إلى الراعى بالكوب الفارغ.

- لنجلس إذا أحببت.

وجلسا جنباً إلى جنب فوق لباد . قال :

- حدثنى يا حاج «قاسم» .

- وعن ماذا أحدثك ؟

- عن إمامك .

- الشيخ شامل ؟

- طبعاً ، عندما نقول كلمة الإمام فى منطقة القوقاز الهائلة فمن يكون غيره؟

- الحق معك . إمامنا فريد ليس فى القوقاز فقط وإنما فى كل الدنيا طوله يبلغ المترين . عيناه زرقاوان تميلان إلى اللون الرمادى . انتظر لحظة لترى عينيك ومدى شبههما بعينى إمامك.

ظهر السرور على وجه الحاج «قاسم» وقال :

- أصحيح ؟

لم يجب الراعى على هذا السؤال . واستمر فى كلامه عن شامل.

- وجهه أسمر ، تحيط اللحية به . أنت كذلك . شئ غريب .. هل تعرف الإمام ؟

- لا . سمعت اسمه كثيراً ولكن.

- فهمت . إنهم حكوا لك عنه ، فجعلت لحيتك على شكل لحيته حت تشبهه.

- وجعلت لون عينى أزرق ضاربا إلى اللون الرمادى مثله . أليس كذلك

- غير معقول ، فلون العين منحة من الله.

ضحك وقال :

- سمعت أن الروس يرتدون شعراً عجيباً يسمونه الباروك . واستخدمو وسيلة لإخفاء الصلع ، ولا أدرى هل عملوا شيئاً للون العين أم لا ؟

عاد الدرويش مرة أخرى إلى الحديث، فقال :

- أنا لم أر شاملا قط .

- يا أسفاً على هذا. لابد أن تراه. وبالمناسبة ما هو عملك ؟

- لا أعمل شيئاً .

- وكيف تعيش؟

- ألا بد من القيام بعمل حتى نعيش ؟

- هكذا الأمر هنا فى بلاد الششن.

- ألا تعمل فى الزراعة أو فى الحدادة أو تجند فترى الويل من أج الكلاب الروس . ممنوع البطالة. لابد من نقود وطعام من أجل الحرب.

- أنا درويش .

- وللدراويش أيضا عمل .

- الدعاء .

- ولو كان الدعاء فى جبهات الحرب ألا يكون أفضل ؟

نظر إليه الحاج «قاسم» بحيرة وقال :

- أنت لا تشبه الرعاة العاديين .

تنفس الراعى نفساً عميقا، وقال :

- استمرت هذه الحرب طويلا . ويبدو أنها ستستمر أكثر . يصدر القيصر الأمر تلو الأمر للقبض على الإمام شامل حيا أو ميتا . ورصدت الحكومة الروسية للقبض عليه حيا أو ميتا مكافأة كانت فى البداية ثلاثمائة روبل ثم أصبحت ثلاثة آلاف روبل والآن وصلت إلى ثلاثين ألفا .

- ألا يطمع أحدكم فى مبلغ ضخم بهذا الشكل ؟

قال الراعى بهدوء وطمأنينة :

- ليس بيننا خائن .

- حسنا، وماذا يقول الشيخ شامل عن المبلغ الذى رصد ضده ؟

- يضحك ويقهقه. وكان قد أرسل إلى الجنرال «غراب» - وهو المكلف بتعقبه - خطابا يقول له فيه :

«لقد رصدت ضدى ثلاثين ألف روبل . وأنا سعيد بذلك، ولكن اعلم أننى أضن بدفع كوبيك واحد نظير رأسك، ولا أقول رأسك أنت بل أقول رأس القيصر الروسى نيقولا الأول المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة» .

تثاءب وقال :

- رد جميل أليس كذلك ؟

كان ينظر إلى وجه الدرويش منتظرا التصديق .

قال الدرويش :

- جميل ! إن الإمام إنسان كبير، طيب، طيب فى غاية الطيبة، يحارب من أجل معتقده . إنه الرجل الذى أبحث عنه .

- الذى تبحث عنه؟ ولماذا تبحث عن الإمام؟

- أريد أن أسجل سيرته .

– نعم، فهمت الآن. معنى هذا أنك من الذين يمسكون القلم فى أيديهم. هناك عمل أيضا للذين يمسكون بالقلم – مثلك – بجانب الإمام. وهو يحترم العلماء .

– تبدو كأنك تعرفه جيدا .

– بالطبع . لقد كان ضيفى هنا فى خيمتى البيضاء تلك لمدة يومين .

– متى ؟

– فى حرب «أهولكو» .

– سمعت عنها . يقولون أن شاملا قد قاوم كثيرا . لقد حارب بعشرة آلاف شخص ضد الجيش الروسى الذى كان تعداده أربعين ألفا . ولقد سقطت القلعة، لكن هذا السقوط كلف العدو كثيرا .

قطع الراعى كلامه وقال :

– لم أكن متواجدا فى الحرب لذلك لا أستطيع أن أسامح نفسى أبدا . لكنى كنت أحضر الحليب إلى القلعة بشكل مستمر وغذيت به مجاهدينا .

– وهل رأيت شاملا هناك .

– لا، لأنه استطاع أن يجد طريقا – عندما سقطت القلعة – وصعد إلى الجبال. وقد جرح جروحا غائرة فى ثلاثة أماكن من جسمه ووقع على جانب المرعى الذى أرعى الحيوانات فيه . وعندما كنت أطلق سراح الغنم صباحا، رأيته – عرفت من أول نظرة أنه شامل – لففت جراحه باللفافة التى فى عمامتى. وأخبرت قرية «داركو» بالأمر ثم أخذناه، وأشرفنا على علاجه. وهكذا تعرفت إليه .

– هذا حظ عظيم بالنسبة لراع .

– نعم . وليس لى ذكرى سعيدة أكثر من هذا، أفكر فى شامل بشكل متواصل. كنت أضع نصب عينى التضحية بحياتى من أجل أن أراه مرة. الشكر لك يا ربى .

رفع الحاج «قاسم» عينيه إلى وجه السماء. كانت هناك بعض سحب تتلاعب فى أطراف الشمس. وقد تلونت أوائلها باللون الذهبى. وكانت تأخذ أشكالا عدة .

– ألا تحدثنى كيف سقطت قلعة «أهولكو» .

– صمدوا شهورا. ولكن الأمر لم يكن بسيطا. فمن السهل أن تقول بلسانك عدد «أربعين ألفاً» لكن إخواننا فى الله لم يكونوا غير عشرة آلاف سيف فقط ، وعدة بنادق . هجموا بالمدافع. سقط برج سورها أولاً واستشهد على بك وهو قائد محبب إلى شامل صباحاً. جاءت قطعان الروس المسعورة لكى تستولى على داغستان، وعادوا وهى قبرستان.

– وما هدف هذه الحرب؟

– هدف ؟ أولاً وقبل كل شىء إننا بدأنا الحرب منذ الأزل وهذه الحرب مستمرة حتى الأبد. ولكن يبدو أن هناك سبباً ظاهرياً ، لها .

– حسبما سمعت أن الجنرال كلوج فون كلوجناف اقترح على الشيخ شامل أن يستسلم للروس، وكان هذا الجنرال هو الممثل الشخصى للقيصر الروسى. فأهان الشيخ شامل، هذا الجنرال الروسى. أفبهذا الشكل بدأت الحرب؟ ولهذا الهدف استمرت؟

– هذا هو الهدف الظاهرى. لكن أصل المسألة أن رياحاً تحمل الحقد من ناحية بطرسبرج، تريد إطفاء شعلة الإسلام والحرية.

– كيف كانت مقابلة الجنرال الروسى بالشيخ شامل؟

– لا أعرف هذا بالتفصيل. لكن أخى مالكاً كان جندياً فى قوات الشيخ شامل. وقد جرح أخى فى معركة «أهولكو»، وكان أثناء هذه المقابلة يقف على بعد ثلاث خطوات من شيخنا .

– وماذا قال ؟

أخرج الحاج «قاسم» قلماً وورقة من بين حزامه. ووضع الورقة على ركبته وأمسك بالقلم.

– هل ستكتب؟ وماذا يفيد كلام راع يحدثك عن ذكرياته، لم أر هذه المقابلة، كل ما فى الأمر أننى سمعتها .

– ولو، لأنى سأسجل كل شىء. والحكم على ذلك ستقرره الأجيال القادمة.

– وأنا لا أكذب، والله شهيد على ما أقول. سأنقل لك ما سمعته بالضبط ولو كان بين كلامى شىء من الكذب فالعهدة على أخى، التوبة يا ربى .. فى الأصل أعرف أننى إنسان بخيل. فكيف أستطيع أن أقول هذا ؟

– هيا حدثنى !

– نعم، أنت تنتظر ما أحكيه. إذن فاستمع. كان القيصر يتوق للقاء الشيخ شامل. كان يجرب معه مسألة إخضاعه بالوعود. كان يأمل أن يخضعه بشكل أن يتحسس عرف أسد داغستان الوحشى. كان يتمنى أن يسحب شاملا إلى عالم الملذات والتنعم فى قصر بطرسبرج وبذلك يستطيع أن يخدره إلى الأبد. ووظف القيصر، الجنرال الأعرج «كلوج فون كلوجناف». وأعطاه رسالة خطية كتبها القيصر بنفسه. وكان على الجنرال قراءة هذا المكتوب على شامل.

– أبطىء قليلا، ماذا كان اسم ذلك الجنرال ؟

– إنك تكتب بسرعة، وبسرعة كبيرة، الحقيقة أن اسم الجنرال كان غريباً، «كلوج فون كلوجناف» . كنت عندما أردت حفظ اسمه أكرره ربما ألف مرة. كان هذا الجنرال جرمانيا نمساويا. وقد فقد ساقه اليسرى أثناء حرب بين الروس وبيننا؛ لذلك فقد كان يركب بصعوبة على ظهر الحصان. على كل حال، هل كتبت ؟

- ليست هناك حاجة لكتابة آخر ما قلته. إن قتال جنرال ألمانى فى روسيا لأمر يفصح عن هوية الرجل. واضح أنه لا يساوى شروى نقير .

راح سرور الراعى يختفى من على وجهه، فرك يديه وقال :- سررت لتفكيرك هكذا .. إلى أى شعب تنتمى؟

أجابه الحاج «قاسم» دون أن يرفع رأسه من على الورقة :

- إنى مسلم .

- أقصد من أى عرق .

- تركى .

توهج وجه الراعى نورا وقال :

- يعنى أنت منا . قريبنا . إن هذا لشىء جميل . إنه لأمر رائع أن يكتب عالم تركى سيرة الشيخ شامل.

- هل ترى أننا بعدنا عن الموضوع؟

- ماذا كنت أقول؟

- كنت تتحدث عن لقاء الجنرال الروسى بالشيخ شامل.

- نعم . التقيا. تحققت المقابلة فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٣٧م. عند نهر صولاق فى شمال داغستان وقريب من بلاد الششن. استقبل الشيخ شامل ضيفه فوق سفح الجبل وأرسل خبرا يقول إنه مستعد للاستماع بواسطة مترجم.

أخرج الجنرال بعناية بالغة خطاب القيصر الذى كان الجنرال يحافظ عليه فى كيس من الجلد فى حقيبته، وبدأ فى قراءته. وكان المترجم يترجم الخطاب حرفا بحرف عند قراءة الجنرال له، وكان شامل يستمع فى عدم اكتراث .

- هل تذكر نص الخطاب؟

- لا أعرفه حرفياً، ولكن ما أراد قوله بالتقريب هو : ليترك شامل الحرب.

وليعترف بتبعيته للقيصر، والقيصر يعينه ملكا. وسيلبسه التاج المرصع بالجواهر. وستتدفق النقود عليه مثلما ينزل الماء من المزراب. وسيعيش أيامه فى سعادة ورفاهية وغنى .

– ألم تقل إنهم جربوا تعليق الحلقة الذهبية على رقبته.

– كلامك هذا صحيح جدا . الحلقة الذهبية. لكن الحلقة حتى ولو كانت من الذهب فهى فى كل زمان ومكان حلقة. وتمثل الأسر . أما الشيخ شامل فهو شعلة الحرية، ممثل الدين .

– نعم.

– انتظر الشيخ شامل إلى أن انتهت قراءة الخطاب ثم نهض على قدميه واستأذن قائلاً : «لأصلى قبل أن يضيع الوقت»، كان الشيخ شامل دائما على وضوء . لم يكن يخرج إلا وهو متوضىء. وسريعا وقف للصلاة على جلد غنم فى السقيفة وأخذ يدعو . ضجر الجنرال الروسى وهو يتفرج على المنظر، وأخيرا عندما جاء إلى جواره سأله باهتمام عن جوابه، قائلاً :

– «ما قولكم؟ كيف يمكن أن ننقل لصاحب الفخامة القيصر إجابتكم ؟

لم يكن هناك تعبير ما على وجه صقر القوقاز. وقابل هذا السؤال بسؤال:

– «فى حالة قبولى اقتراحه. يعد قيصركم وعودا كثيرة، حسنا، ألا يرغب فى شىء منى؟».

– «لا يريد غير صداقتكم».

عبس وجه شامل وقال :

– إن هذا لشىء كثير. لقد أعطيت صداقتى للمؤمنين من دينى، للناس المسلمين. لأصحاب الفكرة الدينية. فليعذرنى القيصر، لأنى لا أستطيع الإسراف فى بذل صداقتى.

وهناك شىء واحد فقط أستطيع إعطاءه لأعداء دينى».

ووضع يده على نصل سيفه الذى يتمنطق به. وقال :

«ذلك هو» .

ارتعشت يد الحاج «قاسم» التى تمسك بالقلم. وقال همسا :

– مدهش . حسنا، وماذا فعل الجنرال ؟

– أصبح كالمسعور من شدة حدته وتوتره... وبلغ به الأمر أن رفع عصا مقعده ليضرب به شاملاً. وتمكن شامل من الإمساك بالعصا وهى مازالت بعد فى الهواء .

– «لو لم تكن معوقا لضربتك حتى الموت. والآن اذهب من هنا. ولو كان الذى قال لى هذا الاقتراح هو القيصر نفسه لما ترددت من الإطاحة برقبته ورأسه الذى به التاج . وعليك أن تحمد الله لأنك سفير . وعرفنا يمنع المساس بالسفراء» .

وأخذ أصحابه واتجه إلى طريق الجبل.. ثم بدأت بعدها حرب «أهولكو» وسار إلى قلعة «أهولكو» أربعون ألف جندى روسى من ثلاث جهات. كسبوا المعركة ولكن، أرهقوا بلا حدود. وفقدوا أعدادا كبيرة من الجنود كما فقدوا كميات هائلة من السلاح والمهمات والذخيرة.

أعاد الحاج «قاسم» مرة أخرى القلم والورقة إلى حزامه. واتجهت عيناه وهما عينا صقر إلى ما وراء الجبال . وكان الوقت قبيل العصر. وقال :

– الصلاة .

نهض وجلس بجانب الإبريق .

وكان البغل على عكس ما ادعاه صاحبه، فقد دخل بين قطيع الأغنام وأخذ يقتات ويرعى ويحرك أسنانه بمهارة.

نيقولا الأول قيصر روسيا

قام من نومه مبكرا عن المعتاد رغم أنه قضى الليلة أرقا . وكعادته دعك جسمه بالجليد واحتسى قهوته الدافئة . وهو يرتشفها ارتشافا . كان يرتدى فوطة حمام مادا ساقيه على منضدة وراح يفكر فى أنه قيصر كبير وإذا حدث أن مات فإن روسيا ستتفكك. ثم نهض سريعا. ثم شتم خدمه بكلمات قبيحة. وانتهى من تجمله صباحا أمام المرآة. ثم وضع بعناية فائقة باروكة شعر دقيقة الصناعة على رأسه الأصلع. ثم ارتدى المعطف السميك بدون كتفية الرتبة ثم خرج إلى المرفأ من باب القصر الخلفى.

كان الوقت مبكراً والمرفأ مازال خاليا، وكان «بوشكين»، الشاب، كبير مصاحبى القيصر يسير فارع القامة خلفه بست خطوات. كان الخروج هكذا صباحا أمرا يسعد «بوشكين» فقد كانت «كاتينا» الجميلة الزوجة الأرملة للصياد «فورونيكوف» تنتظره كل صباح فى النافذة. نظر بعينه إلى أعلى . تولاه القلق، فالمرأة لم تكن فى النافذة .

وبعد أن نظر الياور الشاب فترة، فقد أمله. وأصابه الضيق . وسعل مرة أو اثنتين محاولا ألا يشعر القيصر بشىء. لكن «نيقولا» أحس وقال :

– «بوشكين»، لماذا تنهق هكذا ؟

ارتجف «بوشكين» . ماذا يجب قوله لهذا البدين الذى يعتبر أكثر أنواع السعال براءة، نهيقا ؟ وابتلع حدته مجبرا وقال :

– أمركم يا جلالة القيصر . أنا لا أنهق .

سر «نيقولا» من هذا الجواب لدرجة أنه ضحك وهو يهز كرشه الممتلىء البدين .

- إذن، إنى آمرك، بأن تترك النهيق .

- سمعاً وطاعة .

كان هناك عند أول المرفأ صياد شاب طويل القامة يسحب شبكته وعندما أحس بـ «نيقولا» ضم قدميه إلى بعضهما البعض ووقف لتحيته ورفع يده إلى حافة الكاسكت الذى يغطى به رأسه ، ولم ينزلها بعد ذلك. قال له «نيقولا» :

- سلام أيها الرجل الصغير .

- سلام أيها القيصر الكبير .

- ماذا تعمل ؟

- أسحب شبكتى .

- لماذا ؟

- لكى أصيد لجلالتكم سمكا يليق بمعدتكم الفخمة .

- أراك قويا، سجل نفسك فى الجندية إذا أحببت.

- أخى يأخذ مكانى فى العسكرية يا صاحب الجلالة.

- واذهب أنت أيضا. واخدم بلادك .

- سلمت لنا، يا جلالة القيصر. إنى أفضل عملى كصياد يصيد السمك.

- أيها المهرج، هل عرفت من تحدث ؟

- أسألك الصفح يا صاحب الجلالة .

التف القيصر إلى ياوره. وقال :

- أسمعت ما قاله يا «بوشكين». ستكون شاهداً فى المحكمة .

- سمعت يا صاحب الجلالة .

وجه إصبعه إلى الصياد وقال :

– الآن قل لهذا الرجل إما أن يذهب إلى السجن أو يسجل نفسه فى الجندية .

اقترب «بوشكين» وقال :

– سمعت سؤال صاحب الجلالة، أيها الصياد، ما هو جوابك ؟

اصفر وجه الرجل .

– إذا كانت هناك ضرورة لاختيار ميتة ما فأختار الجندية . ولكن ماذا فعلت حتى أعاقب؟

ضرب القيصر قدمه أرضا وقال :

– اخرس!

والتفت بسرعة .

– سجل اسم هذا الرجل فى العسكرية. والحقه فورا بالوحدات العسكرية المقاتلة ضد «شامل» متى ترسلون جنودا ؟

– بعد ثلاثة أيام يا صاحب الجلالة. وسيذهب مع وحدات الامدادات العسكرية التى سنرسلها للهجوم على قرية «داركو» مقر قيادة «شامل» .

ونظر إلى صياد السمك، وقال له :

– اذهب فورا ليقيدوا اسمك. وسأتابع أنا بنفسى إن كنت ذهبت أم لم تذهب. ما هو اسمك ؟

– «موشى ميخائيلوف».

ابتسم «الياور» وقال :

– أنت يهودى .

رفع الرجل كتفيه وقال :

– بعد فقد الأمل فى إنقاذى ..

فتح خطواته لكى يلحق بالقيصر . وعلقت عينا «بوشكين» مرة أخرى بالنافذة مازالت المرأة غير موجودة .

كانت زوجة الصياد قد غطت فى نومها، فلم تستطع أن تخرج لتنظر من النافذة. ذلك لأنها كانت قد سهرت فلم تئو إلى فراشها إلا فى ساعة متأخرة . كانت طوال الليل ترقد بجوار «مسطروف» البدين تشريفاتى القصر فمنذ أن رأى الرجل كاتينا وجهاً بوجه حتى كأنما قد مسه الجنون. وأصبح يكتب إليها منذ فترة طويلة الخطاب تلو الخطاب. ومع أن المرأة الشابة كانت تحب «بوشكين»، فإن «مسطروف» هذا التشريفاتى الماكر استخدم عقله عندما كان يوقع على رسائله إليها باسم «بوشكين» وقد استطاع أن يوقع كاتينا فى حبائله. وعندما فهمت المرأة لعبته كان السيف قد سبق العزل. كانت تشمئز منه لكنها لم تكن تستطيع المقاومة من شدة خوفها .

كان التشريفاتى محتاطا، فقبل أن يبزغ الفجر كان قد أطلق المرأة من الباب الخلفى لتخرج إلى الشارع. ولم يهمل أن يهددها بالقتل إذا أباحت بأية كلمة. لكنه كان يحب المرأة وكان مضطرا لما فعل حماية لاسمه وشهرته! ومع ذلك كان يحس بضيق مدهش .

والخلاصة أن فى ذلك الصباح كان «مسطروف» التشريفاتى و«بوشكين» الياور وأخيرا القيصر كلهم فى غاية الضيق . وفى هذا الجو لم يجد «تشرنيتشيف» مقابلة حسنة أثناء وجوده فى القصر وهو القائد الأعلى للقوات القيصرية فى القوقاز. القيصر نفسه لم يكن يحب هذا الرجل على أى وجه من الوجوه ومنذ أمد طويل. لكنه كان مقتنعا بأن الدولة تحتاج إلى خدمات هذا الرجل وكان يؤمن بضرورة أن يسوفه. وعندما قيل له أنه موجود، ضغط على فكيه وقال :

– لينتظر ! فإنى الآن مشغول .

فتح «تشرنيتشيف» الباب . وسأل الخادم الذى وقف لتحيته وهو يعطيه الكاسكت والمعطف :

– هل أخبرتم صاحب الجلالة ؟

انحنى الخادم باحترام، وقال :

– سيدنا مشغول الآن فى الصالون فى مقابلة مع الأمير «واسيلى دو لجروكى» مساعد وزير الحربية. وهو ينتظر معاليكم ومن فضلكم يمكن لكم التشريف فى الصالون.

وعندما عبر «تشرنيتشيف» إلى قاعة الانتظار نهض «واسيلى» على قدميه ومد يده بطريقة تشعر أنه غير راغب فى هذا وقال :

– أهلا بكم يا عزيزى القائد الأعلى .

– أهلا بكم يا مون شير (١) إنى ممتن لأنى أراك طيبا.

– الواقع أنك إذا دققت النظر جيدا تجد أننى فى حالة غير طيبة. شامل مزعج ويقلقنا.

– إننا كلنا هكذا.

– هل عندكم أخبار جديدة .

– لا شىء يذكر . جئت لأوصى بخطة للضغط على «شامل» .

– لن يمتن صاحب الجلالة القيصر. وفخامته ينفر من التوصيات .

– إنى أعرف هذا . ولكن لا أحد يعرف شاملا أكثر منى. إنى أعرف «داغستان» وأعرف عشش الصقور فيها واحدا واحدا.

– عشش الصقور، أى صقور ؟

– إن الداغستانيين يطلقون هذه الكلمة على الأماكن التى يلجأ إليها الشيخ «شامل».

– يحبونه كثيرا أليس كذلك ؟

– لدرجة الموت .

– يبدو أنه جدير بهذا .

امتعض وجه القائد الأعلى ، وقال :

---

(١) مون شير: كلمة أجنبية فرنسية

- علينا ألا نتحدث فى هذا الموضوع . «شامل» عدو روسيا .

سكت كلاهما عندما ظهر «بوشكين» وهو «الياور» الشاب على عتبة الباب المفتوح على جناح الملك. وأصاخا السمع لصوته الجهورى:

- صاحب الجلالة القيصر فى انتظاركم.

همس الأمير «واسيلى» مساعد وزير الحربية، بحيرة وقال :

- أيّنا ؟

ظهرت على شفتى «بوشكين» بسمة هازئة وقال :

- كلاكما .

كان القيصر بتصرفه هذا يريد القول بأنه يعطى لكليهما أهمية شخص واحد. صك «تشرنيتشيف» على أسنانه، لكنه لم يستطع إخراج صوته. وكان الأمير «واسيلى» متضايقا ووجهه العبوس أصلا فى حالة قبيحة تماما سار خلف «الياور» . ودخلا إلى حضرة القيصر «نيقولا الأول» .

لم يعرهما القيصر أدنى اهتمام فلم ينظر لوجهيهما. وقال لهما دون أن يرفع رأسه من على الأوراق التى أمامه .

- أهلا يا «تشرنيتشيف»، وأنت أيضا يا «واسيلى» أهلا بك ، اجلسا من فضلكما.

- مولانا جلالة القيصر، أمعقول أن نجلس فى حضوركم؟

تلطف القيصر عقب هذا الكلام ونظر إلى الرجلين :

- إذن فتحدثا وأنتما واقفان، من يريد التحدث أولا ؟

أشار «تشرنيتشيف» وقال :

- إذا رغب الأمير المحترم أن يبدأ .

هز القيصر كتفيه وقال :

- نعم يا «واسيلى»، إنى أسمعك، يا صديقى، ولكن من فضلك ليكن كلامك موجزاً. لأن وقتى ضيق .

تلعثم الأمير «واسيلى» وقال :

- إنى أشكو من شىء يا صاحب الجلالة، هناك بعض الصناديق المملوءة بالمواد الغذائية المعدة لوحدات الجيش فى «داغستان»، ناقصة.

احتد القيصر، وصاح بغضب :

- أمرت بأن يكون كل شىء تاما .

- نفذوا أوامركم يا جلالة القيصر .

- إذن عن أى نقص تتحدث؟

- هناك عقيد فى وزارة الدفاع، قد خان .

- يعنى ..

- باع قسما منها ، وكان مسئولا عن الإمدادات والتموين .

هز القيصر رأسه على الجانبين . وحطم الكرداب المتكوم على ياقة ثوبه :

- وأخذت تتفرج ببلاهة أليس كذلك ؟

تردد الأمير وقال :

- حتى أستوعب الأمر .

- اخرس واخرج من هنا . أما عن العقيد ..

وتناول قلما وورقة ووضعها أمامه .

- ما اسم العقيد؟

- «أندريفتش».

- إنى أرسل أمرا خاصا به .

ترك الأمير «واسيلى» الجناح بخطوات متوعكة .

كتب القيصر أشياء على الورقة التى أمامه ثم وقعها . وأعطاها إلى «ياوره» .

- أرسل هذه بسرعة إلى وزارة الدفاع. لقد أمرت بقلع أظافر العقيد «أندريفتش» ونفيه إلى «سيبريا».

والتفت إلى «تشرنيتشيف» . وقال له :
– هل تعتقد أن القرار فى مكانه يا «تشرنيتشيف»؟
انحنى «تشرنيتشيف» ، وقال :
– إن رحمتكم عميقة يا مولاى، ولو كنت أنا ..
رفع القيصر يده مسكتاً إياه :
– جميل إنك لم تكن كذلك يا «تشرنيتشيف»، وإلا لكانت حالة روسيا خراب.
– مولاى .
– تكلم .
– التواجد فى خدمتكم ..
وأسكته مرة أخرى.
– على كل حال، لا داعى . كل واحد يدعى أنه فى خدمتى ومع ذلك فإن الذين يهربون المواد الحربية من الجنود المحاربين ويبيعونها، أغلبهم لصوص وعلى رأسهم الوزراء والقواد والضباط و ...
– يا صاحب الجلالة .
– دعك من هذا. ما دمت بدأت فلأستمر يا «تشرنيتشيف»، الواقع أنكم كلكم لصوص. هناك فارق : هو أن بعضكم يسرق من أجل قرش واحد وبعضكم يسرق من أجل عشرة آلاف، مائة ألف! هل تستطيع أن تثبت عكس هذا؟
فقال «تشرنيتشيف» وقد وصل إلى درجة لم يستطع أن يمسك فيها نفسه :
– هل تستطيع جلالتكم إثبات هذا ؟
اتسعت عينا القيصر وقد ملأهما الدم:

– بم أحس يا «تشرنيتشيف»! هل تظن أنك كبرت إلى درجة تستطيع أن تسأل القيصر سؤالا ؟ إن كلمة تخرج من فمى لهى الحقيقة نفسها، وليس هناك حاجة لإثباتها، يبقى بعد ذلك أن يعلم الجميع أنه لم يتم توزيع ثلاثة آلاف حذاء من الأحذية العسكرية التى بلغت عشرة آلاف زوج أحذية أرسلتها إلى جبهة القوقاز العام الماضى.

– لقد حوكم المسئول عن ذلك يا صاحب الجلالة.

– نعم لكنى لم أملأ بعد الثغرة التى نجمت من اختفاء سبعة آلاف زوج من الأحذية. وعلاوة على هذا لقد ارتكبت ذنبا بإعدامك المتهم. إن حكم الإعدام ممنوع داخل الحدود الروسية وأقل ما فى الأمر أنك سمعت هذا المنع.

كان كلام القيصر صحيحا. حدث فى العام الماضى أن بيع للداغستانيين سبعة آلاف زوج أحذية من أحذية الجنود. ومازال رجال الإمام شامل يدوسون أعناق الجنود الروس بكعوب هذه الأحذية الروسية.

قال القيصر :

– على كل حال، فلنترك هذا الآن؛ ولكن الآن فقط. فذات يوم سينظر فى الدفاتر وتستطيع أن تكون واثقا. قل لى ما الذى جاء بك ؟

انهار القائد العام تماما. إنه كان يتوقع حسن قبول القيصر له. إن له خدماته السابقة الكثيرة. كان مؤمنا بأنه يدافع بجسارة وهو على حدود روسيا فى القوقاز. وانهار الآن لأنه وجد أنه لن يستطيع نقل هذا الإيمان إلى القيصر .

تلعثم فترة ثم تكلم قائلا :

– أنا .. من أجل .. فى موضوع «شامل» .

لكنه تمالك نفسه بعد ذلك وقال :

– كنت أريد القول بأنه قد حان الوقت للقيام بهجوم حاسم. أعددت خططى بكل تفصيلاتها الدقيقة. وجاء الربيع. الداغستانيون على وشك الخروج من عششهم فإذا غافلناهم قبل خروجهم فإننا نوقعهم فى الشرك وإننا نعلم أن «شامل» قد اتخذ من «داركو» مقرا له .

– من فضلك أوجز كلامك .

بلل «تشرنيتشيف» شفتيه الجافتين وهو يلعقهما بلسانه. وقال :

– «شامل» ليس مثلهم يا مولانا، إنه قوة كبيرة بذاته. حتى حمزة بك الذى تولى الإمامة من الغازى «محمد» لم يستطع أن ينظم الرجال المحاربين مع أنه عظيم الشجاعة كثير العلم، ولم يستطع تنظيم الميزانية. والقوى التى تحت أمر «شامل» كانت عبارة عن عدة مجموعات من المكافحين دون انتظام ودون انسجام. فجعل منهم «شامل» فى وقت قصير جيشا نظاميا.

ويسود الاستقرار كل الأراضى التى يسيطر عليها «شامل» اليوم إن أمامنا دولة كاملة البناء . تقوى بالحرب وتجمعهم تحت قيادة واحدة، عمل مضاد لنا لذلك وبدون أن تكون الفرصة قد ...

تثاءب القيصر فى وجه «تشرنيتشيف» وأشار له بيده أن يخرج. وقال له:

– فلأفكر يا «تشرنيتشيف» .

انحنى «تشرنيتشيف» وحيا القيصر . وخرج وهو يصك أسنانه غيظا .

وعلى عادة العقيد «بتروفسكى» فقد رفع سوطه فى الهواء ولفه وأحدث هذا صوت فرقعة، مما جعل حصان الرائد «بورلتوراتسكى» - وكان بجانبه - يجفل والرائد فوقه. ثم نفخ صدره كأنه أبدى معرفة كبيرة. وقال :

- استمع إلى أيها الرائد. إن هذه الأماكن يفتقدها رجال «شامل». إننا فى الواقع بعيدون جدا عن «داركو». وهناك فائدة كبيرة فى إرسال فرقة كشف واستطلاع. ويبدو أنه من عقاب الله ألا نكون على علم بتحركات الداغستانيين سواء فى الوقت أو المكان. أليس عندك مساعد ضابط ممن يقتفون الأثر جيدا فى فرقتك ؟

أجابه الرائد «بورلتوراتسكى» وهو يحاول السيطرة على حصانه :

- عندى، إنه «بانوف» وهو يحمل رتبة مساعد ضابط .

- استدعه لى .

أدار الرائد رأس حصانه للبحث عن پانوف . كان المساعد بانوف ثقة فى وحدته العسكرية. فليس فى فرقته أحد فى مثل قدرة هذا المساعد فى اقتفاء الأثر ومثله من الصعب العثور عليه فى روسيا .

«بانوف» لم يعرف له أبا. كل ما هناك أنه سمع عدة مرات أن أمه تركية ولهذا ينادونه أحيانا بلقب «التركى» ولم يكن يفقد أعصابه ولكن فى الحقيقة لا يمكن القول أنه كان مسرورا من هذا . ومع ذلك كان يكتم هذا فى نفسه ولا يظهر ضيقه .

زواج أمه الثانى كان من مساعد ضابط روسى. وهذا الرجل قد أدخل «بانوف» الجيش وجعل منه مدمنا للدخان والخمر.

كانت عيناه الزرقاوان تلمعان فى كل وقت بالسرور والحيوية. ولم تكن الابتسامة تغادر شفتيه وحتى فى أحرج أوقاته . وكان دائما يردد كلمة له هى : لا تسير الحياة إلا بالضحك .

عثر الرائد عليه وهو يتحدث إلى اثنين من «بلدياته» فأخذه وقدمه للعقيد.

قال «بانوف» :

- إنى تحت أمركم يا سيدى العقيد.

اسمع أيها المساعد، خذ معك رجلين ذكيين واسبقهما وستتعقب الطيور أثرك وستكتب لنا تقريرا. واعلم الآتى : إذا وقعت فرقتك فى كمين فلا تتردد إطلاقا فى قتل نفسك بآخر رصاصة فى رأسك. وإذا عدت سالما فسآمر بإعدامك!

أحب المساعد أن يتفكه فقال :

- ولكن الحكم بالإعدام ألغى من روسيا منذ زمن طويل ويبدو يا سيدى العقيد أنكم نسيتم هذا .

- أخذت تصريحا استثنائيا خاصا بك .

أدى «بانوف» التحية وعاد. وبعد قليل وبين الضحكات والقهقهات حكى الآتى لجنديين فى الطريق :

الجنديان كلاهما كان من «بطرسبورج». ولما كان المساعد «بطرسبورجى» أيضا فقد كان بالضرورة «بلدياتهما» وكانت فرصة ضخمة لهما أن يخرجا للاستطلاع تحت إشراف مساعد ضابط. وكان هذا أفضل من السير مع القادة، لذا قبلا اقتراحه بامتنان بالغ. وذهبا لأداء مهمتهما.

كان أحد الجنديين يدعى «موشى ميخائيلوفتش» إنه ذلك الذى انتزعوه انتزاعا من شبكة الصياد ليساق إلى الجندية. أما الآخر فكان يدعى «بانتورسونوف» وكان جنديا ضخم الجثة. وكان من النادر أن يضحك. وكان يستقبل أكثر الكلمات فكاهة بوجه يشبه وجوه الموتى.

سأله «بانوف» :

هل تأتى لك رسائل ؟

هز «بانئتورسونوف» رأسه على الجهتين .

وتحدث فى موضوع آخر فقال :

– من الأفضل أن نكون فى المؤخرة فمن ناحية نسير على الأقدام وكذلك نكون قد بعدنا عن مضايقة القواد.

– سلمت يا «بانوف»، لن أقول لك يا حضرة مساعد الضابط. ونحن هنا «من بعض» أليس كذلك؟

وكان «بانوف» رجلا مرحا وكان يتلذذ من إطلاق القهقهة فى كل فرصة . كان يدعى أنه يقوى نفسه بالضحك . ثم وبقهقهة طويلة قال:

– قل ما تحب أن تقوله . أكاد أشم رائحة مدينة «بطرسبورج» . ماذا تقولان يا إخوان فى أن نستريح تحت هذه السقيفة قليلا ؟ ونحكى ذكرياتنا .

فكر «موشى ميخائيلوفتش» قائلا :

– «سيكون هذا خطراً جدا».

– لو لحقونا.

أطلق «بانوف» قهقهة وقال :

– هؤلاء ؟ لا يا أخى. إنهم بدورهم مضطرون لإعطائنا إجازة قصيرة ولا يستطيعون السير جوعى.

نزلوا من على الجياد. أخرجوا البنادق التى كانوا يعلقونها على أكتافهم وأسندوها على شجرة. ونظر «بانوف» إلى قمة الشجرة. وقال :

– مدفع الشيخ «شامل» أطاح بشجرة الصفصاف التى يمتلكها الفقراء. أطاح بها بقذيفة واحدة، فأطار جزأها العلوى.

سأله «موشى» :

- ترى كم روسى مات بهذه القذيفة ؟

رفع «بانوف» ذراعيه وأنزلهما :

- وما دخلى بهذا ! أنا لم أمت وهذا هو المهم.

وضرب «موشى» على ظهره دلالة على الصداقة .

- ولا يهمك! على كل حال سنصبح كلنا غذاء للأرض إذا استمر «شامل» هذا فيما هو فيه .

همهم «بانتورسونوف» قائلا :

- لا أريد أن أموت الآن .

ابتعد عنه «بانوف» بسرعة وكأنه غضب. وقال بصوت مستهزىء :

- أمركم يا قائدنا الصغير. عندما تريد الموت فأخبرنا من فضلك. وبناء على أمركم هذا نأتى ونقبض روح سيادتك. ما هذا الذى تقوله لى يا بنى، إذا كنت حصيفا فاتفق مع عزرائيل .

نزل بجواره وقال :

- ربما تفجر فينا لغما .

تدخل «موشى ميخائيلوفتش» فى الكلام وقال :

- يقولون أن هناك شخصا له مكانته عند القيصر، يصنع الألغام للعقيد من أجل خاطر والد العقيد.. ماذا تقول فى هذا يا «بانوف» ؟

- هل تتحدث عن «ميخائيل ساميونوفتش» ؟

- ما أطول هذا الاسم . إذا كان هذا الرجل هو والد العقيد «بتروفسكى» فيكون هو . إنه هو بعينه ذلك الذى تتحدث عنه.

- إنه غنى، هذه حقيقة. ولا أدرى إن كان يعمل ألغاما لابنه أو لا يعمل. على كل حال إذا كان يصنع الألغام فلا يستطيع ابنه أن يحارب

ضد «شامل» وهو على ظهر جواد. وهو الآن فى القصر يعمل عملاً إدارياً .

– إن العقيد قد طلب هذا العمل بالذات.

نظر «بائتورسونوف» بدهشة إلى «موشى»، وقال :

– لماذا يهتم بهذه الأمور. ولو ظللت تتحدث هكذا ستظهر أشياء غريبة تتعب العقل .

– إنى راض بتعب عقلى، فإن هذا هو فقط الذى أود معرفته .

– لم تقل ما تريد قوله عن أسرة «بتروفسكى» .

– ليس لدى أية رغبة .. قط. ماذا يريدون هم منى . كل ما فى الأمر إننى فضولى. سجلنى القيصر فى الجندية وكنت فى حالى . وأرسلنى تحت إمرة «بتروفسكى» وإلا فإن أخى الصغير يؤدى عنى الخدمة العسكرية. وقد قابلت العقيد عدة مرات لكى ينقذنى من هذا العمل المجانب للقانون. وفى مقابلتى الثانية له جازانى بوضع القيد الحديدى فى يدى ثلاثة أيام. ولولا وجود هذه العملية العسكرية لكان من الصعب إطلاق سراحى من هذا القيد الحديدى.

ومن حسن الحظ أنهم محتاجون للعبط مثلنا مثل الذين ينطلقون إلى الموت من غير أن تطرف لهم عين. وإلا لكان هؤلاء النبلاء قد خنقونا بأياديهم.

همس «بانوف» قائلا .

– «بتروفسكى» ليس نبيلا .

وبحركات مجربة أشعل البايب بعد أن ملأه . وبعد أن سحب منه نفسا أو نفسين مده نحو «بائتورسونوف»، وقال :

– شد يا بنى، حتى تزول همومك قليلا، وتعلم الضحك، انظر إلى وتعلم الضحك. هل فقدت سرورى لحظة؟

وأطلق قهقهة من المحقق أنها وصلت إلى أبعد مكان. ولم تتوقف إلا على صوت سلاح. فتح «بائتورسونوف» عينيه من الدهشة. وضغط يده على صدره. وسقط فى أحضان «موشى».

لم يجد المساعد «بانوف» و«موشى ميخائيلوفتش» الفرصة للحاق بسلاحيهما، لأنهما وجدا ما يقرب من عشرين بندقية موجهة إلى رأيهما. قال «بانوف» :

– وجدنا ما نبحث عنه .

وقام بحركة من أجل أخذ البايب الذى طار من يد «بائتورسونوف» ودوى فى المكان صوت سلاح آخر، وامتعض وجه «بانوف». ومرت رصاصة من خلف يده. والحق أن الداغستانيين يجيدون التصويب . قال :

– حسناً، ماذا يحدث إذا لم أدخن.

كان هناك عشرون داغستانيا يحيطون بهم ، خرج واحد من بينهم وأخذ سلاح الثلاثة، وانطلق نحو رفاقه ، ثم أشار إلى رتبة «بانوف» وقال :

– أنت ضابط .

هز «بانوف» رأسه على الناحيتين وقال بأسف :

– أين هذا الحظ . أنا مجرد مساعد.

– أين فرقتك ؟

أشار بأصبعه إلى الخلف :

– إنها على الأكثر على بعد خمسمائة أو ستمائة ذراع من هنا . وهم غالبا فى استراحة قصيرة الآن .

– يقودهم العقيد «بتروفسكى» . أليس كذلك؟

هز «بانوف» رأسه بالموافقة. وكانت أول مرة يحس فيها بالخوف. فقد كان يفهم أن للمجاهدين الداغستانيين استخبارات فى غاية القوة.

وإلا فإن هذه التحركات العسكرية قد كانت سرية للغاية. وكان معنى معرفة الداغستانيين بهذا الخبر، أن الفرقة الروسية مكشوفة.

– كم عدد القوة التى يقودها «بتروفسكى»؟

قرر «بانوف» أن يجيب إجابة صحيحة بقدر ما يعلم. وكانت نفسه تحدثه ألا يخفى شيئاً . فتح يديه على الجانبين وقال :

– ثمانية آلاف مشاة، حوالى ألفين من الفرسان وستة مدافع.

– فصيلة التموين، أهى فى الأمام أم فى الخلف؟

– فى الخلف.

– سنعرف قريباً إن كنت صادقاً أم كاذباً. أما الآن فعليك بالسير.

أشار «بانوف» بفكه إلى «بائتورسونوف» وقال :

– وهل سيبقى هذا هنا؟

– لا تقلق فالرصاصة التى أطلقتها لم تكن للقتل. سيعالج وستلتقى بصديقك مرة أخرى، وبالطبع هذا إذا كانت معلوماتك التى أعطيتها لنا صحيحة .

وبعد السير قليلا، ربطوا على عينيه رباطا. همس «موشى ميخائيلوفتش» بقلق :

– وماذا سيفعلون بنا يا «بانوف» ؟

– لابد وأن يأخذونا إلى «شامل»، والحقيقة إنى أنا أيضا أتوق لمعرفة المكان الذى سيأخذوننا إليه .

وكان سيواصل كلامه أكثر إلا أن جنديا ششنياً نغزه بالسونكى من خلفه .

قال «بانوف» محتداً :

- ألا تكن رفيقا بنا !

والواقع أن الخوف لم يكن منعدما فيه لكن لو كان أحد غيره فى مكانه لكان يحس فى نفسه بهذا القدر. ولم يكن يبالى .

اتكأ جيدا على الرجل الذى أخذه فى ذراعه. حاول أن يكون ذكيا لأنه كان يريد أن يجعله يحمله. لكن الجندى الشيشنى لم يبلع هذا الطعم. ضربه كتفا، فكاد «بانوف» أن يقع، وجمع نفسه بصعوبة ورغم أنه كان يعرف اللغة الشيشنية فإنه لم يستطع فهم كلمة واحدة من كلامه .

ساقوهم مقدار ساعة. وعندما فكوا الرباط من على عينيه وجد «بانوف» نفسه فى ميدان كبير. ولم يكن فيه شيء غير الجنود. يبدو أنهم قد اختاروا هذا المكان مقر قيادة مؤقتاً، ساقوهم نحو سقيفة . كان «شامل» يجلس القرفصاء هناك فوق السفح .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يلتقى «بانوف» فيها به. لكنه عرفه بمجرد أن رآه. نظرات الصقر التى كان الشيخ شامل ينظر بها جامدة. كانت فى وجهه ابتسامة يمكن أن يقال أنها مريرة. وكان من الممكن إدراك أن آثار مشط جديدة فى لحيته المدورة. كاد «بانوف» أن يطلق ضحكة عالية عندما لمحت عيناه حذاءه الطويل الذى فى قدميه. كان حذاء الشيخ شامل واحدا من سبعة آلاف حذاء عسكرى باعها العام الماضى ضابط روسى ذكى.

قال الجندى الذى أحضر «بانوف» أشياء للناس الذين حول الشيخ «شامل». استدعى «شامل» - بإشارة من يده - «بانوف» وقال له :

- تبدو ممتناً من حياتك، ألا يصيبك الضيق لأنك أسير .

قال «بانوف» :

– أبداً، ولماذا أتضايق؟ بل حتى إننى ممتن، فقد سئمت من كونى روسيا، وسئمت أيضا من الحرب، هذه الحرب ليست حربى. وكان تصرف رجالك تجاهى حسنا للغاية .

– أظن أنك أعطيتهم المعلومات الضرورية .

– أجبت بصراحة تامة عن كل ما سألوه .

– سيلحق بك بعد قليل عديد من إخوانك، وآمل ألا تتضايق .

ثم التفت إلى رجال وقال :

– خذوه.

ونهض على قدميه .

– إننا ذاهبون أيها الإخوان. ولنعرف الجنود الروس حدودهم، وهم الذين جاءوا لإطفاء مشعل حريتنا. ولا تنسوا ألا تصيبوا بالسيف من طلب الأمان. وممنوع منعا باتاً ظلم الأسرى .

ونظر فى وجوههم طويلاً :

– إنى أعلم إننى لو لم أقل هذا لكنتم على خير ما أتوقع. وكتابنا لايقر الظلم. هيا إلى الجياد.

امتلأ ألف زوج من العيون المتقلصة ، امتلأ بالبريق. دس الشيخ «قاسم» دفتره فى حزامه. وقد أرهقت أصابعه من كثرة الكتابة . وسرج بغله.

سيرى الحرب قريبا وكان يريد أن يكتب ذكرياته عنها بصدق.

تحدث مع بغله قائلا :

– هيا يا صديق روحى، إننا نذهب الآن إلى الحرب مع صقور داغستان. ولا ندرى إلى أى مدى سيذهب بنا اهتمامنا هذا. وكما قال أحد الحكماء : «اهتمامات الإنسان تحيى الإنسان هيا يا صديقى! ومشى خلف ألف بندقية، وهو يقود بغله .

الإغارة .

- صاح أحد الجنود قائلا :

- يا للغرابة أن لا أثر لجنود الاستطلاع.

رد عليه الملازم بقوله :

- الله هو الذى يعلم أى جهنم أخذتهم. لا أستبعد أنهم دخلوا دغلاً وأخذوا يشربون .

ونظر باستخفاف إلى الذين أمامه .

- من يقودهم، وكم شخصاً هم ؟

- ثلاثة ، المساعد «بانوف» يرأسهم، ثم الجندى «موشى ميخائيلوف»، و«بانتورسونوف» العبوس. وكلهم من «بطرسبورج».

امتعض الملازم وقال :

- سأريهم عندما يعودون.

- طبعا إذا عادوا .

نظر الملازم الشاب بخشونة إلى المتحدث. ولم يعر الجندى هذا التفاتا، وأدار رأسه نحو زملائه، وأشار بفكه نحو الملازم .

- هل ترى يا «جونسكى» نظرات الشاب؟

قال «جونسكى» بعد أن جرب فرقعة مضغ اللبانة التى فى فمه :

- رأيتها بالطبع. ولو كان الذى أمامك جنديا جديدا لكان قد تمكن من الذهاب بإخلاص.

وضحك عاليا .

ارتبك الملازم تماما، وفتح فمه ليقول شيئاً، ثم تراجع. وفكر فى أن أحسن شيء هو أن يبتعد. وأدار فرسه نحو اليمين .

وفجأة وصل إلى أسماعهم انفجار شديد وانتشر تجاه الغابة الكثيفة الأشجار. نظر الملازم بدهشة نحو الجنديين اللذين كانا يهزآن به .

خرجت عيناه من مآقيها. وتغير لون وجهه وظهرت ثغرة صغيرة في وسط جبهته تماما. وأخذت هذه تكبر وتنتشر. وسال الدم الخارج من الثغرة إلى فكه.

– هل أصبت ؟

– غالبا.

صوت صاح قائلاً :

– انطرحوا أرضاً !

وصل إلى الأسماع صوت انفجارات شديدة متلاحقة . وكان الملازم قد سقط من فترة من على ظهر جواده إلى الأسفل .

– آه يا أمى ؟ ما هذا يا «جونسكى»، ما كل هذا الرصاص الذى يطيحون به .

– ألا نظرت نظرة واحدة إلى الملازم، أميت أم حى؟

زحف «جونسكى» على بطنه ثم ارتبك عندما مرت رصاصة على بعد شبرين من رأسه. واحتمى بصخرة. وقال :

– قناصة متمكنون . يا «بينكا» ! هل تسمعنى؟

وجاء صوت الرائد «بورلتوراتسكى» المجروح.

– إنهم يطلقون النار من الغابة يا سيدى القائد، لقد فاجأونا .

قال «بينكا» :

– أى كشف هذا. هل لابد لفهم هذا من موت ملازم؟

كانوا سيستمرون فى كلامهم لكن الرائد «بورلتوراتسكى» صاح قائلاً:

– النار !

صاح بذلك ولكن الهدف لم يتضح لهم :

– يريدون أن نطلق النار، ما رأيك يا «جونسكى» ؟

- رأيى أننا نبدد الرصاص عبثا .
- لا تهتم بذلك، حاول أن تطلق النار .
- على الهواء ؟
- بين الأشجار.
- لا تعمل البندقية عمل المدفع فى أى وقت من الأوقات يا صديقى، لماذا لا يطلقون قذائف مدافعنا ؟
- ربما يقع شامل فى أيديهم .
ولم يرد عليه. هذا الاحتمال قد أصابه بقشعريرة .
إن ذهاب المدافع من أيديهم يعنى فناء الفرقة بكل أفرادها .
قال لنفسه :
- ليس معقولا . بقى الكثير.
وجه بندقيته . وضغط على الزناد دون أن يرى ضرورة لتحديد الهدف.
العقيد، «بتروفسكى»، لم يكن أقل حيرة من جنوده، يسوقه حصانه الانجليزى الأصيل ويصيح بكل ما أوتى من قوة .
- أطلقوا النار، أطلقوا النار ! أخبروا المدفعيين .
كان المدفعيون مع الأجهزة الثقيلة يأتون خلف الفرقة. وقد تأخروا كثيرا لأن سيرهم كان بطيئاً فى هذه اللحظة، ويعلم الله متى سيلحقون بالركب.
- أيها الرائد .
جرى الرائد على صوت العقيد .
- أمركم يا سيدى العقيد .
- فليخرج أحد ليخبر المدفعيين، إذا لم يلحقوا بنا فى حينه سأقتلهم كلهم بالرصاص.

– سمعا وطاعة، إذا أمرتم أذهب بنفسى لذلك.

فهم العقيد إن الرائد يقترح عليه هذا لكى يهرب من الخطر. نظر إليه متفرساً وقال :

– ابق على رأس جنودك.

عاد الرائد إلى مكانه بلا رغبة منه في ذلك .

– يا أولاد ! يلزمنى شخص، بل شخصان. رجلان ذكيان يخبران المدفعيين.

قال «جونسكى» :

– لن أذهب أنا يا سيدى الرائد.. إنى لا أخاف الحرب، فليس لى أحد على كل حال .

– أيها العبيط هل سألك أحد عما تفكر فيه ؟

وضرب الرائد بقدمه أرداف الجندى .

قال «جونسكى» :

– تكلمت فقط.

ضحك زميله كثيرا .

– لاتقل هذا مرة أخرى.

كرر الرائد قوله :

– يلزمنى شخصان . من يريد الذهاب .

انطلق خمسة أشخاص وقوفاً على أقدامهم واعتدل سادسهم نصف اعتدالة.

كان هناك جندى قوقازى يعرف كيف يتحين الفرص، فأطلق رصاصته على الحمقى الذين ظهروا مثل «الكوسة» فى ميدان الحرب . فانهار الجندى الروسى الذى كان قد نهض منذ حين وسقط فاقدا روحه.

صاح الرائد قائلا :

– تبا لكم انطرحوا أرضا. ألا تستطيعون أن تجيبوا وأنتم على الأرض .

قال «جونسكى» :

– قبل أن يقتل الرجل لم يكن أحد يستطيع التفكير، لذا تمكنت الحيرة منى .

– يا ولدى إن التجربة مهمة فى الجندية ، انظر هل قمنا نحن لتقف؟

سحب الرائد شخصين من ساقيهما.

– هيه .. أنتما .

– لا أستطيع النهوض، فكيف آتى .

– دعك من الثرثرة يا أهبل، ألم يعلموك ذلك أثناء التدريب؟

– لم أتدرب أنا، أتوا بى هكذا دون شىء وكأنى متطوع، ما أبأسنى.

– ازحفوا خلفى، وعندما نخرج بعيدا عن المنزل أسرعوا بالانطلاق.

– إذن سنذهب فرسانا مثل الضباط. هذا شىء طيب، جئت وذهبت .

وبعد قليل كان الرائد «بورلتوراتسكى» أمام العقيد. اغبرت ملابسه قال وهو يبعد التراب عنه :

– تمام يا سيدى العقيد. لقد أرسلت شخصين .

– حسنا، آمل أن يصلا فى الوقت المناسب.

– يفعلان، لا تقلق على شىء وليطمئن بال سيادتكم.

– لن أقلق، حسنا، ولكن هل يمكن أن تقول لى أين جنود الاستطلاع الذين أرسلتهم من قبل ؟

قال الرائد وكأنه يئن :

– أرسلت المساعد «بانوف» .

– لكنه لم يخبرنا بأنه وقع فى فخ الشيخ «شامل».

سكت الرائد. لا يمكن أن يكون «بانوف» ممن قد غرر به . ولم يكن تفكيره ليصل إلى حد خيانته. لابد وأنهم قبضوا عليه حياً.

قال بصوت مهتاج :

– إذن ، فقد تناقصنا ، أتفهم أيها الرائد ؟

– أفهم يا سيدى .

– إذن ..

– ربما ..

إن الكلام الذى بدأه الرائد بكلمة ربما، قد اختنق بصوت مدفع يشبه برق السماء . أسرع «بتروفسكى» – مثلما انطلق من على حصانه – أسرع يلصق وجهه على الأرض . وسحب الرائد الذى كانت الدهشة قد غمرته ، من طرف قميصه.

– ارقد يها السكير !

ورقد .

– إنهم يا سيدى العقيد يدفعون المدافع للعمل ، من أين تعلموا هذا فيما ترى ؟ المعلومات التى لدينا تقول ..

وقطع العقيد كلمته وقال من بين أسنانه :

– إنك تنسى معركة «أهولكو» .

– ألم ننتصر نحن فيها ؟

– هكذا فى الظاهر انتصرنا فى حرب ولكن ما أخذناه كان مجموعة من الناس والمدافع والبنادق .

– لقد أقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة فى كل مكان حتى فى «بطرسبورج» .

– يبدو أن الرصاص خلفنا .

– إذا نظرنا إلى سحابة التراب ، فنعم .

– اذهب وانظر، هل هناك خسائر ؟ انتظر لنذهب معاً، فهذا هو الأفضل .

وزاد على ذلك ما قاله فى نفسه وهو :

- «هنا أصبح المكان فى غاية الخطر» .

كان وجهه عبوسا، وقلبه مليئا باليأس . ماذا كان ينتظر ، ثم ماذا وجد ؟

لا يستطيع حساب حركة «شامل» السريعة بحساب قواعد العلوم العسكرية . يحسب حساب المكان الذى هم فيه وقرية «داركو» فيتوقف تفكيره ثم يطول حسابه ولا يستطيع معه تقدير شىء .

يمكن أن يحدث ما يحدث فى حالة واحدة وهى اشتراك كل الشيشنيين فى المعركة ؟ وهذا غير معقول ، ولكن من يدرى ؟

عندما يتذكر أنه خرج بآمال كبار من مقر قيادة «كيرزل» فى اليوم الثلاثين من شهر مايو عام ١٨٤٣م يتأثر ويصب جام غضبه ولعناته على ذلك اليوم . ليته بقى فى المكان الذى كان فيه . وليتهم قدروا خدماته . حتى «تشرنيتشيف» نظر إلى وجهه وأخذ يسخر منه .

ربما كان «تشرنيتشيف» على حق . أراضى الشيشن تمتد أمامه إلى ما لا نهاية . لكنه لا يستطيع أن يمد فيها قدما واحدة . فكل شجرة قلعة ، وكل حجر متراس يتصدى للروس ويهاجمهم ويشتتهم .

وكأن جلمود صخر أو جليد سيعبر بلاد الشيشن ويستولى على قرية «داركو» التى اتخذها «شامل» مقرا لقيادته لفترة من الزمن، إنه سيتمكن من ذلك وسيربط هـذا الإمام الجليل على عجلة عربة مدفع وسيحضره هكذا إلى الجنرال «كلوج فون كلوجناف» . وسيعلى نجاحه هذا رتبته رتبتين على الأقل . ترى ماذا يحدث لو هزم ؟ هل سيخفضون رتبته إلى رتبتين أقل ؟

- سيدى العقيد !..

نظر بغضب إلى الرائد «بورلتوراتسكى» الذى قطع حبل أفكاره .

– انظر إلى هنا يا سيدى العقيد !.

فارسان يقتربان بسرعة جهنمية . أخرج العقيد مسدسه من غمده ووضعه فى كفه .

– من يمكن أن يكون ؟ أشخص أتى بخبر، أو متآمر مشؤوم ؟ وبعد قليل عرف الرائد الرجلين .

– إنهما منا .

– شىء طيب .

– الجنديان اللذان أرسلتهما لإخبار المدفعيين .

أوقف حصانه أمامهما . كان الرعب الذى على وجهيهما يرسم خريطة هزيمة ، ولكن أهذا هو الأمل .. ومع ذلك سألهما الرائد قائلا :

– ماذا حدث ؟ ما الخبر ؟

وكانت الأخبار كما كانت متوقعة :

– نكبة يا سيدى .

هدر العقيد قائلا :

– فلتأخذ الشياطين سيدك . ماذا عن المدفعيين ؟

– استولوا على كل معداتنا الثقيلة .

اهتز العقيد فوق حصانه كالمخمور.

– ماذا !..

أمسك العقيد بعرف حصانه وشده . ونظر بعينين واسعتين إلى بعض شعر أبيض بقى فى كفه . وأنّ قائلا :

– مستحيل !

ضاع كل شىء عند ذهابنا . لم أكن أتصور أن تكون سرعتهم بهذا الشكل لكنا رأينا بأعيننا !

نظر إلى صديقه منتظراً التصديق .

قال الآخر :

- نعم ، بأعيننا .

زم العقيد «بتروفسكى» على شفتيه جيش ضخم مكون من ثمانية آلاف من الجنود المشاه وألفين من الفرسان القازاق ، وبطاريتين بمدافع مع كل واحدة منهما ستة مدافع صحراوية ، ومدفعيين جبليين وطابور استحكام ، وفوق ذلك كله قيادة العقيد «بتروفسكى» قائد عام القوقاز . ألم يكن عبثا ما قاله الجنرال «غراب» لشامل فى رسالة : «إنى سأنزل الهلال من على مئذنة الجامع الذى فى «داركو» فكان رد «شامل» الذى ما زال يتذكره «بتروفسكى» : عبثا حاول إنزال الهلال الذى فى السماء ، وليس هناك خيال عابث مثل هذا الخيال الذى لديك» .

- لم ينته كل شىء بعد ..

نظر الرائد إلى قائده وقال :

- طبعا ، مازلنا نستطيع إنقاذ الباقين .

- لا تتحدث هكذا كالعبيط .

كان ينظر إلى الرائد ويكاد يأكله .

- إننا نتراجع . لقد تركنا الجنود فى أيدى القواد الصغار . إنى سأسحق شاملا هنا ، لقد وعدت بذلك .

قال الرائد فى سره : «كلام فارغ» وفكر فى أنه لم يحس بشىء من الامتعاض والقرف قدر هذا ، طوال عمره كله . وقال رغما عن كل هذا :

- طبعا نستطيع سحقه .

تسارعت النيران المنطلقة . أخذت المدافع تقصف بكثافة . وكان الرائد يعلم أن المدافع التى حصلوا عليها حديثا قد انقلبت ضدهم . يا له من أمر

عجيب ! الأسلحة التى يصنعونها هم بأنفسهم هى التى تقتلهم ! ليتهم ما صنعوها . إنها آلات جاحدة لأصحابها . بهذا كان الرائد يفكر .

- أيها الرائد ..

اهتز .

- «إنه لا يدعنى أرتاح أبدا» .

- أمرك يا سيدى القائد .

- أظن أننا سنبدأ الهجوم بالمدفعية . ولا أظن أنهم كثيرون . قد يكونون قوات استكشاف فقط .

- ليحفظنا الله . إذا كان هؤلاء قوات استطلاع فكيف بالقوة الأساسية ؟ إن هذا معناه نهاية العالم .

- ليس هناك داع لخوفك . ما قلته مجرد افتراض . خذ قسما من الجنود تحت قيادتك لتحمل على اليمين . سنقضى عليهم إذا استطعنا أن نحاصرهم فى شكل حدوة حصان .

- يعنى هل سننجو ؟

نظر إلى الرائد بغضب .

- عقلك وفكرك فى إنقاذ روحك ! هناك أشياء أكثر قيمة من الأرواح .

- عفوا يا سيدى ، لم أستطع الفهم .

- هل أنت متزوج أيها الرائد ؟

- مجرد خطبة يا سيدى ، وعلى الأصح كنت خاطبا ، قبل سنتين ! ترى أين هى الآن ؟ من يعلم ؟

- أنا متزوج ولدى ولدان .

- حفظهما الله .

- عقد العقيد امتحانا خاصا لضعيفى الحيلة . ألا يعمل عقلك قدر

عقل جندى بسيط . أليس هناك مكان مناسب أكثر للتحدث معك عن أولادى ؟ ألم تفهم بعد ؟

– آسف يا سيدى ، فأنا ..

رفع يده وأسكت الرائد.

ليس هذا وقته لابد أولا أن نحرز انتصاراً . ستحمل أنت على الجناح الأيمن ، وأنا على الأيسر . فى شكل حدوة حصان ، إنى واثق إننى سأقضى عليهم . مازلنا حتى الآن أقوياء جدا .

– والمدافع يا سيدى ؟!

– لو استطعنا أن نقترب منهم فلن يستطيعوا استعمالها .

– ومعهم بنادق أيضا .

بدأ العقيد يصيح بأعلى صوته :

– معهم مزاريق ومعهم سيوف ومعهم خناجر ..

كان ينظر حوله كالمجنون :

– وإذا لم يكن معهم كل هذا فمعهم قبضات أيديهم ، وإذا لم يكن هذا فأسنانهم وأظافرهم .

ارتجف ووقف أمام الرائد . تحدث من بين أسنانه وقال :

– نعم . أليس كذلك ؟

– تمام يا سيدى .

رفع الرائد يده فى الهواء فى مقام التصديق . ونزلت لطمة العقيد فوق يده هذه .

– أنت جبان ، سأشنقك .

كان الرائد واثقا جدا من أنهم لن يستطيعوا العودة . لذلك لم يبد أى اهتمام . ولم يعد يخاف من العقيد . وقال بقليل من عدم الاكتراث :

- ماذا تريدنى أن أفعل ؟

قسم العقيد الغابة بإصبعه إلى قسمين :

- خـذ الجنود الذين هناك ، وراءك واهـجم . وإذا فـشلت فـهناك «ديوان الحرب» هل فهمت ؟

- فهمت .

- وسـأسـيـر أنا من اليسـار ، وليكن المركـز تحت إمـرة الملازم الآن . وسـيـحـافـظ على المكان الذى هـو فـيـه . وفـى الأمـر التـالى سـيـبـدأ فى الهجوم .

- أى ملازم ؟

- أليس فى فرقتك ملازم شاب ذكى ؟

- كان يا سيدى .

ورسم شارة صليب ، ثم قال بعد ذلك .

- لينعم فى قبره .

لم يتوقف العقيد طويلا عند هذا الكلام .

- خذ واحداً آخر .

- تمام يا سيدى .

- هيا أسرع .

حياه الرائد التحية المعتادة ، وإن كانت نفسه غير راضية بها .

كان شجرة الصفصاف الضخمة قد زرعت هناك ليتكىء عليها الحاج «قاسم» العجوز وليريح آلام ظهره عندها . من يدرى إلى أى مدى تتشعب جذورها فى الأرض ؟ لابد وأن تكون جذورها ضاربة فى أعماق الأرض كثيرا ولابد أن تصل هذه الجذور إلى بعيد جدا . لابد أن تكون كذلك لتحمل جسم هذه الشجرة الضخم . وهل ذلك سهل ؟ خاصة فى العواصف .. إن أسقف المنازل تطير ومثل هذه الأشجار تقف فى مكانها كأنها تسمرت تسميرا .

حدث الرجل نفسه قائلا :

– يا حاج «قاسم» دعك من تفكيرك هذا واهتم بتسجيل مذكراتك .

انحنى على أوراقه . وقعت ورقة صفراء من على الشجرة فوق أوراقه . رفع رأسه ونظر . وجد طائرا يطير وهو يصيح ويصرخ .

تعقب الطائر بعينيه . حتى عبر الجبال الجليدية البعيدة . كم تكون المسافة مختصرة جدا لو كانت الطرق من الجو . ترى أليست هناك صيغة يمكنها أن تطير جيش الشيخ «شامل» . أولا يمكن أن يأتى يوم ينهمر فيه الجنود من الجو ؟ ولم لا ؟ من كان يمكنه أن يعترف بوجود سلاح يسمى «المدفع» قبل عدة قرون ؟ ولكن بعد أن شوهد وهو يهدر اعترف به الإنسان طوعا أو كرها . قذائفه الحديدية كانت تقلع الأشجار من أماكنها . أكان اختراع البارود شيئا طيبا ؟ من ناحية لابد وأن يكون شيئا طيبا لابد وأن يكون الصينيون القدماء عاقلين . إن العثور على شىء مثل هذا لابد وأن يحتاج إلى العقل ، وطبعا العلم .

وأخذ يستخدم قلمه :

«لابد من ترك أشياء خيرة للإنسانية ، ولكن ما هي ؟ لهذا اخترع علماء الصين، البارود . ترى بأية نية كان عملهم ؟ وفي أي شيء كان يستخدم لو كان هذا الصيني مخترع البارود قد رأى الأرواح التي أزهقت بفعل البارود في موقعة «داركو» ، ترى ألم يكن يموت من تأنيب عذاب الضمير . ولكن ما العمل والإنسان يعرف كيف يوجد نكبة في كل شيء . إني الآن لا أجرم القائد الروسي العقيد «بتروفسكي» . إن لم تكن إرادته تكفي للنصر ، فهل الذنب ذنبه هو ؟ من يحب أن ينهزم ؟ وإن لم يكن قد أجاد عمل حساباته فإن هذا ليس من نقص في عقله وإنما من عدم معرفته لشامل جيدا . إني أدهش للسرعة الهائلة التي تدير العقول ولم أر أحداً منهم شاكيا أو متبرما. سألت ششنياً جريحا إن كان يحس باضطراب أم لا ، فأجابني بقوله : «من ينتصر على اضطرابه ينتصر على عدوه» إن انتصارات أعظم تنتظر هذا الجيش . قدوم المطر يظهر من السحب المتجمعة في السماء . ورجال الشيخ شامل يتدفقون كالسيل . سيل هادر، لا يوقفه مانع . وعندي أن أكبر سر في النصر ، إنما يكمن في الإرادة . والإرادة موجودة كالحديد في الشيخ «شامل» وفي قادته . ولا يعرف الروس كيف يحتوونه .

ثم إن الداغستانيين يعتقدون أنهم سينصرون في الحرب ، حتى في أحرج الأوقات . إيمانهم بالله تام . والجنود ينظرون إلى الشيخ «شامل» على أنه إمامهم ومرشدهم أكثر من نظرتهم إليه قائدا عسكريا . لذا ينفذون أمره قبل طرفة العين . آمنت تماما بعد كل ما رأيته ، بأن هذا الجيش ليس من السهل هزيمته ، حتى ولو كان الذي يواجهه روسيا بكل ما فيها ومن فيها .

ولكن بشرط : ألا يكون لبذور الفتنة مكانها بينهم .

سألت شاملا :

- «هل تثق برجالك ؟..».

أجابني بقوله :

- «إني أثق بالله» .

والله يحب شاملا ، ذلك لأنه ينفذ أوامره ويقوم بمهام العبودية كاملة له وبإخلاص من كل قلبه . رأيته يقرأ القرآن ، حتى فى ميدان المعركة . فى إحدى يديه بندقية وففى الأخرى كتاب الله .

- «ماذا تفعل أيها الإمام ؟ ..» .

قال وعين من عينيه فى القرآن والعين الأخرى على أجنحة العدو .

- «كنت أتلو سورة من ذاكرتى . فاختلطت الآيات على . ولقد غرقنا فى أعمال الجهاد إلى حد كبير ، فانشغلنا عن تكرار الحفظ مما أدى إلى ضعف حفظى . وأحاول أن أستعيد مرة أخرى الأماكن التى نسيتها» .

ليس من السهل إطفاء عشق هذا الدين ، عندما نقل الروس مدافعهم إلي قرب مكانه جثم شامل على ركبتيه، وفتح يديه واستغرق طويلا فى الدعاء .

يتجمع العدو الآن ويأخذون أهبة الاستعداد للهجوم .

قال الشيخ شعيب أحد قادة جيش الإمام .

- «إنهم قادمون يا شيخنا» .

عند ذلك اتقدت عينا الشيخ وقال :

«إنى أعرف العقيد «بتروفسكى» . إنه جندى بارع ، لكنه شديد التكبر والغرور . وأن تكبره هذا وغروره قد يسرا لى عملى كثيرا فى المعارك المختلفة .وسيحدث هذا الآن أيضا . سنلقى فى روعهم أننا ننسحب حتى يعتقدوا هذا ولابد من تقوية جناحى اليمين والشمال . وتكون المقاومة

جزئية، القسم الأول يحارب خداعا وينسحب بسرعة . وسنقضى على الروس فى نصف هلال» .

«لكن فورنتزوف سيجرب الشىء نفسه . والأخبار الواردة تقول إنه سيحمل على جناحينا الذى على اليمين والذى على الشمال ثم يحرك مركزه أخشى أن يقسمنا نصفين» .

«لو كان صبورا فنعم . لكنه لا يعرف الصبر . يريد أن يصل فورا إلى النتيجة . ومهما تكن خطته ، فإنه سيحمل علينا بكل قوته عندما يرانا ننسحب . وإذا كان هناك استثناء فإنه حظنا ..».

وأخذوا يضعفون من قوة «بتروفسكى» مدة ثلاثة أيام . يجرى المسكين لحتفه منتحراً متصوراً أنه يجرى لكسب النصر . إنى متشوق لمعرفة كم بقى حياً سليماً من عشرة آلاف جندى روسى : نجح هو فى إنقاذ نفسه ولكن ، يحتمل أنه فى هذه اللحظة يكون فى «كرزل» . هل سيتصدى لشامل مرة أخرى ؟ لا أظن . ومع ذلك فلا أحد يعرف .

«يقولون عنه إنه طموح جدا وعنيد جدا كما أن البغل عنيد . وعلى هذا فإن الحدة قد بلغت منه مبلغاً» .

أفـاق «بائتـورسـونوف» العـابس الوجـه ؛ فـقـد كـان يـرقـد مـنـذ ثلاثـة أسابيع مع الجرحى الآخرين فى خيمة ضخمة . وعندما رأى أن المساعد «بانوف» والجندى «موشى ميخائيلوف» فى حراسة جنديين ششنيين ، اعتدل خفيفا فوق رسغه . وكان وجهه عابسا أكثر من أى وقت مضى . اعتدل وقال :

– وأخيرا استطعتما المجىء.

تحسس «بانوف» ذقنه ، وأطلق قهقهة فيها بحة .

– هذا المكان ليس «بطرسبورج» يا أسير . نحن فى قرية «داركو» ومقر قيادة الإمام «شامل» فى «داركو» هذه .

تذكروا أنهم أسرى عقب هذه الكلمات . لكنه استطرد قائلا :

– وهذا أيضا لطف.

اقتـرب «مـوشى مـيـخـائيلوف» من صـديقـه .. ولمس سـريره الأرضى ، وقال :

– كيف حالك ؟

قال «بائتورسونوف» :

– سيىء . كبدى يحترق .

– وأنا كذلك ، لو كان معنا قليل من الخمر ، أو حتى البيرة الإنجليزية .

هز الجريح رأسه تلقائيا . وسأل «موشى» :

– كيف يتصرفون تجاهك ؟

- بشكل طيب يبعث على الحيرة . إنى أخجل من نفسى .

قال «بانوف» :

- ونحن أيضا هكذا، نخجل . لم يشعرونا قط بأننا أسرى . ناس طيبون. سألت واحداً منهم يعرف الروسية قليلا عن السبب . فقال : وأنتم أيضا بشر مثلنا . وديننا يحرم الظلم . بدأت أحب الأتراك . ليتهم عاملونا بقسوة حتى لا أحبهم .

أخذ «موشى» الكلام وقال :

- إنى أفكر فيما نفعله نحن الروس تجاه الأسرى من هؤلاء الششن .

- أشياء تخجل . إنهم يلقنوننا دروسا فى الإنسانية . ما أعجب هذا .

- هل عندك أخبار عن جماعتنا ؟ من انتصر فى المعركة ؟

قال «بانوف» :

- لا تفكر فى هذا الآن . أنت جريح . واهتم بنفسك .

- انهزمنا ، أليس كذلك ؟

- ولماذا نحن الذين ننهزم ؟ العقيد «بتروفسكى» هو الذى انهزم ، وكذلك الجنرال «غراب» و«كلوج فون كلوجناف» وأخيرا القيصر . وإذا انتصروا فهم الذين انتصروا . ما دخلك أنت ودخلى أنا ؟ يقولون إن «غراب» سيقوم الآن بهجومه . لكنه سيهزم .

- ولماذا ؟

- هؤلاء الرجال فى غاية الغرابة . ينظرون إلى الحرب كأنهم يتعاملون مع اللعب فالموت بالنسبة لهم ليس حلما مخيفا . يقولون أن هذه الأرض جديرة بالموت فى سبيلها . لو سألتمونى فإن كل روسيا لا تساوى قرشا واحدا .

أطلق قهقهة حادة ناسيا أين هو . ثم ارتاح عندما رأى حارسين من الششن ينظران بسحنة مبتسمة .

قال «بانتورسونوف» :

– لا يعاملوننا معاملة تختلف عن جرحاهم . ولا يشتمنا أطباؤهم ولا يتمنون موتنا مثلما يفعل الأطباء الروس عندما يقولون للجريح : «قلتمت أيها الوغد».

هز رأسه على الجانبين وقال :

– ولماذا نحارب هؤلاء ، أنا لا أفهم ؟

– حاول أن تفهم . عقلك راكد تماما . تحاول الرؤوس الكبيرة أن تيسر أسباب الخلاص لنفسها ثم ترسل الرؤوس الصغيرة إلى الموت . وعندى أن هذا هو السبب الرئيسى فى جميع الحروب .

كان «بانوف» واثقا من أنه يتحدث بفلسفة وعبث : لكن «موشى» قال :

– إن هؤلاء الناس لا يحاربون فى سبيل المزاح والفكاهة ، وأنت أيضا تعلم أن الموضوع الأساسى عندهم هو حريتهم . إن الذى نراه طبيعيا لنا تراه كثيرا عليهم . هذا هو السبب . كما أن قوادنا مغرمون كثيرا بالحصول على الميداليات . لو عرف الواحد منهم أنه سيحصل على ميدالية ذهبية فإنه لا يتردد فى ضرب الدنيا بالنار . الجنرال «غراب» «بتروفسكى» «كلوج فون كلوجناف» .. خذ واحداً منهم واضربه بالآخر ، الجميع مرضى بالشهرة .

– آلاف الناس تحدث .

قال «بانوف» :

– أكبر همى هو إنى لا أستطيع التدخين ولا أجد الخمر . وكلاهما ممنوع هنا . يقولون : ليس لدينا الوقت الذى نقضيه فى التمتع باللذات وبدلا من أن ندخن ونتفرج على الدخان فإننا نفضل ونرى أن الإنسانية هى أن تتفرج على مناظر بلاد الششن التى لا يشبع الإنسان منها ولا أنكر أنهم على حق . لكنى مبتلى .

سأله «بانتورسونوف» :

– هل قلت لهم هذا ؟

هز «بانوف» رأسه .

قالوا :

– إذا كنت تريد القـراءة فـعندنا الكتب ، وإذا أردت الصـراع فـعندنا السيف وإذا أردت الكتابة فعندنا القلم والورق . ولكن لا تطلب منا الدخان والشراب وهما لا يحلان مشاكل الدنيا والآخرة .

فتح يديه على الجهتين وقال :

– وماذا نفعل نحاول أن ننسى .

اعتدل «موشى ميخائيلوف» . وقال :

– هيا إذن لنذهب .

نظر مرة أخرى إلى زميله المجروح .

– لا تقلق فسنأتى مرة أخرى . قالوا لنا إنهم يصرحون لنا فى اللقاء فى أى وقت نشاء .

تنهد المساعد «بانوف» ، وقال :

– نعم ، سنأتى مـرة أخـري يا صـديقى . مـاذا نـفـعل لهـؤلاء الناس الطيبين . هنا بنا ونلقاكم على خير .

– مع السلامة .

وتبعهما الحارسان . كان «بانوف» يعتبر نفسه فى الجنة وهو فى جبال الششن لو لم يكن أسيرا .

همس قائلا :

– يوم جميل . يوم جميل جدا .

علقت عيناه بواحد وجاء اسمه على لسانه .

- «بينكا» .
وضرب صديقه برسغه.
- هل عرفت هذا الرجل الروسى .
قال له «موشى» :
- لا ، إنك تنسى إننا جدد هنا . من يكون ؟
- «بينكا» صديقى المبتهج : يا له من رجل وكأن الإمام قد أقام منظمة استخبارات واسعة . ليس اعتباطيا إن هؤلاء المسلمين يعرفون درجة تنفس الروس والكثير مثل «بينكا» داخل الجيش وقد يكون فى قصر القيصر ناس منهم .
رأى «بينكا» صديقه فرفع يده وسلم عليه تلقائيا . ورد عليه «بانوف» السلام بحكم العادة . تعقبه بعينيه . لم يكن «شامل» فى مقر قيادته وكان الشيخ «شعيب» وهو أحد نوابه يقوم مقامه . كان يجلس فى المبنى الذي دخله «شعيب» قبل قليل .
همس «موشى» قائلا :
- جاسوس أم أسير .
- لو كان أسيرا فإنه كان سيمشى - على الأقل - فى رفقة حارس ، إنه جاسوس بالتأكيد .
لم يتحدثا شيئا آخر حتى اللحظة التى آووا فيها إلى أماكنهما . وعندما أغلق الباب انطلق «موشى» بعد أن فرغ صبره يقول :
- إنك واثق أنه جاسوس أليس كذلك .
كان أكثر الرجال ذكاء فى الفرقة . كان جنديا قديما . فى معركة ضد الششن . رأيته واضعا ماسورة بندقيته متجهة نحو السماء . صحت به وذكرته . أن هذا ليس وقت تهريج . فقال لى : ما لى وكل هذا ؟ ليس بينى وبين الأتراك عداء . فلماذا أقتلهم ؟ الآن فقط أفهم ماذا كان يعنى .

– كان «موشى» قد بدأ يبنى خططا . رمى بعرض الحائط أفكاره التى كانت قبل قليل . ومنها اتخاذه «شاملا» عدوا له . كانت النقود تترى أمام عينيه وهى كل ما كان يشغله .

قال :

– يجب أن نهرب من هنا .

تعجب «بانوف» ، وقال :

– لماذا ؟

– للقبض على ذلك الرجل وإلا فإن زملاءنا فى الفرقة سيقتلون عن آخرهم .

– هل أنت مجنون ؟ إنك بالطبع تعلم أن هذا مستحيل .

وأضاف إلى قوله بشكل ساخر :

– ومن أين خرجت كل هذه الوطنية ! لم تكن تتكلم هكذا وأنت مع «بانتورسونوف» .

احتدت عينا «موشى ميخائيلوف» واحمرتا وقال :

– اسمع يا «بانوف» ليس الأمر متعلقا بالوطنية . ليس الأمر محبة الوطن وإنما حب النقود . أنا يهودى .

– مبارك عليك .

– اشتقت لرائحة النقود ولم أعد أستطيع التحمل . إن هذه هى خلقتى . ماذا تقول فى اقتسام الثروة ؟

– أقول إنك شمرت عن ساقيك قبل أن ترى جدول الماء . إهدأ قليلا .

– يعنى ألا تقبل ؟ ألا تحب أن تكون غنيا ؟

تنهد «بانوف» وعبس وجهه وقال :

– ومن ذا الذى لا يريد ؟

– ألم تكن تشكو من قلة الخمر والسجائر ؟

- وما زلت .

- إذن فهذه فرصتك . وبقدر ما تطلب ستجد الخمر وبقدر ما تستطيع التدخين تدخن ، وأكثر من هذا ، أحسن أنواعها ، وألذ من التى يدخنها الجنرالات .

- أصحيح ؟!

- فلنعمل خطة .

هز «بانوف» كتفه . لقد دخل دون أن يدرى تحت إمرة اليهودى وإلا فإنه يحمل رتبة على كتفه . وعندما تذكر هذا عبس وجهه لكنه تمالك نفسه وقال :

- فلنجرب . ومن المحقق أننا لن ننجح بهذا .

- سننجح وسترى .

انتظرا بفارغ الصبر حلول المساء . دبر «موشى ميخائيلوف» خطة هى أن يدعى «بانوف» إصابته بالمغص . وسيزعق ويصيح ويصرخ . وسيأتى الحارث لمعرفة ما يجرى فينزل «موشى» بقبضة يده على رأسه ثم يرتدى ملابس هذا الجندى الحارس وسيأخذ الآخر أمامه وكأنه يسوقه أسيراً ويغادران مقر القيادة على هذا الوضع.

لم ير «موشى» أنه من المناسب تنفيذ هذا فوراً . يمكن لظلام الليل أن يغطى كثيرا من الأخطاء . على الأقل سيخفى شخصيهما .

لم يكن لدى «بانوف» أدنى أثر للاضطراب . انزوى فى ركن وأخذ فى التصفير . كان يعزف بذلك أغنية إنجليزية كانت منتشرة جدا فى روسيا .

- فيئوو فيئوو ، فيفى - فافافو !

غضب «موشى» وصاح به قائلا :

- توقف عن هذه المشاجرة إنك تؤذى أذنى .

قطع «بانوف» ما هو فيه ، ونهض واقفا . وقال :

– لا أفهم لماذا أنت بكل هذا القدر من العصبية ؟ هروبك ليس شرطا ، إذا كنت تريد أن تتراجع فأنا لا أمانع .

ضغط «موشى» على قبضتيه ، وأنزلها بهياج على ركبته .

– ماذا تريد منى ، أتريد أن تجنننى ؟ ألا تسكت أيها الرجل ! .

قال «بانوف» :

– هذا هو الذى ينقصنا . من الأفضل أن نتعارك ولنترك مسألة الهروب الآن ، أهذا ما تريد ؟

– كلام فارغ ، إنى لا أريد شيئا من هذا .

غضب «بانوف» وهو يكشر عن أسنانه :

– من المحقق أنك أقوى منى ، ولا تنسى إننى أحمل رتبة ، ولو كنت أقوى فإنك تحت إمرتى .

لعق «موشى ميخائيلوف» شفتيه المرتعشتين من الغضب وقال :

– أتظن إنك الآن فى الجيش الروسى ؟!.

– أينما كنت فالمسألة لا تتغير ، فالرتبة رتبة ، ومنذ أن خلقت الدنيا والذين لا رتبة لهم يعملون تحت إمرة من لهم الرتب . أتغير أنت هذه القاعدة؟

أشار بإصبعه إلى النافذة . وقال :

– نعم سنهرب ، ولتكن القيادة لى ، مفهوم ؟

جفل هو نفسه أيضا من نغمة صوته . حاول أن يبتسم «لموشى» الذى كان ينظر إليه فى تعجب . وقال له :

– أنت على حق . يبدو أننى أهذى .

كم كنا أصدقاء مخلصين منذ فترة ، أليس كذلك ؟

– وما زلنا كذلك .

- ليس بالضبط ، إننا شركاء عمل : أنت وأنا . ولسنا رفاقاً صادقين مثلما كنا .

- ولكن لماذا ؟

امتعض وجهه باشمئزاز . واستمر فى كلامه قائلا :

- الأمر فى غاية البساطة . لأن خيال النقود القذر قد دخل بيننا ، وتخللنا .

نعم إن مجرد خيال النقود فقط يكفى لهدم الصداقة . ما أقذره من عمل! لم يجب عليه «موشى». لو استطاع النجاح فى هذا العمل سيغتنى . ولن يعود إلى العمل ليلا ونهارا لكى يسرع ببيع السمك شتاء للقصر . سيشترى قصراً وينام هناك .

إنه يتصور هذا من الآن . لابد أن يكون القصر الذى سيشتريه على شاطىء البحر . نعم على شاطىء البحر ولكن لابد إن يكون فى حديقته حوض سباحة ضخم حتى يكون المظهر فخما . يعمل حماما من الحليب أحيانا . تماما مثلما يفعل القيصر «نيقولا» . لا إن «موشى» لا يستطيع الظلم مثلما يفعله هذا، هل يستطيع أن ينفق هذا على حمامه بينما الأطفال فى روسيا تهزل أجسامهم لنقص الحليب ؟ .

فى ذلك الوقت قد يعرض على «كاتينا» الزواج . «كاتينا» الحبيبة أين الصباح الذى تخرج فيه «كاتينا» إلى النافذة . هذه الزوجة الأرملة ، أرملة «فورونيكوف» الصياد .

أفكار «موشى ميخائيلوف» كانت تسير فى طريق آخر . كان يعرف «فورونيكوف» جيدا . تصادقا سنوات طويلة . كم اهتزا معا على المراكب فى البحار المملوءة بالعواصف وكل ذلك فى سبيل لقمة العيش . وذات صباح انتظره طويلا ساعات كثيرة ، لكى يخرجا لصيد السمك .

وفى اليوم التالى ، وفى وقت الظهر، كانت الموجات مثل الطبل منتفخة ،

ألقت الأمواج «بفورونيكوف» إلى الساحل . فأسرع «موشى» يجرى نحو «كاتينا» .

وشرح لها موقف زوجها الخطير . كان من المحقق أن المرأة لم تتأثر كثيرا . قالت شيئا كأنه «قلة الماء تتكسر فى طريق الماء» . «موشى» الآن لا يتذكر الموقف جيدا . بالطبع ربما قالت كلاما آخر بهذا المعنى . ليس هذا هو المهم ، إنه اندهش لما أبدته المرأة من استهتار . ثم لاحظ صلتها «ببوشكين»، ياور القيصر . ربما كان هذا أمراً غريبا لكنه فى الواقع توصل إلى قناعة تقول إن «فورونيكوف» قد قتله كل من «بوشكين» وزوجته «كاتينا» . لا يعلم هذا بشكل قاطع . ولو علم ماذا سيفعل ؟ إن التعامل مع أمثال «بوشكين» ليس عملا يقوم به الصيادون . ولو اهتم بالأمر وسار خلفه سيجد فى أحد أوقات الظهر جسده مرميا على الساحل .

صاح قائلا : عديم الشرف !.

كان «بانوف» يتفرج على الخارج من نافذة صغيرة عليها أسياخ حديد . والتفت على صوت صديقه :

– وما لى أنا بهذا !.

تمالك «موشى ميخائيلوف» نفسه وحاول أن يبتسم وهو يقول :

– وهناك الكثير . كنت أفكر فى شىء .

أشار «بانوف» بذقنه إلى الخارج :

– يبدو هناك نشاط مكثف ، هناك استعداد ملحوظ .

– أى استعداد ؟

نهض وسار حتى حاذى «بانوف» .

وأجاب على سؤاله قائلا :

– لابد وأن يكون استعداد حرب . هذا أمر طيب ، ففى الاضطرابات تسير أمورنا على ما يرام .

وعندما سمعا دورة مفتاح فى الباب نظرا إلي بعضهما . وظهرت على وجه كليهما أمارات الخوف . والواقع كانت الساعة ساعة الطعام . ومن الطبيعى أن الأكل يكون فى مثل هذه الساعة . ولكى ينتصر «بانوف» على خوفه قال:

– لعله الأكل .

فاستراح «موشى» .

انفتح الباب ، وظهر على عتبته خيال ظلين . واحد منهما جندى ششنى. ولم يهتما به ، وتسمرت نظراتهما على الشخص الثانى .

اقترب منهما الرجل وهو يبتسم . وقف أمام «بانوف» ، ومد يده :

– الصديق «بانوف» ، هل أنت بخير ؟

تردد «بانوف» لحظة فى أن يمسك باليد الممتدة إليه . ثم هز كتفه ، ومد يده وتصافحا .

– لا يعتبر حالى شيئا يا «بينكا» وهل أمسكوا بك أيضا ؟

هز «بينكا» رأسه بمعنى النفى .

– جئت هنا برغبتى .

وحول رأسه نحو «موشى ميخائيلوف» .

– لا أعرف هذا الصديق ، هل كنتما معاً ؟

حك «بانوف» رأسه فى ضيق وقال :

– خرجنا معا فى عمليتنا . إنه بطرسبورجى استدعوه إلى العسكرية عنوة أيضا مع أن أخاه مجند فى الجيش !

قال «موشى» :

– إن القيصر يسحق كل القواعد . وإلا فأخى قد ذهب إلى العسكرية بدلا منى .

وضع «بينكا» يده على ظهر «موشى» ، وقال له :

– إن القيصر يظن أنه قد أرسل إلى هذه الدنيا لكى يسحق كل القواعد. إن العمل من أجل القيصر هذيان ووهم .

– قد يكون كلامك صحيحا ولكن ألسنا روساً ؟ وخدمة القيصر، دين علينا .

رفع «بانوف» كتفيه وأنزلهما وضغط على كلمة «دين علينا» لكى يوضحها . غير «بينكا» الموضوع فقال :

– قال «بتروفسكى» بجنون أثناء إغارة اليوم الماضى أنكم خونة . والرائد «بورلتوراتسكى» قد أقسم . عندما يجدك سيطبخك ويأكلك .

انفجر «بانوف» قائلا :

– إنه مسعور ذلك النبيل آكل لحم البشر ومعدته ثقيلة ولا يستطيع أن يأكل طعامه جيدا ومع ذلك يأكلنا .

كان «موشى ميخائيلوف» متردداً عندما قال :

– ما هو السبب فى تفكيرك هكذا ولماذا تخون ؟

– ألستم – ثلاثتكم – من بلد واحد هى بطرسبورج ؟

– نعم .

– وأين زميلكم الآخر ؟

– «بانيقورستوف» فى المستشفى إنه جريح .

– بالطبع لم يكن انتسابكم إلى بلد واحد وهو بطرسبورج ضروريا لأن تكونوا مذنبين ، ولكن كونكم بلديات يعنى من بلد واحد . هذا شد الانتباه إلى أنكم كنتم فى البداية متفاهمين وتقومون بالتجسس .

أخذ ما يبنيه «موشى» من خيال ينهدم أمامه .

– من قال هذا ؟

- الرائد .

نظر «موشى» إلى «بانوف» . وأخذت الخطوط المضطربة فى وجهه تعمق .

- ما قولك يا «موشى» ؟ .. الرائد مقرر أكلنا .

- ما دام يظن أننا جواسيس .

انحنى «بينكا» على أذن «موشى» ، وهمس قائلا :

- هناك نقود كثيرة فى هذا العمل .

صادق «موشى» على قوله بهز رأسه .

- نقوده كثيرة . إذن هناك ضمان لحياته ؟

- أتظن أنك بمالك هذا تعتبر حيا ؟

- إنك على حق ، حسنا ، وماذا يكون عملنا ؟

- سهل ، سيطلق سراحكم ، وستنضمون إلى فرقة أخرى فى فرقة الجنرال «غراب» . إنه يستعد للهجوم بخمسة عشر ألفاً .

- وماذا عن الرائد «بولتوراتسكى» الذى يقول أنه سيشوينا ويأكلنا ؟

- لن أشترك فى العملية العسكرية ، لا تهتم .

أغلق «بانوف» عينيه وفتحهما وقال :

- وماذا ستكون مهمتنا ؟

- سهلة ، ألا تعرف اقتفاء الأثر جيدا جدا ؟

- نعم .

- عندما يحتاجون إليك دلهم دائما على الطريق الغلط .

قال «موشى» :

- وماذا عنى ؟

- وأنت عندما تجد الفرصة أقم اتصالا مع الششن ، وقدم معلومات عن الفرقة .

– وماذا سأكسب ؟

– من الأفضل أن تتحدث في هذا مع الشيخ «شعيب» ، وهو مستعد للقائك .

سحرت رائحة النقود «موشى» . ولم يكن الأمر مختلفا بالنسبة إليه إذ لا فرق عنده يوم هنا ، ويوم هناك . قال :

– فلنذهب فورا . لقد سار نحو الباب .

لم يقتنع «بانوف» جيدا بهذه العجلة .

– عندما أجعلهم يخطئون عدة مرات سيظهر كذبى عيانا . ولن يصدقونى مرة أخرى .

– وعندما تحس بالخطر فى أى وقت من الأوقات تستطيع أن تلتحق بأية وحدة عسكرية شيشنية . سيعطونك ورقة تعريف ، ولكن خبئها جيدا .

– لا تقلق ، سنخبئها .

– لنذهب الآن إلى الشيخ «شعيب» .

سأل «بانوف» سؤالا آخر لكى يضمن المسألة ، فقال :

– سنلتحق بفرقة أخرى ، ماذا سنقول لهم ؟

– بالطبع ستقولان أنكما هربتما .

– تمام .

أطلق «موشى» ضحكة عالية . ألن يصبح غنيا ؟ وليكن ما يكون .

النصر..النصر

انتظر الجنرال «غراب» ، عبثا الرسول الذى يحمل خبر نصر العقيد «بتروفسكى» . وكان أول ما يفعله كل صباح وقبل أن يرتدى ملابسه أن يسأل خادمه إن كانت أنباء النصر فى الجبهة وصلت أم لم تصل . وفى آخر الأمر ظهر «بتروفسكى» فى سفوح «كرزل» ومعه عدة آلاف من الجنود يسوقون الخيول وكأن الشيطان يطاردهم من خلفهم .

وضع الجنرال «غراب» يده على شاربه وقال :

– شيء غريب ، ولكن ... لماذا جاء هو بالذات ؟

لم يحب أن يفسر هذا الأمر تفسيرا سيئا . يبدو أن العقيد أحب أن يبلغ بنفسه خبر النصر . ويمكن بهذا أن تعلو رتبة «بتروفسكى» فيرقى إلى مرتبة الجنرال . أما هو بالذات فيمكن أن ينعم عليه بنيشان صليب جوركى . على كل حال انتصر «بتروفسكى» وكسب الحرب، لكن «غراب» هو الذى وضع خطتها ، أو إذا كان أكثر واقعية فيقول إن الخطة خرجت من فمه هو ومن تدبيره وتفكيره، خطة احتلال «ششنستان» .

كان يفكر فى كل هذا وهو فى شرفة قصره . وهذه الشرفة تسيطر تماما على كل الوادى . كان يمكن رؤية الأماكن البعيدة جدا براحة . ولاسيما إذا استخدم المنظار المكبر الخاص بالصحارى وهو منظار ضخم وضعه فى الشرفة ليقرب البعيد .

وضع عينيه مرة أخرى على عدستى المنظار المكبر . كان يفتقد الصبر ولكنه ينظر جيدا .

- يا للهول ! ..

بعض الجنود لا يستطيعون البقاء على ظهور جيادهم إلا بصعوبة.

المنظار الصحراوى المكبر أظهر هذه الحقيقة لـ «غراب» .

- مستحيل ... هذا لا يمكن ! أمعقول أن يعود من عشرة آلاف جندى مجموعة رجال متهالكين وحفنة قليلة من هذا العدد الكبير ؟ .. لا .. لا ..

غرق فى القصر كالمجنون . وأنزل السوط الذى فى يده على أول جندى رآه أمامه .

- أسرع واستدع «بتروفسكى» أمامى .

كان الجندى ينظر بحمق وبله إلى الجنرال .

- ألم تسمع أيها المعتوه . قلت «بتروفسكى» . «بتروفسكى» الفارس المعتوه قائد قطيع المعتوهين ...

لكنى لا أعرفه يا سيدى إنى لم آت هذا المعسكر إلا اليوم صباحا .

وأنزل سوطه عليه مرة أخرى .

- يا أحمق ، ابحث عن واحد يعرفه وقل له .

ابتعد الجندى كالهارب ، ابتعد عن الجنرال لكى يتخلص من السوط الثالث . لكنه بحث عن أحد يبلغ الأمر . وهو لم يستطع فهم رغبة الجنرال .

لم يبحث عنه ، فلم يكن هناك مكان آخر يذهب العقيد إليه ، كان منهارا من شدة تعبه . لكنه كان مضطرا لتقديم تقريره . تسبب فى محو جيش ضخم وينسحب بكل هذه السهولة لم يكن فهم «بتروفسكى» يستطيع أن يصل إلى إدراك خطورة الأمر .

استقبل الجنرال «غراب» ، العقيد ، عند الباب، مازال السوط فى يده وكان لا يتوقف عن ضرب حذائه به .

- سيدى الجنرال .

- نعم أيها العقيد «بتروفسكى» .

كان صوته بارداً كالجليد . حقيقة إن كلمة «نعم» كانت بريئة جدا ولكن لم ير «بتروفسكى» فيها فرقا قط بينها وبين عدة آلاف من الأسئلة أنّ قائلا :

- بوغتنا يا سيدى الجنرال .

رأسه دوما إلى أمام ، عيناه فى حذائه . ولم يكن يستطيع إبداء شجاعة تؤدى إلى النظر فى عينى الجنرال .

قال الجنرال :

- يعنى أن هذا كان سهلا جدا ، بوغتم وانتهيتم . هذا كل ما فى الأمر.

ثم رفع من صوته قائلا :

- أريد منك تقريراً مفصلا يا «بتروفسكى» ، وإلا ..

عاد العقيد «بتروفسكى» بعد أن أدى التحية العسكرية وكاد أن يصطدم بالرائد «بورلتوراتسكى» الواقف خلفه . نظر الجنرال فترة إلى الرائد ثم بصق بصقة كبيرة على الأرض . أوسخ البساط العجمى .

صاح قائلا :

- سكارى .

ثم انسحب إلى غرفته . كان يريد ألا يفقد نفسه وألا يتذكر شيئا قط . ربما تحدث معجزة إلى أن يفيق وتتعدل الأحوال .

أهذا وقت هزائم ؟! هل هذا دوره أثناء انتظار ناظر الحربية عند مجيئه إلى تفليس ؟ .

هل سيكون مضطرا لمقابلة ناظر الحربية كقائد مهزوم فى الوقت الذى كان يفكر فى أن يلقى بـ «شامل» تحت أقدامه ؟ لا ، هذا لا ينبغى أن

يكون . لن يأتى الأمير إلا بعد شهر وهذا الشهر يكفى لتحويل الهزيمة إلى نصر .

قام منطلقاً .. يميل واستطاع فتح الباب واستند على زاويته وقال للديدبان آمراً قائلاً :

– أرسل إلىّ «ياورى» .

سيقوم «شامل» بشن هجوم جديد. ولابد أن ينتصر ولا يمكن أن يكون غير هذا.

عاد إلى غرفته لينتظر مجئ «ياوره» وجلس على مقعده مثل قطعة الحديد ثم احتد على حين فجأة، وأنزل قبضة يده على ذراع المقعد الأيمن :

– سأريك أيها المنهزم المجرم الذى تدعى «شاملاً» وسأدخل مقر قيادتك فى «داركو».

ولم يكن الشيخ «شامل» فى «داركو» لقد ترك قيادة الوحدة للشيخ شعيب، وذهب ليقوم بجولة بين القبائل الأخرى. وكانت نيته القيام بالوعظ فيها واستماع شكاوى الناس والحياة معهم. كان عالماً ومرشداً دينياً. وقائداً أعلى، ورئيساً وفى كل هذه الأمور لم تكن له مسئوليات دنيوية، ولكنه كما قال الحاج «قاسم»: «كان خوافاً من الآخرة ولا يفكر إلا فى يوم الحساب العظيم».

بدأ الشيخ «شعيب» فى استعداداته سريعاً بمجرد أن تلقى من «بينكا» أخبار اقتراب القوات الروسية التى بلغ عدد أفرادها خمسة عشر ألفاً بقيادة الجنرال «غراب».

وجعل الشيخ قواته تسير لتختبئ داخل الغابة. كان على ألف وخمسمائة إنسان، أن يوقفوا خمسة عشر ألف جندى. لم يكن لدى أحد من هذه القلة قلق قط. كان كل منهم مؤمن بالنصر مائة فى المائة. وأكملوا كلهم استعداداتهم.

كان كل عساكره فى تمام الوحدة والتعاون. حالتهم المعنوية عالية فى قمة سموها. لم يكن هناك أدنى تردد فى أنهم سيقضون على الوحدات الروسية فى غابات الشش. سجل الحاج «قاسم» هذا اليوم على الوجه التالى:

بعد صلاة الصبح تراجعت الخيول إلى الميدان، وانتظمت الصفوف، وعمرت البنادق والمسدسات ونظمت المدافع ليسحب كل منها ثوران. خرجوا إلى الطريق يرددون الأناشيد الدينية.

لم يكن بغلى المسكين يستطيع تعقب القافلة بهذه السرعة. فركبت حصاناً عربياً أصيلاً أهداه إلى الشيخ «شعيب» يبدو أن هذا الجواد لم يكن معتاداً أن يحمل حملاً خفيفاً خفة الريش مثلى. صهل قليلاً ، وكأنه ضاق بالحمل الذى يحمله وهو خفيف بدرجة لم يكن يتوقعها. وبعد أن همست له ببعض الكلمات اللينة، تحرك وقام على رجليه الخلفيتين.

يعرفون الطريق جيداً جداً، وكأنهم يعرفون ماذا يوجد تحت كل وغل لقد حفروا كل شىء فى ذاكرتهم، ومن الصعب على الجنرال «غراب» أن يهزم هذا التفوق.

سالت الدموع من مآقى عينى عندما كان شاب يودع أمه. المرأة العجوز ترسل ابنها الرابع إلى الحرب وكأنها تستخرجه من كبدها، فى سبيل حرية الوطن اثنان منهم استشهدا، وواحد بجوار «شامل»، وهذا هو الأصغر آخر سند لها. ورغم هذا، قرأت فى عينيها لمعة الفرحة مكان الدموع وكان هذا مصدر دهشة لى وحيرة.

كانت تقول له: «اذهب يا ولدى ، مت وأنت تحارب فى سبيل دينك ووطنك ومن أجل حريتك إن هذا الموت أفضل من الحياة تحت نير الروس».

أخمن بأن عمر ابنها هذا لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ويمكن أن يكون أصغر من هذا، هؤلاء الششن يكبرون قبل الأوان.

كان الشاب يقول لها : «أمي ، سامحيني، إني ذاهب للموت بدوري في سبيل قضيتنا الكرى التي حمل إخوتي في سبيلها رؤوسهم على أكفهم ، واستشهدوا لا يا أمي ليس الموت مهمتي ، إنما الحياة ، أن أعيش لأخدم . ولكن إذا كان الموت مقدراً لي فمن يستطيع منعه ؟ إني أودعك أمانة بين أجنحة الإمام الحنون، إنه يعرف أين الخير ويدلنا عليه».

«سامحني يا ولدي، لا تحدثني عن الموت، فالموت بالنسبة لي ليس رؤيا مزعجة، لأنه حادث يومي. أقليل ما رأيته من الموتى في هذا الميدان ! أقليل هم الناس الذين لفظوا أنفاسهم الأخيرة بجانبي. أتتذكر والدك حينما طلب مني أن أخرج بأسناني رصاصة روسية استقرت في كبده. ومع أن الرصاصة التي في كبده رصاصة كافر. إلا أنه لم يكن يود أن تصعد روحه إلى بارئها وهي فيه. كان يقول: ينبغي أن أكون في غاية النظافة. وكان يئن قائلاً: «هذه الرصاصة توسخ جسمي» ولقد رأيت أكثر من هذا. ولو تلقيت خبر موتك، فإن قلبي سيحترق أكثر قليلاً، ولكن - والله شاهد على قولي- لو كان لي ألف ابن فإني أرسلهم كلهم إلى المكان الذي أرسلك إليه، بكل ترحاب اذهب فتح الله عليك، ولا تنس أن كل رجل من رجالنا من قبيلتنا لم يضرب قط في ظهره».

ندت من حلق الشاب آهة نحيب :

«- يا أمي...»

وانطلق يعانقها.

- «أمي حبيبتي !».

سحبت الأم ذراعيه وكانت تطفئ شوقها فى داخلها. كانت تخفى نحيبها وقالت:

- «اذهب يا بنى اذهب، أستودعك الله هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، وهو العليم هيا فإخوانك قد اصطفوا، هيا ولتشترك معهم، وسأدعو، ليس لك فقط بل لكل عالم الإسلام. ولا تنس يا بنى عبادتك إذا واجهتك الصعاب، وأقم الصلاة».

دخلت دون أن تزيد كلمة أخرى، وأغلقت الباب خلفها. وظل الشاب بلا حراك فترة فى المكان الذى تركته أمه فيه. ثم عاد رويداً رويداً وعندما رأى إخوانه ينتظمون فى صفوف هرول إليهم مسرعاً.

اتخذت قراراً مرة أخرى، إن هذا الجيش لا يمكن أن ينهزم طالما أن الجندى والمدنى، الأم فيه والأب يعيشون بهذا الفهم.

صمتت البلابل. مع أن البلابل الششنية كانت عذبة الإنشاد تطرب بصوتها الحلو.

وصوت همهمات الدب قد سكتت. وكذلك نباح الكلاب. كان هناك صوت ضجيج واحد فقط، هذا الضجيج كان يخرج من المدافع ومن البنادق. وأحياناً يكون هناك صوت ناس، وهذا الصوت خشن وقصير.

- النار !

- مد الهدف.

- المدفع الأول .

- بوووووم .

وضع الحاج «قاسم» إصبعين من أصابعه على أذنيه قال لنفسه: تكاد الدنيا تنهدم . علقت عيناه بسحنة يعرفها سار نحو صاحبها. صاحبها شاب كان مشغولاً بتنظيف بندقيته.

– السلام عليكم يا صديقى الراعى فى «أهولكو».

ترك تنظيف بندقيته ورفع رأسه وابتسم:

– عليكم السلام أيها الدرويش الذى يحمل عقله على ظهر بغله، لم أكن أتوقع قط أن أقابلك هنا.

– أصبحت جندياً، فلمن تركت قطيعك ؟

– لأخى ذى التسع سنين من عمره .

– أيستطيع حماية القطيع الكبير ؟ ماذا يحدث لو هاجمه الذئب...

– وماذا فى هذا، سيخطف بعض حملان، بالهناء والعافية هل بقى وقت عندما يهاجم الروس المخادعون شعبى هنا، هل بقى وقت للتفكير فى القطيع وحمايته من الذئب ؟ حسناً، وماذا فعلت أنت ؟ هل رأيت الشيخ «شامل» ؟

– إن كل هدفى هو رؤية الشيخ.

صاح الراعى القديم بحدة قائلاً:

– سامحك الله، وكأنك تنتظر قتله...

نظر الدرويش إليه بابتسامة غامضة وقال:

– هل لابد من شق صدرك لرؤية داخلك أيها الراعى ؟ هل يخفى القلب عن العين ؟

– حسناً هل استطعت العثور على ما تبحث عنه، فى داخل الشيخ على الأقل.

كان يشوب صوت الراعى قليل من الاستهزاء، وبدا الدرويش كأنه لم يفهم.

– بقدر رؤيتى أقول أنه امتلأ بحب الله ونما بعشق الاستقلال، واستقل بحب الناس. وطالما أنه يحمل هذا فالنصر له فى كل مكان يذهب إليه. وطالما أنه كبير سناً فلابد من اتباعه .

وابتسم الراعى من أعماقه وقال له :

- إنك تحب شيخى.

- أنا أحب كل من يحب الله. إنما أنا صديق لكل من يصدق مع الله. والإمام «شامل» رجل صدق ما عاهد الله عليه، إنه عبد يحب الله. فلم لا أحبه ؟

- أما عنى، آه لو تعلم أيها الدرويش المحترم كم أحبه، لو قال لى ألق بنفسك إلى الموت، فسأفعل وأقسم إننى لا أتردد فى هذا قيد أنملة .

- أتريد أن أقدم لك نصيحة ؟ لا تفرط فى شيئين الحقد والحب . لا تظن أنه ليس للحديقة مالك إذا سمعت البلبل يغنى فيها . ولا تخرج من عقلك. إن النعمة الحقيقية هى فى الفضيلة وإن البركة فى القناعة. ولا تنس أن محبة الدنيا تخرج الإنسان من عالم المعنى وتبعده عن الحب الحقيقى. ونكتفى الآن بهذا القدر لن أؤخرك عن مهمتك أكثر من هذا أستودعك الله.

نظر الراعى طويلاً إلى الحاج «قاسم» بعد أن ذهب عنه وهمس لنفسه قائلاً:

- هذا الرجل ليس مجنوناً هذا الرجل عابد.

ملأ بندقيته وأخذ يجرى نحو الخط الأمامى.

صاح به أحدهم :

- يا هذا ، لا تسر كالكوسة هكذا.

ولم يلتفت الراعى لهذا التحذير .

- رصاص الروس لا يقتلنى .

- الرصاصة رصاصة يا حبيب عينى، احترس وإلا أصابتك الرصاصة فى جبهتك .

ذهب الراعى إلى الجندى الششنى الثرثار ودخل خلف المانع.

سأله الجندى :

– كيف حالك. وما هو اسمك ؟

دهش أولاً، ثم جمع نفسه ولمس الزناد وعندما أخذ فى ملء بندقيته مرة أخرى قال :

– نعم سألتنى عن اسمى، أليس كذلك، لابد أن يكون للشخص اسم بالطبع أليس كذلك ؟

– طبعاً، فمثلاً اسمى «پايس» وهذه أول مرة أحارب فيها .

رفع ذراعيه وأنزلهما قائلاً:

– ليس لى اسم. وربما كان لى ونسيته. من يعرفنى يسمينى بالراعى وإذا أحببت أنت أيضاً فيمكنك مناداتى هكذا، وإذا أحببت أن تنادينى قائلاً: يا من ليس له اسم فيمكنك. كم إنك شاب فتى .

ابتسم الشاب وقال :

– إنى آخر أولاد أمى. استشهد أبى وأخى الكبير، وواحد من إخوتى الكبار مع الإمام، وأنا هنا.

نظر إليه الراعى بغبطة وقال:

– يا مصيبتى كنت أظن نفسى أقوم بتضحية. هل لك أحد آخر ؟

– أمى، وهى أم ذات قلب طيب.

– أطلبت أنت المجئ ؟

– كلانا طلبه.

– يعنى أن هذه أول مرة تشترك فى الحرب.

– نعم ، تعتبر الأولى لى . لى علم ببعض أشياء عن الحرب علمتنى أمى أكثرها. عرفت معلومات عن الحرب وكأنها محارب ماهر بعد أن كانت تديم

الاستماع لأبى عندما يتحدث عن الحروب. هذا هو الموضوع على كل حال
هيا نبدل موقعينا .

- هنا أحسن .

- لا يمكن ، ينبغى أن نعيش حتى نستطيع أن نقتل المزيد من الكفار من الخطأ الوقوف فترة طويلة فى المتراس. كانت أمى دوماً تقول هذا أتسلل أنا أولاً، خلف هذا الجذع، وتأتى خلفى بعد أن أرقد أنا.

- تمام .

- لابد من الركض فى شكل متعرج .

- اعمل هكذا .

- راقبنى جيداً ، إن لجريك السريع أهمية كبيرة . انظر، هأنذا أركض .

وانطلق وخطا عدة خطوات . ثم توقف فجأة . والتفت إلى الراعى ونظر إليه كأنه لا يعرفه . غارت خطوط وجهه كأنها أصبحت كذلك بفعل سكين، وكأنها حفرت حفراً.

همهم الراعى قائلاً:

- يا إلهي يبدو أنه أصيب.

كان الشاب يهتز . مد يده كأنه يريد أن يمنع الراعى الذى استعد للركض. ولم يهتم الراعى بذلك . وجرى احتضنه وأرقده أيضاً. وشده إلى الموقع بأن دحرجه. اشتد وابل الرصاص المنطلق. وكانت الرصاصات تنزل بجواره .

- كيف حالك ؟

ورويداً رويداً أخذ وجه الشاب فى الاسترخاء. لعق بلسانه شفتيه الجافتين . قال :

- الحمد لله أن الرصاص لم يصبنى من الخلف، أصابنى فى صدرى تماماً . انظر.

أراد أن يرفع يده ولم يستطع واصل كلامه بصوت أكثر ضعفاً :

- استشهد أبى برصاص الروس وأخواى كذلك . استأنفت أنا السير فى طريق القضية التى آمنوا بها وهذا قدرى !

وبعينين محمرتين قال الراعى :

- ستتحسن صحتك .

- اتركنى.. لابد أن تطلق الرصاص . هذا المكان ليس موقعاً جيداً. ضع جسدى أمام رأسك . أريد أن أكون متراساً لك . لم أكن ذا فائدة كبيرة جداً أثناء حياتى . كنت بدأت جديداً.

لم يكن الراعى ابن البرارى يعرف شيئاً اسمه البكاء. لكن تبدو عيناه الآن وكأن الفلفل قد أصابها. اندهش عندما رأى دمعتين تتسللان من على خديه وتنزلان على وجه الشاب. قال له :

- أنت إنسان كبير ومكانك عند الله كبير لقد نلت الشهادة قد لا يكون لك قبر معلوم ولكن هل هناك شاهد قبر أعظم من هذه الشجرة ؟ فى نومك الأبدى سيكون حفيف أوراق هذه الشجرة نشيداً لك، وتغريد البلابل هو الدعاء لك الدعاء الذى لا ينفد ولا ينتهى. أنت شهيد وابن شهيد . النهار كفنك الأبيض والليل سريرك.

اهتز اهتزازة خفيفة وقال :

- أتسمعنى يا صديقى ؟

لا .. لم يعد يستطيع سماعه لم يعد يسمعه لا هو ولا انفجارات البندقية وهدير المدافع. إن الشىء الوحيد الذى يسمعه الآن هو، نشيد حفيف الأشجار ودعاء الملائكة. كانت على شفتيه بسمة حلوة يتلاشى معها الشعور بالتعب اللذيذ بعد حادث سعيد.

ترك الراعى رأس الشهيد على الأرض بخفة وهدوء خوفاً من إيقاظه.

- رحمك الله يا أخى الشهيد رحمة واسعة، تعال مع جيوش الشهداء من عالم المعنى، لتشترك مع مجاهدى القوقاز الذين يحاربون فى سبيل دينهم وحريتهم.

وسمع صوتاً جهورياً أعاده إلى نفسه.

- أطلقوا النار بسرعة...

أمسك جيداً ببندقيته. ظهرت خوذة جندى روسى من نتوء أمامه . لقد اقتربوا كثيراً. حدد هدفه وضغط على الزناد ، فظهر غبار من النتوء.

- يا للأسف لقد أطلقت رصاصة عبثاً . يبدو أن هذا العمل لا يشبه كثيراً رعى الماشية.

وملأ البندقية مرة أخرى وانتظر أن يظهر رأس الجندى الروسى. مضت عدة دقائق. عدة دقائق تمر طويلة وكأنها الساعات. ولكى يرى الهدف جيداً أطلق النار عندما ظهر جزء من رأس الجندى الروسى. وانطلق الرجل، ونهض من متراسه. التفت حوله ممسكاً برأسه فترة لم ير الراعى أن الجندى الروسى قد اختفى خلف النتوء.

قال لنفسه :

- لابد أن يكون هذا هو الذى قتل صديقى . لقد كان ممتناً كثيراً بوضعه هذا .

أخذ يسوق الرصاص فى بندقيته سريعاً ويضغط على الزناد دوماً. ليس فى عينيه أثر لخوف من الموت. لقد حبب الشاب الشهيد الموت إليه كذلك بدا وكأنه يشتاق إليه . وأحس فترة أن أحداً يشده من قدميه، وعندما التفت بحدة رأى الحاج «قاسم».

- ماذا تفعل ؟ أهذا وقت تسحبنى فيه من رجلى ؟

- يا صديقى الراعى، ألم تسمع أمر الشيخ «شعيب». لقد اقترب كثيراً ذوو الوجوه الصفر. وإننا ننسحب الآن.

وكأن صاعقة مست الراعى. لم يستوعب ما يحدث . ضغط على الزناد مرة أخرى وهو فى حالة من الذهول وقال :

- لا ، إننا لا ننسحب . هذا، هذا الأصفر الوجه، إنى قتلته. وسينتهون كلهم قريباً.

- إن هذه خدعة، خدعة من أجل جر العدو إلى الغابة. إذا أفسدت الخدعة فلن يكون لك فائدة لشعبك قط. هيا يا أنت لننسحب. وإلا ستقع بين أياديهم .

الوقوع فى أياديهم . السقوط أسيراً عند ذوى الوجوه الصفر. الموت بالطبع أفضل من الأسر.

- حسناً إنى أذهب، وأنت ماذا ستفعل ؟

- لا تلق بالاً إلى. إذا أذن الله فإننا سنلتقى ثانية. فتح الله عليك .

نظر الراعى إلى الدرويش فى دهشة. إنه يراه حتى فى داخل جهنم هذه، يراه عجيباً؛ بدأ يجرى إلى الوراء فى شكل متعرج سقطت رصاصة على يمينه ودوت طلقة مدفع خلفه . ولم يهتم بإحداها التفت مرتين وأطلق فيهما الرصاص . وكان يبحث عن الحاج «قاسم» بعينيه كلما سنحت له الفرصة والغابة كانت كثيفة وتشتد كثافتها كلما أوغل فيها. كانت أشجار الصفصاف تتلاصق مع بعضها وكأنها أحالت الغابة إلى جسم قلعة. وعندما لحق بزملائه كان يلهث.

- الحاج «قاسم» ، هناك، تخلف عنا، إما يقتلونه أو يأسرونه، يا للأسف الشديد .

نظر عدة جنود ششنيين بعمق إلى الراعى ثم تضاحكوا قال واحد منهم :

- لقد رأيت رؤيا ، إنى رأيته . كان يصلى تحت هذه الشجرة قبل دقيقة.

جرى الراعى كالمجنون نحو الشجرة . حقيقة كان الحاج «قاسم» فوق جلد غنم مدبوغ وكان منتهياً فى التو من صلاته ويدعو . ابتسم عندما رأى الراعى. أغمض الراعى عينه وفتحها وهز رأسه وتمتم قائلاً :

- وكيف يكون هذا ؟

لم يستطع أن يبعد عينيه عن وجه الدرويش. التصقت نظراته . هذا الرجل عجيب.

خجل واستند إلى شجرة حتى لا يسقط.

انطلق الحاج «قاسم» عندما رأى الراعى على وشك السقوط واحتضنه بشدة.

- أفق يا صديقى الراعى أيها الابن البطل .

ابن البرارى البطل لا يتذكر صوتا آخر كهذا، إنه مختنق بعض بشىء، مرتعش قليلاً، لكنه موقظ.. وقال:

- ينبغى أن أذهب، ما زال إخوانى ينسحبون.

صار الدرويش خلفه مبتسماً. وحان وقت العصر، واقترب الوقت من المغرب وقف هدير المدافع فى الغابة. والروس لا يعرفون ما فى داخل الغابة مثلما يعرفه الششنيون. خاف الروس من أن يخنقهم ظلام الليل.

كان الششنيون ينسحبون فى انتظام وحيوية . وكانوا يعرفون أن هذا الانسحاب ليس انهزاماً . لقد اشتدت القبضة التي ستنزل بقوة على نوى الوجوه الصفر.

شعر الجنرال «غراب» بأن هذا الانسحاب، خدعة، واستبعد -كتدبير وقائي- فكرة الزج بالجيش الى داخل الغابة ، ولكنه فهم للمرة الأولى مدى صعوبة تحدى الششنيين فى هذه الأراضى وكانت أول مرة يستصوب فيها رأياً للعقيد «پتروفسكى» . كان الششنيون يقومون بحرب أعصاب أكثر منها حرباً ساخنة . كانوا يعرفون استخدام أسلحتهم فى أحسن شكل عند اللزوم كانوا يخرجون من الأماكن غير المتوقع خروجهم منها، ويظهرون فى الأوقات التى من غير المتوقع ظهورهم أثناءها، فيقومون بهجماتهم ضد الروس حتى يحطموا معنوياتهم ويجروهم الى الهزيمة.

لم يهتم الجنرال كثيراً لهذا فى الأيام الأولى . فقد كان يثق بنفسه ربما أكثر من اللازم لأنه يعلم جيداً مدى قلة القوة التى يواجهها. كان متأكداً أنه رغم كل شىء سيهزم قوات الشيخ «شعيب» أى سيقطع ذراع «شامل» اليمنى كان يخطط لحرب صاعقة تستمر عدة أيام آتية. وكان ينوى ألا يرهق جنوده حتى يحين ذلك الوقت.

لقد تعرض للخديعة ثلاثة أيام فى سفوح الغابة. وتعرض أثناء هذه الأيام الثلاثة لست غارات كاملة. وعندما أدرك أنه لا فائدة من انتظاره ، لم يبق لدى جنوده الرغبة فى المسير. أخطأ «غراب» فى حساباته أمام قوات تمتلئ إيماناً. فتقلب كل الموازين العسكرية رأسا على عقب وتأتى بمعجزات لا يستطيع العقل أن يستوعبها فى لحظات . هذا الحماس الدينى المنقطع النظير.. لم يكن الجنرال «غراب» يفكر فى كل هذا، لكنه الآن يأخذ فى التردد أمام قوة كهذه القوة التى يحاربها. يتردد ومرة أخرى يرى أن العقيد «پتروفسكى» على حق .

إن قوة مكونة من ثلاثة عشر الف شخص بعتادها ومدافعها وذخيرتها تضطر للصمت فى مواجهة بنادق بدائية فى جيش الإيمان وهو جيش قليل العدد.

ورغم هذا، فإنه قام بعمل كل شيء يمكن أن يقوم به جندي. ولم يتردد فيما انتواه من القيام بهجوم شديد وشامل مهما كان الأمر.

كان الشيخ «شعيب» يعرف التوقيت تماماً.. كانت أعماله كلها تبدو للجنرال «غراب» غير معقولة، ولكنه في الواقع كان يعلم جيداً القواعد العسكرية ويطبقها حتى في أدقها. وصله خبر استعداد «غراب» للهجوم، وصله في وقت مغرب. كان هذا هو أول خبر يأتي به المساعد «پانوف» بعد أن التحق بقوات الإمام «شامل» قال له :

- يا لك من شاب رائع، وإني أؤمن بأنك ستكون أكثر نجاحاً في المرات القادمة.

وانطلق كيس تحت قدميه.

- مقابل خدمتك.

كان «پانوف» يقف ثابتاً دون حراك ولف وجهه تعبيرٌ غاية في الجدية ربما يكون أول مرة في حياته يبديه.

- ألا تأخذ هذا.

ولم يتحرك «پانوف» قيد أنملة.

- أيمكن أن أقول لك شيئاً أيها القائد.

دفع الشيخ «شعيب» عمامته إلى الخلف قليلاً شعر رأسه الأغبر في عدة مناطق.

- هيا تكلم.

تلعثم «پانوف».

- استخدموا المال في سبيل حرية القوقاز .

شدهوا ليس من المعقول أن يسمعوا هذا من لسان روسي. ترى أيتهكم عليهم ؟ أو أنه يحس بتقدير حقيقي لصراعهم . أراد الشيخ «شعيب» أن يفهم.

– ما معنى كلامك هذا .

– ليس فى نيتى الاستهزاء، ثم لماذا يكون ؟ أولاً إنى لا أريد الحرب لكنى وجدت نفسى فيها. وفى هذا الموقف، لا أريد أن أكون خائناً. لقد ساقنى القدر الى الخيانة. خدعت الناس الذين أكلت خبزهم. أعاون أعدائى بكل ما هو ضرورى. هل يليق لعمرى القصير هذا أن أحيا فيه بلا شرف. فكرت فى هذا ، فكرت فيه كثيراً أنا مجرد أسير. أعدتم إلى حريتى هل هى مقدسة تلك الحرية التى بعت فى مقابلها خيانتى. فكرت فى هذا أيضاً ووصلت إلى أن المسألة لا تستأهل ذلك. وأنا الآن أمامكم دفعت مقدماً مقابل حريتى. كنت أعلم أن الجنرال «غراب» سيهجم عليكم فى الشفق. ولم تعوزوا الآن تنتظرون منى خبراً آخر. أريد أن أوضح عدم شرفى وإلا فكان يجب أن أقتل نفسى.

ساد الجو سكوت عميق اختلط حفيف أوراق الشجر بصوت سلاح ينعكس صداه من بعيد . أسرع الحراس الششن بوضع أياديهم على خناجرهم . يبدو أن لابد من إسقاط رأس المساعد الروسى بعد هذا الكلام انتظروا الأمر بذلك. لكن الأمر الذى ينتظرونه لم يصدر.

نظر الشيخ «شعيب» فترة بنظرات مملوءة بالتقدير وبقليل أيضاً من الحيرة إلى الرجل الذى قرر أن الحياة للأشراف لا تساوى شيئاً. اعتدل فى مكانه وذهب إليه فى خطوتين ووضع يده بصداقة ظاهرة على ظهره. وقال له:

– إنى أفهمك تماماً . إن هذه الحركة منك لا تنقذ شرفك أنت فقط بل شرف كل الجنود الروس. لكن هناك مسألة تشغلنى إن لى ظناً قوياً بأنك لست روسياً.

أنزل «پانوف» رأسه، وقال :

- قالوا لى إن أبى منكم . وأنا لم أعرفه لكنى أحببته دون أن أراه وأعرفه . وأفهم الآن بعد أن قابلتكم كيف كان أبى ؛ لذلك أحبه أكثر.

ابتسم الشيخ «شعيب» . ثم أمسك بفك «پانوف» ودفعه ليرفع رأسه عالياً. وصاح فيه قائلاً :

- إذن ارفع رأسك. الشخص الذى يقول أنه مسلم وتركى لابد أن يعلى جبهته وينفخ صدره، هكذا .

رفع هامته ونفخ صدره وفرد جسمه بقوة حتى أصبح كقوس من صلب وصاح قائلاً:

- أنا تركى.

التفت إلى «پانوف» .

- هكذا لابد أن تصيح أيها الشاب، لن تحنى هامتك . الروس هم الذين عليهم إحناء الرأس.

«پانوف» كالشيخ «شعيب» يرفع رأسه ينفخ صدره ويريد أن يصيح قائلا: أنا تركى بأعلى صوته. يريد لكن القبضة الحديدية التى تسد قناته الأنفية تمنع خروج الصوت. استطاع فقط أن ينتحب. وقال أشياء غير مفهومة أمسكه الشيخ «شعيب» من ذراعه. وجلسا معاً.

- أنت منا ومكانك بيننا صراعنا هو بنفس القدر صراع والدك وصراعك أنت أيضاً . والآن قل لى هل ستستمر فى هذا الكفاح . وأنت بيننا أم تعود للروس وتقوم بواجبك هناك .

لو كان هذا السؤال قد وجه «لپانوف» قبل ساعة لعده أصعب سؤال فى الدنيا. والاحتمال الأكبر أنه كان سيعود للروس ولم يكن ليخدم الأتراك أبداً ربما كان قد قال لهم أنه من شعب أمه وأنه لن يستطيع ترك بعض عاداتهم

حسناً ولكن لماذا يتردد الآن كل هذا التردد ؟ الأمر فى غاية البساطة دم أبيه يجرى فى عروقه. ومع أنه مختلط ببعض الخبز الروسى إلا أن الدم هو الدم قال بشكل حاسم :

– إنى باق معكم.

وكان انضمام «پانوف» قد زاد قوته مثلين . علت البسمة كل الوجوه .

قال له الشيخ «شعيب»:

– كنت أعلم ذلك، كنت أعلم أنك ستبقى معنا. لقد اتخذت قراراً خيراً، إنى أهنئك .

أنهضه واحتضنه وقال له:

– سلمت أيها الشاب.

واغرورقت عينا «پانوف» بالدموع لا يذكر أن مر به طوال حياته لحظة رق فيها قلبه إلى هذا الحد مثل هذه اللحظة.

– سلمتم جميعاً، أحس كأننى ولدت من جديد.

كان الحاج «قاسم» يستمع إلى المتحدثين بأذن روحه وكان يسجل مذكراته وانطباعاته بسرعة . وعندما رأى أن الشيخ «شعيب» قد بدأ فى استشارة من حوله أسرع إلى جوار «پانوف» وقال له :

– إنى أهنئك أيها الشاب، لقد عدت لأصولك.

التفت «پانوف» وتذكر أنه رأى هذا الرجل ذات مرة فى «داركو».

– إنى أعرفك.

– اسمى الحاج «قاسم» وأعرف فقط أنك عملت طيباً بعودتك إلى أصلك، سيسحبك دم أبيك إليه إن عاجلاً أو آجلاً . لكنى أفكر تفكيراً مختلفاً قليلاً عما يفكر فيه الشيخ «شعيب».

– مثل ماذا ؟

- إن الذى صنع من الأتراك أتراكاً هو الدين، هو الاسلام. وأنا لذلك السبب أفخر بدينى. والشيخ «شعيب» على حق إنما من المستحيل التفكير فى الأتراك بعيداً عن الإسلام فقد امتزج الإسلام بهم وامتزجوا بالإسلام منذ القرون الطوال.

- هل معنى ذلك أننى إذا لم أكن مسلماً مثلاً لا أعتبر تركيا ؟

- استمع إلى أنت تعلم أن كل الناس سيموتون . هل تعرف الجنة والنار؟

- من كل قلبى..

- إلى الجنة بالطبع.

ابتسم الحاج «قاسم».

- والآن اصغ إلى عشت سنوات طويلة وأنت بين الروس تسدد طلقات الرصاص إلى أبناء جنسك. وأنت الآن قد التحقت بنا وستسدد الرصاص إلى أبناء دينك.

قال «پانوف» وكأنه يئن :

- يعنى هل أنا مذنب فى الحالين ؟

- إذا أسلمت فالموقف يختلف. ستكسب ثواباً فى كل رصاصة تطلقها على الروس.

فكر «پانوف» قليلاً ، ثم قال :

- لقد اختلط الأمر على. أحتاج وقتاً.

- كما تريد ، فليس فى ديننا إجبار.

سار وعاد إلى مكانه.

انتهى الشيخ «شعيب» من الاستشارة، وانتهى الأمر بقرار قال:

- على الكل أن يستعد . سنهجم على مقر جيش العدو.

كـانوا فى كـامل الاسـتـعداد بـعـد نـصف سـاعـة فـقـط . وانسـابوا فى مجموعات على مقر الجيش . الظلام سائد، وتعلق ضوء قمر خفيف على قمة الأشـجـار واخـتلطت أصـوات التكبـيـر «الله ! الله !» بانفـجـارات رصـاص البنادق. كان هجومهم من كل جانب. ولم يكن الجنرال «غراب» يتوقع حركة مثل هذه أبداً. اضطرب. ولم يستطع منع حدوث الفوضى بين جنوده. ولاح فى أفق الروس هزيمة ساحقة.

انكسر العمود الفقرى للجيش الروسى فى تلك الليلة. لم يكمل الجنرال «غراب» شهراً فى أراضى الششن ولم يستطع تحقيق أى نصر عسكرى. بل كـان يضـعف كل يوم . وأخـيـراً رضى بـالعـودة ولم يبق من جـيش الروس الضـخم سـوى بضع مـئـات من المنـهزمين. أنقـذوا أرواحـهم بالانطلاق إلى «كرزل» .

وآمنوا مرة أخرى بأن الإمكانات التى تغذى بالإيمان والحرب المشتعلة بحب الحرية تعرقل الإمكانات التقنية وتذيب تفوق القوى الكبرى.

حـددت هـذه الهـزيمة نـهـاية «غـراب». ولم يـعـد يرى الميـداليـة التى كـان ينتظرها إلا فى أحلامه باسم القيصر.

أبلغه وزير الحربية الروسية بأنه قد أعفى من منصبه وأن عليه أن يسلم الجـيش خـلال بضـعـة أيام إلى الجنرال «فـورنتـزوف» وأن يعـود إلى «يطرسبورج».

كـان ترك العـسكرية، أسـوأ من الموت فى نفس الجنرال. ولكن لم يكن له حق الاعتراض على أمر القيصر. سقط من الأعين بهزيمته المفاجئة وهو قائد العديد من الانتصارات الباهرة ولقد كان هذا الحادث الذى لم يستوعبه عقله ومرة أخرى لم يسأل القائد الأعلى «خشرنيتشف» شيئاً قط. خفض رأسه دلالة على تسليم مرير.

الحاج «مراد»

كان الحاج «مراد» قائداً شجاعاً اشتهر فى كل مناطق القوقاز باسم الرجل الذى لا يعرف إحناء الظهر. وكذلك كان «شاملاً» لكن القدر فقط هو الذى جعل الرجلين يقفان ضد بعضهما فى «خوم زاه» مع أنهما مسلمان يجتمعان فى الدين وفى العرق إن الحقد الذى أشعلت جمرات نيرانه قد أسقط فيها قائدين ذكيين.

لقد عاشا سنوات يسمعان عن بعضهما دون أن يرى أحدهما الآخر . كان كل منهما عدواً للآخر- فى غيابه - ولكن كلاً منهما يعجب بالآخر . فى واقع الأمر عمل «شاملاً» كثيراً لكى يرى هذا القائد الشاب، الشجاع بطل «آوارستان» ، يساعده ويقف بجانبه بل أرسل له بالفعل عدة خطابات يدعوه الى الجهاد لكن الحاج «مراد» كان قد وقع مرة فى يد الروس. وقد دفعه الحقد على «شامل» إلى الاندفاع نحو التحالف مع أعدائهما.

لم يكن يكفى تأييد «شامل» خفية، لم يكن يرى فى الالتحاق به هو وعشيرته واجباً دينياً وواجباً وطنياً لكنه لم يكن يجسر على مد يد الصداقة بأى شكل من الأشكال لم يكن يفتح قلبه لأسد داغستان.

وظهرت حادثة كان من الممكن أن تطفىء نار هذا الحقد، وأسرعت إلى النجدة كأنها برميل ماء صب على الحريق.

فى ذلك اليوم كان كل شىء ساكناً. فالسماء زرقاء شديدة الزرقة، والشمس ساطعة، ما زال الحاج «مراد» يحس فى داخله بالقهر. كان يمشط الأفق باستمرار وهو جالس مستقيم الظهر على سرجه.

كان معه مائة فارس آوارى . يهمون بالدخول إلى قرية داغستانية.

لم يكن أحد فى انتظارهم . رغم شدة اقترابهم من القرية . مع أن الحاج «مراد» كان قد أرسل خبراً لأهل القرية بزيارته . والحق أنه لم يكن يفكر فى أن يستقبله أهل القرية استقبالاً خاصاً ، ولكن عدم اهتمامهم إلى هذا الحد بدا أمراً مزعجاً . وهو الذى اعتاد أن يستقبل استقبال الملوك فى كل قرية يذهب إليها بل وفى كل ساحة قبيلة . كان يستقبل بتكريم بالغ يستحى هو ذاته منه ، كان يؤخذ إلى القرى بالتكبير . فماذا حدث الآن ؟

تقدموا قليلاً . الحاج «مراد» كعادته منتصب القامة على سرج جواده يرقب القرية طويلاً . جفل عندما رأى طبقة دخان كثيفة . والريح تهب لطيفة خفيفة ، تأتى إليه برائحة حريق يشمها . قال :

- إنى واثق أن فى القرية شيئاً يحدث ؟
- ماذا يمكن أن يكون .
- سنعرف الآن .

وأصدر أمراً .

- سريعاً إلى الأمام .

انطلق فى نفس اللحظة مائة جواد واختنقت أصوات أقدامها فى الأرض الناعمة ونشرت طوال الطريق من خلفها عاموداً طويلاً من الغبار .

فهموا كل شىء بعد عدة دقائق . لم يعد فى القرية كلها حى واحد . ووقفت كلاب داغستان الصادقة الوفية تعوى بحزن شديد بجوار أجساد أصحابها .

وعندما رأت أن مجموعة من الفرسان قد دخلت القرية ، انطلقت نحوها جاء إلى هذه القرية قبل قليل مجموعة من الرجال المسرعين بنفس الشكل ، قتلوا كل أهل القرية ثم أشعلوا النيران فى منازلهم ومخازنهم .

حقيقة أن الكلاب انطلقت نحو الصيادين الجدد ولكن ، لم تكن الرائحة التى شمتها منهم رائحة قتلة بل رائحة أصدقاء . رائحة ناس تعرفهم .

وقفت الكلاب تنظر إلى القادمين وكأنها سمرت بالأرض . نظرت إلى الفرسان بأعين باكية ثم أخذت تصدر أصواتاً تشبه الأنين .أغلق الحاج «مراد» عينيه اللتين تتقدان احمراراً وفتحهما .

وأخذت نظراته تدور هنا وهناك ليرى جسداً نصف محترق ، سيدة حاملاً مازالت أدخنة النار تنبعث منها . وطفلاً مبقور البطن ، وجسداً بغير رأس . فارتسم على وجهه مايعبر عن الرعب .

ترجل بعد قليل من على حصانه واستغرق فى البحث عن حى من الأحياء . إن والدة الحاج «مراد» – ولم تره قط يبكى ، حتى فى طفولته ولو رأت «مراداً» الآن يبكى بهذه الحرقة لما صدقت عينيها ولتجمدت من الدهشة.

وأخيراً عثر على شخص نصف حى . رجل كبير فى السن ولم يبق فى لحيته البيضاء غير كومة من الرماد . والعظام بارزة فى جانب من وجهه .

جثا على ركبتيه . وأسند رأسه على صدره .

– حدثنى أيها الشيخ الهرم .

حدثنى أيها الرجل الكبير السن يا من رأيت قطعة من عذاب جهنم وأنت مازلت فى الدنيا ، والذى يتلوى من قلة صبره فى سبيل الراحة فى حدائق الجنة ، حدثنى أيها الشيخ .

فتح الرجل عينيه نصف فتحة فعرف أن محدثه هو الحاج «مراد» بسط الرجل شفتيه المطوطتين كأنهما الحبل ثم جمدهما ، ترى أكانت هذه ابتسامة أم شعور بالمرارة ، لم يستطع الحاج «مراد» أن يفهم .

تحدث الرجل بصعوبة فقال :

- كانت قبيلتنا كلها فى نشوة وسرور . الأطفال يلعبون ، والفتيان يتدربون على الجندية . والنساء تحمل المياه ويعجن . كلنا فى غاية السرور فى ظل «شامل» .

تطاير الشرار من عينى الحاج «مراد» :

- الآن فعل بكم هذا ؟

فتح الرجل عينيه على وسعهما بعد أن كانتا منطفئتين . وتحرك فبدا وكأنه يريد أن يستقيم .

- «شامل» ؟ ماذا تقول ؟ ألا يكفى أنك مخدوع حتى الآن ؟ يعمل الروس فينا قتلاً وذبحاً ثم ينسبون مذابحهم فينا هذه إلى الشيخ «شامل» ويحملونه مسئوليتها .

لقد نجحوا فى أن يجعلوك فى صفوفهم منذ وقت طويل ، وظلوا يؤججون فيك نار العداء تجاه «شامل» ، وإنه لعداء ليس له مكان ، ولكن الآن ألن ينتهى هذا الحقد ؟ إنكما تحرقان نفسيكما والآخرين الذين معكما أيضاً.

- أحس الحاج «مراد» أنه يختنق . أحس بالحاجة إلى أن يدفن نحيبه الذى سد حلقه .

- حسناً ،إذا لم يكن هو ، فمن يكون ؟

- عدونا الأزلى ... الروس . جاءوا فى الساعات المبكرة من الصباح حوالى خمسين فارساً . قطيع متوحش لايمت للإنسانية بصلة . هاجموا القرية التى كانت تستعد لاستقبالك . جرونا من شعر رؤوسنا من شعر لحانا. كومونا فى الميدان .

أعملوا فينا الرصاص والسيوف . سال الدم منا مدراراً . تناثرت قطع اللحم منا بل وأجزاء المخ هنا وهناك . توسلت إليهم وجثوت على أقدامهم لكى يبدأوا بقتلى أنا . ونكاية بى جعلونى آخر من يعملون فيه القتل . أشعلوا الحرائق فى القرية فارتفعت النيران كالأعمدة .حاصروا القرية بما فيها وبمن فيها ولم يستطع الذين حاولوا الفرار أن يخطوا غير خطوات قليلة . وكان الروس يصيحون فينا قائلين :

– هكذا يكون الانتقام من هزيمتنا فى «داركو» .

– ما أفظع هذا الانتقام ، يا لها من مذبحة بربرية . لايفعلها إلا الروس.

استراح الرجل المسن قليلاً ثم واصل كلامه قائلاً :

– مات أهل القرية . وإنى سأموت بعد قليل . لكن هناك شيئاً أريد أن أسمعه من لسانك قبل أن أموت ، أقسم بأن تتحد مع «شامل» ضد العدو المشترك . إذا سمعت هذا منك ومت ألف مرة سأكون فى هذه الألف مرة سعيداً وفخوراً .

وكان الحاج «مراد» قد قرر هذا من قبل ، بمجرد دخوله القرية .

– أعدك .

– اقسم !

– أقسم بالله .

– آه ...

وتنفس بذلك نفساً عميقاً . وكان بذلك يتنفس لفظ الجلالة «الله» لآخر مرة فى حياته . ومات .

نهض الحاج «مراد» وهمهم قائلاً :

– رحمك الله تعالى رحمة واسعة أيها المسافر إلى الجنة إن شاء الله .

ثم عاد فنظر إلى رجاله وقال لهم :

- هيا لنسرع ، إننا متوجهون إلى الشيخ «شامل» .

سأله أحد رجاله قائلاً :

- أللحرب .

ركب الحاج «مراد» حصانه فى وثبة واحدة .

- نعم للحرب ، ولكن ليس ضد «شامل» ، وإنما مع «شامل» .

منذ زمن طويل وكل الناس ينتظرون هذا الاتحاد ، وكانوا يدعون لتحققه. نورت الوجوه . وانطلقت صيحة تلهب الشفاه والحلوق «الله أكبر»!..

ترى هل يستطيع الرصاص فى انطلاقه أن يسبق هؤلاء الفرسان ؟ كأن لهم أجنحة يطيرون بها ، كانوا كالبرق يقدح توهجها طوال الطريق .

كان الحاج «مراد» بنفسه يخبر كل القرى الآوارية التى يمر بها بموقفه الجديد . وأمر بكتابة خطابات لكل رؤساء قبائل الآوار . وبعدها آن الأوان لتوجيه الكفاح إلى الوجهة الصحيحة .

إن الخصام بين المسلمين لايكون أكثر من ثلاثة أيام . والخصام بين الشيخ «شامل» والحاج «مراد» قد طال ليكمل ثمانى سنوات كاملة ، بعد أن غذاه الروس . وآن الأوان لوضع نهاية لذلك . ينبغى الآن بدء الكفاح المشترك ضد الكلاب الروس الذين أعملوا القتل فى المسلمين ، إخوانهم فى الدين .

استقبل المسلمون هذا الأمر بامتنان بالغ ، وكان الاستثناء الوحيد فى هذا هو «أحمد خان» الذى كان مؤيداً للروس أكثر من الروس أنفسهم . لكن الجميع أيد الحاج «مراد» .

إنه يستطيع الآن الذهاب لملاقاة «شامل» . ولكن لا ... لابد أولاً من توضيح موقفه لابد أن يذيع على الملأ أنه ترك الروس وأنه أعلن من نفسه عدواً لهم . لذلك خطط لمهاجمتهم . ونزل كالصاعقة على رأس الروس . واستولى على كتيبة الإمداد والتموين التى لديهم . ثم فر بنفس السرعة مسجلاً بذلك ملحمة بطولية رائعة .

كان هذا الهجوم الصاعق كافياً لكى يغرق قيادة أركان الحرب الروسية فى التشاؤم واليأس .

لجأ الجنرالات الروس ومن قبلهم نفس القيصر «نيقولا» إلى مختلف أساليب الدناءة ، والخبث بشكل لايتصوره عقل من أجل بث الفرقة بين الحاج «مراد» وبين الشيخ «شامل» منذ سنوات طوال أصابهم الذعر من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم عندما رأوا الخوف الذى سكبوا فى سبيله العرق البارد بكل ما استطاعوه من قوة وتفكير ، قد تحقق رغم كل شىء . تولى القيصر نفسه المسألة ، فأرسل شفرة سريعة جداً للقيادة العامة للجيوش الروسية فى القوقاز ومقرها «تفليس» وكان الأمر الذى أصدره القيصر فى شفرته هذه أن تمنع القيادة الروسية هناك اتحاد الشيخ «شامل» والحاج «مراد» بأى ثمن كان وبأى شكل كان حتى لو احتاج الأمر إلى القبض على الحاج «مراد» .

وردت فى الشفرة عبارة خطيرة «ميتاً أو حياً» . وأبلغت القيادة العامة هذا الموقف إلى «خون زاه» باتخاذ كل الوسائل ، والقيام بكل التضحيات للقبض على الحاج «مراد» ونفيه إلى سيبريا .

قال الجنرال «فورنتزوف» .

– إصدار الأمر ، سهل ، لكنهم لو كانوا يعرفون الحاج «مراد» قدر معرفتى به لأدركوا أنه شخص يستحيل القبض عليه ، فالحاج «مراد» يعرف

ششنستان وداغستان وآوارستان مثلما يعرف قبضة يده ولا يمكن الإمساك به إلا بالحيلة ، وليس بالقوة .

أبهذه الكلمات استطاع أن يسكت هؤلاء الذين ينادون بالقوة وسيلة للقبض على الحاج «مراد» ، ودخل بعد ذلك غرفته ، وفكر طويلاً . ثم فتح فى ساعة قريبة من الصباح باب غرفته لينادى على «ياوره» .

– أمرك ياسيدى الجنرال .

كان الغضب مستولياً على الجنرال «فورنتزوف» بسبب الأرق .

ركز نظرات عينيه المحمرتين على ياوره» ، وقال له :

– لقد وجدت الحل .هاتوا لى – وفوراً – «أحمد خان» ! .

– أمرك ياسيدى الجنرال .

وخرج «الياور» . واختلى الجنرال بأفكاره الشيطانية مرة أخرى لقد أمضى ليلته فى أرق ، لكنه غير مستنفد القوى . ولما كانت فكرته قد أعجبته فقد كان مستريحاً ، نشيطاً .

كان «أحمد خان» حاكماً آوارياً منحطاً يرأس شبكة الخيانة ويرى دوماً أن الحاج «مراد» منافس له . كان يجد نفسه أسيراً لنيران حقد متوهج لاينطفىء .

لم يفكر هذا الرجل حتى ولو مرة واحدة بأن مكانه الطبيعى بجوار «شامل» فى معركة «أهولكو» التى سجلت فى تاريخ داغستان ملحمة بطولية رائعة . ولكنه لم يبد أى تفهم بسيط يدفعه حتى إلى الوقوف حتى على الحياد . وكان قد أدى عملاً دنيئاً من قبل ألا وهو أخذه مجموعة من رجال متوحشين يبلغون الثلاثة آلاف عداً ليطعنوا «شاملاً» من الخلف . كان قفطاناً مفصلاً على مصلحة الروس . ذلك لأنهم لو بحثوا فى القوقاز

وقلبوها من كل نواحيها ، لن يجدوا شخصاً واحداً مثله ينفذ الخيانة ، مثله ومثل شبكته .

أحضروا «أحمد خان» فوراً بناء على أمر «فورنتزوف» وأدخلوه لمقابلة الجنرال الروسى .

كانت الخطة فى غاية البساطة لكنها دنيئة :

الحاج «مراد» وقد راجع كل الناس ومن ضمنهم «أحمد خان» ليطلب منه الاتحاد فى مواجهة الروس . صحيح أن «أحمد خان» قد رفض هذا الطلب ، ولكن ماذا لو كتب للحاج «مراد» خطاباً يقول له فيه إنه قد فهم خطأه وأنه يريد أن يلتقى به ليبحث معه مسألة توحيد القوى ضد الروس . وسيقبل الحاج «مراد» هذا الطلب .

إن هذا الرجل - الحاج «مراد» - الذى يتحول فى الحروب إلى نمر متوحش يفتح قلبه بصفاء بالغ لكل من يمد له يد الصداقة ويثق الجنرال الروسى «فورنتزوف» مائة فى المائة بأن الحاج «مراد» لن يفطن إلى هذه الخديعة .

كان الحاج «مراد» فى غاية السرور عندما وصله الخطاب الذى يقول فيه «أحمد خان» إنه تراجع عن المضى فى خطته وأنه يريد بالتالى التباحث معه. ولم يفكر لحظة فى أن هذه مكيدة للإيقاع به . لم يكن فى قلبه المملوء بالشجاعة والبطولة مكان لسوء الظن . كان يؤول كل شىء بنية حسنة ، ولم يكن يستطيع أن يضع أى احتمال بأن يكون الناس دساسين كذابين رغم أنه شاهد ذلك عدة مرات .

لبى الدعوة وذهب فى صحبة عشرين فارساً من صفوة فرسانه . ووصل به الأمر أنه لم يكن يفكر فى أخذهم معه لكن إخوانه ضغطوا عليه حتى رضى . ولم يعارضهم كثيراً .

بدأ «أحمد خان» ينفذ خطته المنفرة ، استقبل الحاج «مراد» استقبالاً فخماً ودعاه إلى منزله وأجلسه فى صدر المجلس وبدأ كلامه قائلاً :

«إن قدماً لنا لفى الآخرة . خضعت لمشاعرى الشخصية فرفضت طلبك . لكنى قضيت ليلتى أرقاً لم يداعب النوم أجفانى . وأرهق ضميرى . كنت أسمع صوتاً متوالياً يقول لى «عد إلى أصلك ، عد إلى أصلك» وفى هذا وجدت راحتى» .

نسى الحاج «مراد» من فرط سعادته كل ما كان سيقوله . كان يردد كلمة .

– إنه لصديق !.. إنه لصديق.

وفجأة ظهر ثلاثون فارساً روسياً تقريباً كانوا مختبئين خلف الأبواب ، ملأوا الغرفة ، تحول الحب الذى فى النظرات إلى دهشة ثم إلى اشمئزاز ونفور ، وانطلق كالبرق من مكانه وسحب فى نفس اللحظة مسدسيه . وصاح قائلاً :

– سفلة أوغاد .

انتهى الرصاص من مسدسيه فاستل سيفه . وراح يصول ويجول فوق رقاب الروس كأنه ماكينة موت يحصد أرواحهم .

وفكر لحظة فى استدعاء حراسه لكن أصوات السلاح المنعكس من الخارج شرح له كل شىء ، فتراجع عن ذلك . لقد وضعت شبكة الخيانة بإحكام . ورغم هذا لم يتردد لحظة فى استمرار معركة الحياة أو الموت بمفرده أمام ثلاثين شخصاً . كان يزأر كالأسد الجريح وينطلق بغيظ :

– لا تقتربوا يا سلالة الكلاب .

ولكن ليس من السهل تحدي مجموعة ضخمة بهذا القدر من الناس كان يعلم أنه إما مقبوض عليه أو مقتول . لكنه مع ذلك كان يحارب دون أن يفقد شيئاً قط من شجاعته .

- استسلم يا حاج «مراد» ! .

فبصق فى اتجاه الرائد الروسى .

- ولماذا لاتخرج أنت لملاقاتى ، وللحرب معى ؟

لم يجد الرائد الروسى كلمة يرد بها عليه . فسكت .

لم يكن «لأحمد خان» أثر فى المكان . انسل من المكان خوفاً من أن يجد الحاج «مراد» فرصة فيقتله فيذهب إلى نار جهنم ، واختبأ فى غرفة من الغرف . ومع ذلك فقد كان يسمع فى أذنيه صوت الحاج «مراد» الجهورى الممتلىء قوة وبطولة :

- أيتها الفئران القذرة ، ابتعدوا ! .

انصب عرقه البارد عندما خطر على باله أنهم لن يستطيعوا القبض على الحاج «مراد» . إذن لابد من القبض عليه أو قتله .

وعندما صمتت الأصوات خرج مذعوراً إلى الممر ، وسأل أول جندى روسى ظهر أمامه .

- ماذا حدث ؟

- مات منا عشرة ، قتلهم الحاج «مراد» .

- وهل مات ! .

- لا ، لكنهم قبضوا عليه .

دعك «أحمد خان» يديه .

- الأسر بالنسبة للحاج «مراد» أسوأ ألف مرة من الموت ، وسيموت هكذا موتاً بطيئاً .

ومع ذلك لم يجسر على الوصول إلى الفرقة ، وإنما نظر من فتحة الباب، ورأى نتيجة جرمه . الحاج «مراد» وقد أصبح منهوكاً من شدة التعب يرقد فى جانب من الغرفة مربوط اليدين والذراعين . وفوق رأسه عشرون بندقية عليها السناكى (السلاح الأبيض) والجنود يقفون على أهبة الاستعداد للطعن .

ولم يسـ[illegible] الرجل السيطرة على نفسه بأن قال :

– إن هـ[illegible] يخافون حتى من شبح الرجل .

وحدة من الجنود الروس تبلغ الخمسين فرداً تتقدم وهى تترك آثار أقدامها القذرة فوق الجليد الجديد . يحمل الخمسون بنادقهم فى أيديهم . وإصبع السبابة فى كل منهم فوق الزناد . لاتفارق الأعين ولو للحظة واحدة الرجل المربوط إلى عجلة مدفع .

نعم .. هناك رجل ربطوه ربطاً بعجلة عربة المدفع يدور معه دورة العجلة ويذكر وجهه الجامد ، بقطعة صخر جرانيتية . وفى جبهته تجاعيد عميقة . ومن الخطأ على أية حال رؤية هذه التجاعيد باعتبارها خطوطاً تدل على الاضطراب . لا . إنه صقر البرارى إنه الحاج «مراد» البطل ابن آوارستان وليس فى وجهه أدنى علامة من علامات الاضطرابات ويمكن التفكير فى هذه التجعيدات على اعتبار أنها قليل من الدهشة والاستخفاف . ربما كان مندهشاً لأن هؤلاء الأشخاص بل وكل روسيا يمكن أن تنزل إلى هذا الدرك الأسفل من الأخلاق والوحشية .

لم يستوعب عقله هذه المسألة بعد . إنهم يخافون كل هذا الخوف من رجل محكم وثاقه إلى عجلة مدفع . وخمسون رجلاً لايكتفون بوضع أصابعهم على زناد بنادقهم الخمسين بل ويسمرون أعينهم على ذلك الرجل . قال العريف «ميشال» :

– والحق يقال ، مالى ولرجل شجاع مثل هذا الرجل !؟. كاد أن يودى بحياة ثلاثين شخصاً بمفرده .

– هل لاحظت عينيه وكيف تبرقان ؟.

– أعين الداغستانيين هكذا دوماً ، تبرق وتشع .

– الشيطان يقول لى : أليس لى أن أفقأ عينيه بضربة سونكى .

أمسك صديق العريف ذراعه خوفاً من أن يقوم بحركة مجنونة مثل التى قالها :

– احترس . لأنهم بهذا يعدمونك رمياً بالرصاص على أقل تقدير .

كان الجندى يبدو مغتاظاً جداً .

– إذن أعمل شيئاً آخر ، إذا عملته ينتهى كل شىء .

اقتربت العجلة المربوط فيها الحاج «مراد» . لم يكن خائفاً من أن الملازم فى المقدمة . قام بحركة دنيئة قذرة . تبول الجندى الروسى على الحاج «مراد» . ثم ضحك وقال :

– هاها ! انظروا إليه الآن .

الحاج «مراد» ينظر إلى الجندى دون أن تغمض عيناه . وكلما دارت العجلة ينقلب رأساً على عقب ، وأحياناً يعتدل . وأحياناً يرتطم بأحذية الجنود ، وأحياناً ينظر فى أعينهم .

لم يتحمل الجندى . تراجع إلى الخلف وتجمدت القهقهة بين شفتيه . كأن نظرات الحاج «مراد» التى وجهها إليه تحولت إلى رصاصة تستقر فى قلبه .

وبعد لأى استجمع نفسه وهز يده فى الهواء وقال :

– أف من هذا .. لماذا تنظر إلىّ هكذا كالمجنون ؟ .

واستمر الحاج «مراد» فى توجيه نظراته دوماً إلى هذا الجندى . وبإصرار عميق وكأنه يريد أن يحفر وجهه فى مخه .

– قلت لك لا تنظر إلىّ .

صار الرجل كالمجنون ورفع السونكى الذى بالبندقية التى معه .

– لا تنظر إلىّ يا ولد !

قام العريف «ميشال» بالإمساك بالرجل وسحبه .

- اهدأ يا هذا ، ماذا يحدث لك ؟

- يجب ألا ينظر إلىّ .

- فعلتك سيئة . هل تريد أن تشنق ؟ إن القيصر يهتم بهذا الرجل . فاعلم هذا .

أفاق الجندى خوفاً من الشنق . ولم يستطع الاقتراب منه مرة أخرى حتى انتهى السفر . كان فى سيره إما أن يقف فى المؤخرة ، أو يتقدم إلى الأمام .

وأخيراً ، وبعد سبعة أيام حلوا الصقر الآوارى من العجلة . وسقط منها لكن الطريق لم ينته بعد . وفى الرسالة التى وصلت إلى قائد الوحدة قالوا فيها إن الحاج «مراد» مطلوب إحضاره إلى «دميرخان شورى» مقر القيادة الروسية.

ودون أن تتاح له فرصة الاستراحة بدأ السفر . وفى هذا السفر أيضاً ربطوه ، ربطوا يديه وذراعيه .

على الجبال أن تفسح الطريق .

هبت عاصفة جليدية مدهشة ، وكان ذلك قبيل المغرب . ولم تكتف الرياح الشديدة بإبعاد المطر الجليدى هذا وإنما كانت تأخذ قطع الجليد التى تأخذها من الأرض قطعة قطعة لتطلقه فى وجوه الحراس .

اكفهرت السماء . وكأنها كانت تعلن أنها لن تقف موقف المتفرج مدة طويلة على هذا الأذى الوحشى الذى يمارس ضد عبد من عباد الله . ولأن أحد الجنود كان يفكر هكذا فقد همهم قائلاً :

- إننا لا نفعل صواباً .

لحق بصاحبه ولمس دبشك «مؤخرة» بندقيته . كان الدبشك كالجليد .

– يا «بينكا» فيم تفكر ؟.. إن هذه العاصفة تتحدى حياتنا .

حرك «بينكا» شفتيه بصعوبة .

– الأمر ، أمر .

– حسناً ، ولكنّا سنتجمد . بالإضافة إلى أننا نسير فوق العاصفة . ليس هذا تفكيراً جيداً .

– ألا تذهب وتحكى هذا لسيادة الرائد .

– إذا كنت سأذهب إليه فلماذا جئت إليك ؟

أسلوبك فى الكلام لطيف . هيا اذهب إليه نيابة عنا وكلمه ؟

– لا تتعب نفسك يا فهيم ، ليس فى نيتى شىء من هذا ، أنا جندى منذ مدة طويلة ، مدة تجعلنى أعلم جيداً أن هذا التصرف يعتبر فى العسكرية تمرداً .

– يعنى ..

– اذهب أنت .

قدر «بينكا» الموقف . ومن المحقق أنه لن يذهب إلى الرائد ليحدثه .

– ألم تكن أنت الذى تعبر بالنيابة عنا عما نريد ؟ فماذا تفعل الآن ؟ ولو تمردنا ماذا يحدث ؟ فى هذا الجبل حيث لايطير طير ولا تعبره قافلة . إنه مكان منقطع عن كل حياة .

قال «بينكا» :

– جرب .

فتح خطواته . لم يكن يحب المشاكل .

إنها البركة فقد وجد إمكان الاشتراك فى هذه القافلة وإلا فإن مسألة الحاج «مراد» منتهية . و«شامل» سيكون فى منتهى الامتنان . ترى هل ستحين له الفرصة لتخليص صقر الآوار من يد المفرزة العسكرية

الروسية ؟

كان «بينكا» يعمل جاسوساً منذ سنة كاملة عند «شامل» . ورغم هذا فإن أحداً من زملائه لم يفطن لهذا . كان معروفاً بأنه ذكى . كان قائده الملازم يقول له :

– إنك رجل ذكى يا «بينكا» ... .

اعتراه الضيق ، عندما تذكر قائده الملازم . قضى المسكين نحبه برصاصة أطلقها عليه ششنى عندما كان متوجهاً لمعركة «أهولكو» كان المسكين مولعاً بحسن هندامه وأناقته .

حانت منه التفاتة إلى الحاج «مراد» الذى كان على بعد خمس خطوات فى الأمام ، وربما أقل . ذراعاه مربوطتان لكنه كان يسير أسرع من أى روسى . والحق أنه كان رجلاً مثل الجبل . ولم تصدر منه كلمة تدل على تعبه.

أخذ الجو يظلم . رأى أن الرائد قد هدأ من المسير ، وأنه ينظر بانتباه ودقة ، ثم يتوقف . وبإشارة من يده استدعى «بينكا» ، فجرى فى حدود إمكانه .

– تفضل يا سيدى الرائد .

– أنت جندى قديم يا «بينكا» . وتفهم جيداً . الرياح تقابلنا فى وجوهنا . وهذا شىء سيىء جداً . السير فى هذا الجو قلة عقل وسوء تفكير . ولكن ما العمل ومعنا أمر حاسم . وعلىّ أن أوصل هذا الرجل فوراً إلى المكان المطلوب . ثم أستغرق وقتها فى الراحة وأنام .

– أما أنا فسأنام عدة ساعات متواصلة يا سيدى المقدم .

– اسكت أيها الجندى ، من سألك رأيك ؟

تحير «بينكا» فى تكبر هذا الرجل . وقال :

– تمام يا سيدى المقدم .

– ياعبيط !.. أنا رائد فقط . ولا تردد كلمة مقدم هذه .

– لقد هضموا حقك يا سيدى . كان يجب أن تكون مقدماً .

كان «بينكا» يعمل على تقفيص الرجل بأسلوبه الخاص . حك الرائد ذقنه وقال له :

– أنت على حق من الأرض إلى السماء . كان لابد أن أكون مقدماً .

– كان لابد أن تكون الآن على هذه الدرجة .لاشك إطلاقاً فى هذا .

لمعت عيناه وقال :

– ولكن كيف ؟

– هل نقل الحاج «مراد» شيئاً بسيطاً يا سيدى ؟

– بالطبع ليس شيئاً بسيطاً .

– إذا داومنا السير ضد الرياح فالنتيجة أن نذهب ولكن إلى العالم الآخر .

– أيتحدث أحد عن الموت فى هذا الجو ؟ ألا تسكت .

– أسكت يا سيدى الرائد . لقد حل الأمر نفسه . لأن الجليد أصاب فمى. وبعد قليل لن يستطيع أحد منا الكلام .

التفت الرائد خائفاً . ثم حول نظراته على الحاج «مراد» .

– من أين بعثوا لى بهذه المصيبة ؟ آه ليتنى أستطيع أن أسلمه .

التفت إلى «بينكا» وقال :

– هل يخطر على بالك الآن شىء يا «بينكا» ؟ إنى أثق بك .

– يجب أن نأخذ الرياح خلفنا .

– يعنى هل نعود .

– ليس بالضبط . على اليمين قليلاً مثلاً ، ستنتهى نصف الأزمة . وهذا سيكفينا .

– لايبدو فى الطرق الأيمن شىء يشبه الطريق . كل مكان مغطى بالجليد. وقعنا فى مطب قذر . قهرهم الله .

– إنى أعرف المكان هنا . نستطيع الذهاب إلى قرية «بوتسرا» قهرهم الله ! لكن الطريق سيطول قليلاً . السير على كل حال أفضل من الموت .

سأله الرائد بأمل :

– كل مكان مغطى بالجليد . فهل تستطيع الخروج إلى الطريق .

– ثق بى يا سيدى الرائد .

– أنا أثق بك . هيا لنرى أمامنا .

دفعه «بينكا» إلى مايريد . مضى أمامه وقال له :

– هيا من هذا الجانب .

نظر الجنود إلى الرائد . وقال الرائد :

– اتبعوا «بينكا» . إنه يعرف طريقاً مأموناً .

وهكذا غيرت القافلة مسيرها . وانحرفت إلى الطريق المؤدى إلى قرية «بوتسرا» مازال الرائد مضطرباً .

– هل تستطيع الوصول إلى القرية قبل أن يظلم الجو تماماً ، يا «بينكا» ؟.

قال «بينكا» بلا مبالاة :

– يجب ألا يكون بك أى قلق يا سيدى الرائد . فى مقدرة «بينكا» أن يدلك على أى طريق تريد .

– نعم ما فعلت ، سأرقيك إلى رتبة العريف بمجرد وصولنا . سآمر بوضع شريطين أحمرين على ذراعيك . وربما ينعمون عليك بميدالية ، من يدرى ؟

ضحك «بينكا» :

– إن كل ما أرغب فيه ، هو ، رؤيتك مقدماً ، يا سيدى .

كان الرائد يفهم ضمناً أنه يتملقه ومع ذلك أراد تصديقه . لقد أعجب بهذا الجندى ، فهو مختلف عن زملائه إن ثغره دائم الابتسام .

قال له فجأة:

– اذهب إلى جانب المتهم . راقبه جيداً .

ثم التفت إلى الخلف وصاح :

– ليأت اثنان إلى الأمام !

وسريعاً جاء شخصان من الخلف .

ستذهبان من الأمام إلى مكان «بينكا» . وانتبهوا إلى المكان الذى تطأه أقدامكما .

سأله «بينكا» حتى يخفى امتنانه :

– كنت أعرف الطريق .

– تعرفه لنا من الخلف ، والمسألة تنتهى هكذا . اذهب إلى جوار المتهم وضع إصبعك على الزناد .

رسم «بينكا» على وجهه علامة عدم الامتنان بكامل المعنى . وانتظر اللحاق بالحاج «مراد» . والواقع أنه كاد يطير لذلك فرحاً .

سار حوالى عشر دقائق بجانب الحاج «مراد» . لا هو يتحدث بشىء ولا «بينكا» يتكلم . ويتقدمون .

لم يكن الحاج «مراد» يستطيع أن ينسى الإهانات التى وجهها الروس إليه ولا سيما تلك الحادثة التى تبول فيها عسكرى روسى عليه ، لايمكن أن يعفو أو يسامح فى هذا، وإذا عاش فسيجبر جميع الروس على دفع حساب هذه الإهانة . سينزل على رؤوسهم مثل سيف الانتقام .

كان ينبغى أولاً التخلص من هذا الموقف . لابد من التخلص منه . إخوانه يحتاجونه . وهو عطشان إلى حرية القوقاز . يجب أن تحصل هذه البلاد على حريتها بأى ثمن . هذه البلاد التى يدب فيها الضباع والقردة . ينبغى أن يدير هذه البلاد أبناؤها ، يجب أن يتطهر صدرها من وقع الأقدام القذرة .يجب أن تكون هذه البلاد مكاناً يسجد المسلمون فيه ويضعون هاماتهم على أرضها .

- يا حاج «مراد» .

توقف عن تفكيره لينظر بدهشة إلى الجندى الذى بجواره .

- أريد إنقاذك . أنا جاسوس من عند «شامل» .

إن تصديق هذا صعب . ولن يخسر شيئاً بتصديقه . الرجل يتكلم التركية جيداً . وفتح باباً للأمل . وليس هناك ضرر من فتحه .

همهم قائلاً :

- انقذنى .

بدا الحاج «مراد» وهو الذى لم يتوسل لأحد قط فى حياته حتى الآن ، بدا وهو فى هذا الموقف ، وكأنه يصدر أمراً .

تأثر «بينكا» ، وقال :

- فى الواقع أنى لا أفكر فى شىء غير هذا . بعد قليل سندخل منطقة شديدة الانحدار . سأقول لهم أن عبور المنطقة فى الظلام مستحيل وسأقنعهم أن يبيتوا فى مغارة أعرفها . وسأكون أنا الحارس الليلى . وأثناء ذلك نقوم بعمل شىء .

ورغم أن الرائد لم يكن يسمع مايقال إلا أنه لم يكن راضياً عن الهمس ، فصاح قائلاً :

- ماذا هناك يا «بينكا» ؟

أسرع «بينكا» بالإجابة سريعاً بدرجة تذهل :

- لاشيء يا سيدى الرائد ، أحكى له عما فعلناه بالشيخ «شامل» ، حتى يضيق صدره .

وكانت هذه الإجابة كافية لإدخال السرور على نفس الرائد . فقال له :

- إذن استمر ، قل لهذا السافل من نحن .

ولم يفهم الحاج «مراد» كلمة واحدة من هذا الحديث الروسى . واكتفى بالنظر إلى لاشيء .

- ماذا تقول :

- خدعت الرجل ، حتى لايشتبه فى بسهولة . لاتقلق .

وعندما وجد الجنديين اللذين فى الأمام قد انحرفا عن الطريق ، نبههما قائلاً :

- أيها المتقدمان ! إلى اليسار قليلاً . جيد الآن ، استمروا ...

وبعد نصف ساعة وصلوا إلى منطقة صخرية . سلسلة جبال ضخمة ترتفع إلى حد شاهق . لم يكن يبدو منها طريق لتعبر فيه قدم واحدة . قال الرائد :

- يا «بينكا» ، يبدو أنك أخطأت ، فليس هنا إلا أماكن صخرية . لا أرى شيئاً يشبه الطريق .

- هنا طريق لكن ما ظنناه عاصفة قد استمر طويلاً .. أعرف أن هناك مغارة . وليس من الممكن اجتياز هذه المنطقة الصخرية فى الظلام .

- تقول أنه لابد أن نبيت هنا ؟

- وهل هناك وسيلة أخرى يا سيدى الرائد .

– ضرب الرائد الأرض بقدمه من فرط حدته فدفن ساقه فى الثلج حتى ركبته ، وخلعها بصعوبة . صاح بقوة قائلاً :

– عليك بلاء الله . دعك من توجيه الأسئلة إلىّ وأجب أنت على أسئلتى . هل تبحث عن بلاء ليصيبك ؟

فضل «بينكا» السكوت . وانتظر حتى يذهب غضب الرجل .

– ألا تجيب علىّ .

فتح يديه قائلاً :

– احترت فيما أقوله يا سيدى الرائد . الظلام قد حل بنا ، والعاصفة مستمرة . ويخيل إلىّ أن أعقل عمل نعمله هو الاحتماء بالمغارة .

– اختلط عليك الطريق . أليس كذلك ؟

هز «بينكا» رأسه قائلاً :

– ليس هذا موضوع الكلام ، فلو كنت سأضل الطريق لما عرفت المغارة .

قال الرائد :

– كلامك صحيح . وماذا فى أيدينا أن نفعله . نمضى الليل فى المغارة . نكسر أعواد الأشجار . ونشعل النار لنتدفأ .

– دع لى هذا العمل !

– يووو ... ستتولى أنت الحراسة عقاباً لك . وإذا فر المتهم منك ، أقتلك على الفور .

ضحك «بينكا» غصباً عنه فقال الرائد :

– ما الذى يضحكك بهذه البلاهة ؟

– إنى واثق أن الهروب فى هذا الجو لن يخطر على بال أحد ، حتى الحاج «مراد» .

– على كل حال ، هل المغارة بعيدة عن هنا ؟

نظر «بينكا» حواليه :

– يبدو أننا وصلنا إليها . إذا جاوزنا شجرة الصفصاف الضخمة تلك .

لم يخطىء «بينكا» ، فبمجرد تجاوزهم لشجرة الصفصاف وجدوا مغارة كبيرة . كان مدخلها مغطى نصفه بالثلوج ، ولكن لم يكن داخلها رطباً .. دفعوا إليها الحاج «مراد» أولاً . ثم دخل أفراد المفرزة .

واسعة جداً ، استوعبتهم كلهم .

قال الرائد :

– شىء جميل ، عملت عملاً عاقلاً يا «بينكا» .

– سلمت يا سيدى الرائد . آه لو وجدنا قليلاً من العشب هنا وهناك سيعتدل مزاجنا .

قال الرائد بخشونة :

– مزاجنا ؟ لقد أتينا هنا للانتظار حتى تهدأ العاصفة وليس للبحث عن الراحة والمزاج .

صاح أحد الجنود قائلاً :

– ماذا تفيد الأعشاب فى هذه القيامة .

التفت إليه الرائد وقال :

– هناك شجرة صفصاف ضخمة فى الخارج أيها السكير . معكم سيوف . ليبق معى هنا أربعة أشخاص . والباقى يقطع بعض فروع الشجرة هيا .

كان الجميع يفضلون البقاء فى المغارة . وكان هذا الأمر كافياً لكى يكشروا عن وجوههم . خرجوا وهم يهمهمون .

كان عواء الذئاب يملأ المغارة . كأنه صراخ مؤلم . واضح أن الذئاب لم تكن فى حالة طيبة . وكان «بينكا» قد وجد الفرصة منذ سنوات طويلة لمعرفة

كل شيء حتى ذئاب القوقاز . وكيف تعوى وهى مسرورة وكيف تصرخ وهى متألمة ويستطيع أن يفرق بين هذا وذاك . همهم قائلاً :

– بطونهم جائعة . سينزلون هذه الليلة إلى القرية . هذه هى الحركة الوحيدة التى تقوم بها الذئاب عندما لاتجد لها طعاماً فى الجبال . تنزل إلى الناس وهى تحسب للخطر حسابه .

وكان من العقل أن تعمل حساب الموت لكى تشبع بطونها . لا عليك منها . هل الناس يفترقون عن هذه الحيوانات ؟ الناس أيضاً يفعلون ما لا يفعل عندما يتعرضون للجوع .

كان يقوم بالحراسة الليلة . وقد أخلد إلى الراحة . ذراعا الحاج «مراد» مربوطتان ، ليس هذا فحسب ، بل إنهم ربطوا قدميه أيضاً . هل هو نائم ، أم يتصنع النوم ؟ لم يستطع فهم هذا .

ربما كان من الممكن قراءة ما فى داخله رغم أن عينيه مفتوحتان . كان من الممكن أن ينعكس احتراق قلبه على نظراته .

لم يكن يدور فى خلده شيء غير الفرار . وعده الجندى بذلك ، لكنه لم يكن واثقاً من صدقه . ربما كان يريد أن يعذبه بوعده هذا . هل هناك إمكان لتصديق الروسى إذا وعد بعد ما عرفه منهم .

كان لابد من هربه سواء أكان الجندى سيساعده أم لا . لم يكن يدرى كيف وثق به الآن . إن الموت أهون ألف مرة من أن يكون لعبة فى يد الروس . لم يكن مهتماً بما يمكن أن يحدث له .

إذا أحبوا أن يدفنوه حياً فليفعلوا . سيتحمل كل ألوان التعذيب . لكنه لن يكون لعبة فى أيديهم . يكاد يجن عندما يفكر أنه فى وقت بدء نفعه لبلاده يقع أسيراً فى يد الأعداء .

وعندما أحس أن يداً تدور حول ذراعيه رفع جفني عينيه . يبدو أنه يطمئن على الوثاق . ولكن لا . فإن هناك حرشفة آلة حادة على الحبال .

همس صوت قائلاً :

– لا تتحرك .

وقف الحاج «مراد» صامتاً . لقد وفى الجندى بوعده بالفعل . كاد أن ينطلق نحو العاصفة فى الظلام . وعلى الله الباقى . ماذا لو سقط من الهوة إلى أسفل ، سيتدحرج ويموت أو ينقذ . لكن لن يكون أسيراً . كان هذا قراره الحاسم .

قال صوت «بينكا» :

– أنت حر الآن . هيا ..

نهض بلا صوت . وخرج وهو يقلد الحركات السريعة التى يقوم بها فهد يقترب من صيده . واتخذ «بينكا» نفس التدبير فانطلق خلفه . وخرجا سريعاً من المغارة .

قال «بينكا» :

– من هنا . العاصفة رهيبة . ولم يعد هناك شىء اسمه طريق ، حتى لو كان فماذا سنرى فى هذا الظلام .

لم يكن الحاج «مراد» مهتماً بشىء . قال :

– إنى أعرف هذا المكان ، سأسبقك .

– مستحيل لا أريد أن أكون قد قمت بإنقاذ ميت ، لو بقيت حياً ستصلح للعمل .

هذا الكلام لم يتعود الحاج «مراد» سماعه . وتبع الجندى دون أن يتفوه بكلمة .

العاصفة الثلجية مستمرة . قطع الثلج المتناثرة تجعل التنفس صعباً . سارا حوالى خمس دقائق ثم سمعا صوت سلاح من خلفهما . صوت يصيح قائلاً : «إلى السلاح !» وعرف «بينكا» من الصوت . فقال :

- عرف الرائد إننا هربنا ، هيا أسرع قليلاً !

ولكن ليس هناك إمكان للإسراع . إنهما يغرقان فى الثلج الطازج والأصوات تقترب أكثر فأكثر .

قال «بينكا» :

- حاول الإمساك بالصخور . لو انزلقنا فسنتحطم إرباً إرباً . والهوة هنا لاتقل عن خمس عشرة قامة طولاً .

الضوضاء التى بينهما تتكاثف ، وأصوات السلاح تطن مختلطة بالسلاح من المحقق أنهم يطلقون الرصاص بلا هدف . مرت بجوارهما عدة رصاصات أو ربما تصوروا هذا . وقد يكون صوت رياح قوية أشبه بأزيز طلقات الرصاص .

لاحظ «بينكا» أن المكان الذى تطأه قدماه ينزلق . أطلق صرخة غصباً عنه .

- ما أفظع هذا ؟

سأله الحاج «مراد» :

- ماذا حدث ؟

- من المؤكد أننا انحرفنا إلى طريق خطأ ، هذا المكان صخرى منحدر . إنى أتزحلق يا حاج «مراد» ، انتبه أنت وأنقذ نفسك .

إنه لم يستطع إكمال غير كلمته هذه ، لأن كرة ضخمة من الجليد جاءت وأخذته معها . وإذا بصرخة تمزق القلب تزأر وتموج :

- آآآه !

وينطفىء كلما ذهب . ثم يختفى كلية . ولكن الذين فى المفرزة قد سمعوا هذه الصرخة .

الرائد يصدر أمراً من بين أسنانه ويقول :

- إلى الصرخة .

إلى الأمام .

يقول جندى قد أعمل فكره :

لابد وأن يكونا قد ماتا منذ فترة .

كان الحاج «مراد» فى موقف حرج . خلفه جنود تنعدم الرحمة من قلوبهم وأمامه صخور لا تقدم له معبراً . أما عن يمينه فهوة سحيقة . والمكان الذى خرجت منه كرة الجليد الضخمة التى بلعت «بينكا» قد أصبح مسدوداً تماماً . هناك طريق واحد فقط . قد لايكون طريقاً للنجاة . ولكنه هو الوسيلة الوحيدة للتحرر من الأسر .

القفز من الهوة إلى أسفل .

سمع صوتاً يقول :

- انظر إلى هناك .

- شبح .

جاء أمر الرائد .

- أطلقوا الرصاص ..

لم يفكر الحاج «مراد» كثيراً . وإلا فمن الممكن أن يقتل شر قتلة برصاص الروس .

زأر قائلاً :

- الله !

وترك نفسه يسقط من الهوة إلى أسفل .

وفى لحظة لم يعد فى رأسه شىء اختلطت الأمور فى عقله ، وتاهت أفكاره . ولم يعد يسمع صوت رياح ولا ضوضاء البنادق .

وهل للدرويش بيت؟

كان المكان داخل المغارة دافئاً . جذع شجرة يحترق ، يتحدى البرد الشديد .

الحاج «قاسم» يجثو على ركبتيه فوق جلد الغنم الذى يفرشه داخل المغارة ، يسبح بمسبحته فتخرج أصوات التقاء حبات المسبحة الواحدة منها بالأخرى ، هنا من جانب ، ومن جانب آخر لا تسقط عيناه عن العباءة التى يعلقها مكان الباب .

وكأن هناك شيئاً ينتظره أصبح وكأنه يسمع أصواتاً مختلفة عن صفير الرياح والزئير الذى يصم الآذان الذى تحدثه العاصفة . وهذا يذكر بإطلاق البنادق وصياح الإنسان .

كان سمك الطبقة الثلجية أمام المغارة يبلغ أربعة أمتار . والثلج ينزل بشكل متواصل ولو استمر هذا الوضع حتى الصباح فستغطى الثلوج المغارة .

وفجأة رفع رأسه جيداً وأخذ يقيم ظهره بهدوء . ووصل إلى سمعه الحاد صوت غير صوت العاصفة . وقف واعتدل وسار نحو مخرج المغارة . وفتح طرفاً من العباءة التى علقها بدلاً من الباب على المغارة ونظر جيداً . رأى فجوة ليست طبيعية فى البياض السماوى سحب قطعة من الخشب محترقة . وخرج . واهتز فوق الفجوة . انتبه إلى وجود رجل فى الضوء الناتج . وارتسمت على شفتيه ابتسامة عجيبة . وحفر بيديه الثلج الذى حوله .

وأخرج الجسم الفاقد الوعى . وبقوة غير متوقعة - بسبب ضعف بنيته - أخذه فى حضنه وحمله إلى المغارة . وقال :

- يمحو الثلج بعد قليل ، آثار الأقدام .

نقله إلى جوار النار وانهمك فى دعك معصميه .

بدأ الرجل فى التنفس المنتظم المتوالى . وأخيراً أخذ فى فتح عينيه . وكان أول شىء لاحظه هو لحية الدرويش السوداء . ثم غرق فى عينيه اللامعتين .

قال له الدرويش :

- لتنم ، إن النوم مفيد لك . يعيش الإنسان دون أن يعرف مستقبله . وهدأ الغريب . اضطر لإلقاء نفسه دون أن يجد وقتاً للبحث عمن تحت الهوة.

جلس بجواره حوالى ساعة . وسجل فى دفتره شيئاً ما . وعندما رأى أن مريضه قد فتح عينيه ابتسم . قال له سائلاً :

- كيف حالك ؟

أجابه الرجل عن ذلك بسؤالين .

- أين أنا ، ومن أنت ؟

وضع الدرويش دفتره على ظهر حقيبته ..

أجابه الدرويش بقوله :

- أنت فى مغارة ، وبجوار رجل لايخطر السوء على قلبه . اسمى الحاج «قاسم» .

- وهل هذا بيتك ؟

- قلت لك إنى درويش . وهل يمكن أن يكون للدرويش بيت ؟ قبة السماء لحافى ، ووجه الأرض سريرى ، وكل مكان منزل ، وكل ناحية موقد .

قام الرجل يحركه من أجل شد رجله التى أصابها الخدر اكفهر وجه الرجل عندما أحس بالألم وكأن آلاف الأسهم قد أصابته . وقال :

- لعلها مكسورة .

سأله الحاج «قاسم» عندما كان يشمر بنطلون الضيف الذى أحضره دون دعوة مسبقة .

- لقد استضفت حتى الآن الكثير من الضيوف لكن هذه أولم مرة فى حياتى أرى ضيفاً مثلك يهبط علىّ من السماء . جئت من قمة هذه الهوة .

كانت ساقه مكسورة بالفعل . أنبأه بالحكم بعد أن كشف عليه بدقة طبيب .

- لابد أن أذهب بك إلى قرية قريبة .. الروس يبحثون عنك أليس كذلك ! وأنت الحاج «مراد» .

اصفر لون الرجل . وانسابت يده حسب التعود إلى وسطه ولكن منذ متى ومسدساته ليست فى وسطه . ارتج عليه الأمر .

- قد تكون مهتماً بكيفية معرفتى لك . رأيتك ذات مرة فى آوارستان .

ضغط الحاج «مراد» على أسنانه . وسأله قائلاً :

- أصديق أنت ؟

- وماذا يمكن أن أكون غير هذا . ولو انفض عنك كل الأصدقاء أظل أنا صديقك . لأنى صديق لكل من يصدق مع الله .

أضاء وجه الحاج «مراد» ، وساد نظراته الشعور بالامتنان ، وجلس .

- ارتكبت حتى الآن أخطاء عديدة ، انتابنى عبثاً إحساس بالحقد ولم أتصرف تصرفاً عقلياً . عملت مع الروس وأدرت ظهرى لإخوانى الأشقاء .

ضغط على قبضتيه .

- إنى أعرف ماذا أفعل بعد هذا . سأحارب ضد الروس بجوار «شامل» حتى آخر نقطة فى دمائى .

قال له الحاج «قاسم» :

- فعلت خيراً . لقد أمر الإمام - فور سماعه بنبأ القبض عليك - كل وحداته المتركزة فى هذه المنطقة بالإسراع فى إنقاذك . وتداخلت أنا فيهم ، لكن العاصفة هبت فجأة ، ففقدت الاتصال بوحدتى ولجأت إلى المغارة لقضاء الليل فيها .

لقد كان هنا راع محب للخير . فكر مسبقاً فى موقفنا هذا ، فأحضر الخشب لنوقده فى المغارة . والآن جاء الدور عليك أيها الصقر الآوارى ، أريد أن أسمع منك ما مر بك .

اعتدل الحاج «مراد» بشكل خفيف ، على معصميه ، ونظر نحو الدرويش.

- كلامك الذى حدثتنى به هذا لايصدقه عقل ، إن المجىء من داركو خلال أسبوع ، إلى هذه المنطقة ، أمر غير معقول! استعد لسماع ما مر بى من أحداث . أنا متعب ولكن سأفعل .

سأحكى لك وأنت تربط لى ساقى . ولكن هناك شىء أريد أن أعلمه . كم تبعد أول قرية من هنا عن مكانك هذا؟.

فكر الحاج «قاسم» قليلاً ، وأغمض عينيه وفتحهما . ثم أجاب بقوله :

- حوالى ساعة . وفى هذه القيامة من الثلج تأخذ أكثر . وأفضل شىء هو أن تترك الآن الحديث عما جرى لك لأنهم سيبدأون البحث عنك عندما يبزغ الشفق .

أشار إلى فروع الأشجار المكومة فى المغارة لإحراقها .

– سيسهل عملنا بفضل الخير الذى عمله الراعى الخير . أستطيع أن أوفق زحافة من هذه الأخشاب . إنى ماهر فى عمل هذه الأشياء . وآخذك إلى قرية من القرى المحيطة دافعاً إياك على الزحافة . علىّ أولاً أن أضع ضمادة على هذا المكان المكسور .

وبدأ العمل .

– انظرى يا «كاتينا» ، ماذا دار بخلدى .

– أصحيح يا «مسطروف» ، أصحيح أن لك عقلاً وتفكر به ؟

– استمعى بدلاً من أن تسخرى .

أطلقت الزوجة الأرملة «لفورونيكوف» الصياد قهقهة :

– إذن قل .

– لنقابل القيصر ، ولنقل له إننا اتفقنا على الزواج ولنطلب منه الإذن بذلك .

اتكأت المرأة نحو الأمام وقالت :

– أنا وأنت ، أصحيح ؟

ضحك الرجل ضحكة بلهاء محاولاً شد بطنه :

– ولم لا ؟

– إنك ترى الآن يا «مسطروف» كم أنا على حق عندما شككت فى عقلك قبل قليل .

– ولم ؟

– أنا سأصبح زوجتك !! يا للهول ، لا أفكر فى هذا .

– ألم أعجبك ؟

لمست «كاتينا» بطن الرجل ، وقالت :

– أنا واثقة من أنهم لو بحثوا فى روسيا كلها لن يجدوا بطناً أخرى مثل هذه البطن الهائلة . فلماذا لا تعجبنى .

– ليست كل المسألة بطنى .

– وماذا غيرها ؟

– إنى غنى .

– نعم ، هذا موضوع آخر . إذا كنت ستقترح الشراكة فى العمل ، فأنا آخذ الثلثين .

– أقترح عليك أن تكونى زوجتى .

أخذت المرأة شكل الجدية فجأة وقالت :

– مستحيل .

أخذ الرجل فى الغضب وقال :

– ولماذا ؟ أهناك مانع ؟

– ليس واحداً وإنما ألف .

– يأتى «بوشكين» فى المقدمة منها .

تلقى من المرأة جواباً مبهماً وقالت :

– ربما .

أدار «مسطروف» البدين رأسه إلى جهة أخرى . إن «بوشكين» هذا يعطل عليه ويعترض طريقه فى كل مكان . لو لم يكن قد ظهر قبل سنتين لكان هو المقرب الأول من القيصر ، والآن تريده «كاتينا» . القيصر أولاً ثم «كاتينا» .

ضغط على أسنانه من الغضب وقال :

– استولى هذا العبيط أيضا على النفوذ .

سألته المرأة وكانت الدهشة قد أصابتها .

– أبوشكين.

– نعم هذا الديوث الذى يسمونه «بوشكين» سأريه .

– أووه ، أنت تسب صديقى . إن «بوشكين» لمقرب من جلالة القيصر لو اجتمع معك مائة مثلك لن يكونوا إلا طنيناً .

ضغط «مسطروف» البدين على يده وقال :

– ليس القيصر كل شىء فى هذه الدنيا .

نهضت المرأة من مكانها ووقفت أمام الرجل تماماً ، وجعلت فى عينيها معنى مهدداً ، وقالت :

– أتحب أن يسمع القيصر هذا الكلام ؟

خاف «مسطروف» وقال :

– ولماذا يسمع ؟

أطلقت «كاتينا» قهقهة عالية وقالت :

– مرارتك ستنفجر .

ثم ضحكت حتى كاد الدمع يترقرق فى عينيها .

– ستنفجر مرارتك من اسم القيصر ولا تستطيع إمساك نفسك من الغمز عليه . كل الجبناء يفعلون مثلك .. مثلاً . الجنرال «فورنتزوف» . هل ما يقال ضد «شامل» قليل ؟ .. وكذلك «غراب» وكذلك «كلوجناف» .. كلهم بضاعة نفس السوق . وعندما يأتون هنا يكثرون الكلام عن بطولاتهم ويظهرون الإمام «شامل» بمظهر الخائف المهتز الشخصية . أما عندما يواجهونه فالأمر مختلف ! .. فالرصاص المنطلق خلفهم لا يلحقهم .

– ما معنى كل ذلك الآن يا «كاتينا» ؟ إنى أريد الزواج منك .

أولت ظهرها للرجل وقالت :

– وماذا تريد بعد ذلك ، ألا يكفى ما قلته ؟

– أوافق دون تردد .

– آه ، لو كان غنياً قدر غناك .

- ولكنه ليس كذلك .

حانت من المرأة التفاتة من عينيها إلى خارج النافذة فقالت :

- ما هذا ! من هذا الفارس الملثم ؟ يكاد يقضى على جواده .

ظن «مسطروف» أن المرأة تؤلف كلاماً لكى تغير الموضوع . فسحبها من ذراعها بشدة وقال :

- لم تجيبى علىّ .

- وأنت أيضاً لم تجب . سألتك عن كنية هذا الفارس الملثم .

نظر «مسطروف» . ترجل الفارس الآن . وكان هناك سائس للجواد يأخذه منه . هز كتفيه حتى غاب فى باب القصر ، بعد أن راقبه :

- لابد أن يكون حامل الأخبار .

- لماذا يغطى وجهه ؟

- لأنه من رجال أحمد خان ويغطى وجهه حتى لا يراه جواسيس «شامل» .

- أيعنى هذا أن هنا جواسيس «لشامل» ؟

هز الرجل يده .

- إن هذا نوع من التدبير . على كل حال أخرج أنا الآن . لابد من مقابلة الرجل .

انسحب بعد أن نظر إلى المرأة كأنه سيأكلها . مضى من الممر بخطوات عصبية . وعندما فتح باب الردهة التى يستقبل فيها الضيوف . وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرجل . ولم ينزع هذا قناعه بعد.

- تفضل يا سيد ، هل تريد شيئاً ؟

بحث الرجل ذو القناع فى حزامه . وأخرج كيساً جلدياً منه . ورفع نحو أنف «مسطروف» الخطاب المكتوب باسم القيصر . وبصوت يقارب نباح الكلاب قال :

- سأقابل القيصر .

ضحك «مسطروف» غصباً عنه . لو سمح لكل راغب فى مقابلة القيصر لما وجد الرجل وقتاً لحك رأسه . مد يده وقال :

- أعطنى الخطاب ، وسأقدمه لجلالته .

سحب الرجل يده بشدة وقال :

- سأسلمه لشخصه .

- إن جلالته الآن فى نوم قيلولته . إذا رغبت أن تنتظر فانتظر . هل يستقبلك أم لا يستقبلك ، هذا ما لا أدريه .

- علىّ أن أقابله الآن ، المسألة غاية فى الأهمية .

تحول صوت الرجل من شدة انفعاله إلى ما يشبه الغطيط ولم يهتم «مسطروف» .

- قلت لك إنه نائم . كما إنك تستطيع الكشف عن وجهك ، فأنت هنا فى أمان يا سيد .

- إن هذه مسألة خاصة بى . قم أنت بعملك . واخبر القيصر .

- مستحيل ، وصدقنى ، القيصر نائم .

- هل تعلم ماذا يحدث وهو نائم ؟ المذابح فى القوقاز . قتل «أحمد خان». قتله الحاج «مراد» . انحاز كل الآوار إلى الشيخ «شامل» . وبقينا حفنة من المعارضين ، ولا نستطيع الصمود ، الجيش الروسى فى حالة يرثى لها . كل مكان يداهم ويضعف . وإن جعلتنى أتأخر فى مقابلته فإنى أخاف أن يتحول الجيش إلى أنقاض . ولا تستطيع أنت أن تفر بجلدك .

أظهر التهديد تأثيره . لكن «مسطروف» لا يملك الصلاحية للدرجة التى يمكن أن يوقظ القيصر بها . إنه مجرد موظف للتشريفات والإخبار عن القادمين . ولابد له أن يوصل الموقف لبوشكين . امتعض وجهه ، وقال :

– حسناً . ولكن يمكنك أن تفكر من الآن فى حياتك إذا كنت ستزعج جلالة القيصر عبثاً وإذا لم تكن هناك أهمية لذلك بالقدر الذى تتحدث عنه . لأن القيصر ينفر من إزعاجه .

وابتعد عنه بخطوات غاضبة . ودخل غرفة «بوشكين» . كان «الياور» ممدداً على كنبة ، يقرأ كتاباً . رأى بطرف من عينه أن الذى دخل هو «مسطروف» . سأله دون أن يتحرك :

– ماذا هناك ؟

– جاء أحد حاملى الأخبار يا سيدى ، عنده أخبار مهمة ، ويريد لقاء القيصر .

– الآن ؟

– نعم .

قرأ عدة سطور من الكتاب .

– ألم تقل له إن القيصر نائم ؟

– قلت له ، لكنه عاند . يبدو أن الأمر مهم .

– ليس هناك أهم من نوم جلالة القيصر .

– عن جيوشنا فى القوقاز.

اعتدل «بوشكين» على رسغه .

– قبضوا على «شامل» .

تلعثم «مسطروف» البدين.

– يبدو يا سيدى أن العكس حصل . سيطر «شامل» على الموقف منذ أن اتحد مع الحاج «مراد» أتعب جنودنا . قتلوا «أحمد خان» .

قفز قفزاً وأحاط برقبة «مسطروف» .

– أيها الأحمق العبيط هل تعرف ما تقوله ؟

احمر وجه «مسطروف» بشدة ، أمسك نفسه بقوة حتى لا يكيل له لكمة في منتصف وجهه . ولو وجد الجرأة على هذا لفعل ، منذ وقت طويل . أنّ قائلا:

- أنا لا أقول هذا ، إنه هو الذى يقوله .

دفع «مسطروف» دفعاً واتجه نحو الباب.

أجابه «مسطروف» وهو فى حالة مسعورة من الغضب .

- على العين والرأس .

وفى لحظة خطط فى رأسه ربما خمسين خطة. وكلها حول إضعاف «بوشكين» . وفى آخرها لم يستطع اتخاذ قرار . أخذ حامل الأخبار المقنع وذهب به إلى «بوشكين».

قال له «بوشكين»:

- انزع هذا الذى فى وجهك . ليس هنا أحد يمكن أن يزعجك .

قال «مسطروف» متملقاً :

- قلت له ذلك أيضاً .

نظر الرجل إلى «مسطروف» .

- فليخرج هذا ثم ..

أشار «بوشكين» برأسه إشارة بمعنى «اخرج» . وترك «مسطروف» الحجرة بغمغمة لا يستطيع فهمها إلا هو .

استقر «بوشكين» على كنبة بشكل مرتاح . وركز عينيه المملوءتين بالتساؤل ، نحوالرجل ، وقال :

- نعم يا صديقى !

حاول انتزاع القناع . وعندما وضح وجهه أصاب الغثيان أمعاء «بوشكين» . لا يستطيع تذكر صورة أخرى قبيحة هكذا هذا الوجه الذى

شـوهـه جرح سيفين جمع فى داخله القسـوة والوحشة أبعد عنه عينيه .
قال له:

- تكلم ، فإنى أستمع إليك . تحدث أشياء سيئة فى مناطق القوقاز .

غمغم الرجل قائلاً:

- فى منتهى السوء . أعمالنا مقضى عليها بالفشل.

- تكلم !

- لا أستطيع أن أعرف كيف أبدأ . وفى الأصل لابد من أن أقابل جلالة القيصر . هكذا تلقيت الأمر . لكن يبدو أنه نائم .

أعلى كتفيه وأنزلهما.

- أستطيع أن أقول لك المسألة يا سيدى . إن سيادتك أقرب المقربين للقيصر .

صاح «بوشكين» قائلاً :

- لا تثرثر .

- إنى أحدثك . انتهى «أحمد خان» . انتقم منه الحاج «مراد» شر انتقام . مات «أحمد خان» . وانضم إخوانى إلى صفوف الحاج «مراد» وبقينا نحن حفنة قليلة .

- تلقينا أخباراً بأن «شامل» يسرح الجيش . كيف ؟ أليس صحيحاً .

- ليس صحيحاً . لقد فهمنا ذلك متأخراً . أذاع «شامل» هذا خصيصاً للخداع . كان يريد توجيه أكبر ضربة للروس بعد اتحاده مع الحاج «مراد». سرح مجموعة من المحاربين كبار السن . لكنه ملأ أماكنهم بالشباب . وشكل مجموعات من المغيرين ذوى الحركة الزئبقية . بدأ أولاً بعدة مرات من الهجوم المفزع . والحق يقال أنه يكاد يودى بعقولنا . يضرب مجموعة من الموالين «لاه ويردى» وبعد يومين يوجه قذائف مدافعه نحو قلعة « أون

صوقول» . وإذا بكل هذا ما هو إلا مفزعات فقط أما الهدف الأصيل فهو : تمير خان شورى المقر العام للجيوش الروسية .

- ياه !

- لو قاطعت كلامي، قد أنسى ما أقوله . مازلت متعباً من السفر وما رأيته جعلني في حالة من الدهشة .

أمره «بوشكين» بقوله :

- استمر في الكلام .

- قام الشيخ «أولوبك» وهو من أعتى مساعدي «شامل» بالهجوم على «زوبوط» و«آي سنقور» . وانطلق الحاج «شامل» بالهجوم على «آهالجي سيووزه» عندما كان الحاج «مراد» يهرب من أيدي جنودكم كسرت ساقه اليسرى من عند عظمة الركبة . رجله قصيرة قليلاً . الحاج «مراد» يعرج عرجاً خفيفاً ، ومع ذلك فإنه يساوي مائة جندي سليم . وأصبح مهاجماً أكثر شراسة . يحرق المكان الذي يهاجمه .

الجنرالات الروس يعترفون بأننا نفقد وعينا جيداً بسبب هذه الحركات الهجومية. الجنرال «فرايتاج» مندهش ويقول : «لم أر نظام هجوم هكذا حتى في الجيش الألماني الضارب» .

- لا تزد ..

- تمام .. يبدو أنك تريد مني أن أشرح باختصار . لقد أثخن فينا الشيخ «شامل» وفي القوات الروسية وفينا نحن خاصة ويسمينا «الخونة» التقسيم ثم ابتلعنا لقمة لقمة . هذا كل ما في الأمر .

هرش «بوشكين» بضيق .

- هل هذا كل شيء ؟

- ألم تأمرني بالاختصار في الكلام .

– ولكن ليس بهذا القدر من الاختصار .

– أمركم . سأطيل .

كان «بوشكين» يعانى صعوبة فى فهم الداغستانيين . الموافقين له والمخالفين . كشر عن وجهه وقال :

– أطل !

– يلعب «شامل» ونوابه ومساعدوه بنا كأننا كرة من الجلد فى أيديهم . خرجوا من أماكن لا يتوقع خروجهم منها أحد وينقضون . سرح «شامل» الجيش فتوقعنا أنه سيختفى فى سفح جبل فإذا به ينزل كالصاعقة فوق رؤوسنا بشكل مدهش لا يمكن وصفه . تصدى له الجنرال «فرايتاج» بكل قواته . ولحق «شامل» أمام قلعة «ونازابى» وفى نفس اللحظة قامت مفرزة قوية ثمانمائة ششنى تحت إمرة الشيخ «أولوبك» وأوقعتها فى شرك .

– خسفوا بهم الأرض .

– على العكس تماماً . انهزمت القوتان الروسيتان لحقتهما شر هزيمة . لا أدرى عن تاريخ الحرب شيئاً إلا أن العارفين يدعون أن هزيمة كهذه الهزيمة لم يرها أحد فى التاريخ.

اصفر وجه «بوشكين» ، وبدأت شفتاه بالارتعاش . استمر الرجل فى كلامه قائلاً :

– قام الشيخ «أولوبك» مع الثمانمائة ششنى وسحقوا أربعة آلاف جندى روسى . وسحق «شامل» قوات «فرايتاج» بألف وخمسمائة رجل مسلم فقط. وقبل أن يصل الجنرال «شقارتز» إلى الشيخ «شعيب» وجد نفسه يئن تحت هجوم قوات الشيخ المغيرة . فتركت قوات الجنرال معداتها الثقيلة وانسحبت .

– فلينزل القهر بهم .

– وهل هذا فقط .. مازال هناك الشيء الكثير .. لعب الشيخ «شامل» لعبة فى غاية المرارة على القوات الروسية . ففى الليل ودون أن يحس أحد . أخذ وراءه ألف وخمسمائة فارس داغستانى ، وانطلق فى غاية السرعة إلى قلعة «أون صوقول» أول هدف كبير له . وبعد يوم كان فى «أون صوقول» .

صاح «بوشكين» قائلاً :

– مستحيل . ليس ممكناً . ليس الطريق هناك طريق يقطع فى يوم . لابد من اجتياز جبال «ميتشيكال» . بالإضافة إلى المعدات العسكرية ، مستحيل !

– أقول هذا ما حدث . أمام هذا لابد أن يعض الجنرالات الروس والجنرالات الألمان على أصابعهم . كما أن «شامل» سحق فى هذه الأثناء المفرزة الروسية التى اعترضته . (٢٦ أغسطس ١٨٤٣) .

تمرد «بوشكين» كلية ، وقال :

– هذا كذب ! .. كذب كل ما تقوله !

اكتفى الرجل بهز رأسه . وركز عينيه الفارغتين على الذى أمامه .

– حقيقة يبدو الأمر بعيداً عن العقل ، إلى أن يفكر العاقل يكون المجنون قد عبر الجسر . وبينما كان الجنرالات الروس أمام المنضدة يعدون خطط الهجوم إذا «بشامل» يعبر الجسر . وكان هناك من ينتظره من نوابه «كعبت محمد» و«موشى هيتيون» والحاج «مراد» . وحاصروا «أون صوقول» .

فتح يديه على الجانبين .

– لابد وأن يكون هناك تقرير عن النتيجة .

أنّ «بوشكين» قائلاً :

– نعم سقطت «أون صوقول» وعندما علم القيصر بهذا جن جنونه . صف عشرين من خدمه أمامه وظل يضربهم بالسياط طوال اليوم ثلاثة منهم لم يتحملوا فماتوا .

هز قبضتى يديه نحو الشمال ، وقال :

– كان لابد أن يضرب هؤلاء الجنرالات بالسياط . يهزمون أمام قليل من الجبليين وحفنة من الششن .

فتح كفيه وأغلقهما .

– هذه القلة . كلهم لا يصلون إلى حفنتين ..

هز الرجل رأسه قائلاً :

– واضح أنكم لا تعرفون الجبليين . أنتم مخطئون . عليكم – على الأقل – ألا تستهينوا بهم . كان «أون صوقول» أكثر المواقع استحكاماً . وهى الآن فى يد الداغستانيين . قليلون هم هؤلاء الداغستانيون . ثم إنها ليست الهدف الأصلى . تقول آخر الأخبار إنهم يضغطون على «تميرخان شورى» .

فتح الباب عن آخره دون انتظار لجواب «بوشكين» ، «كاتينا» تطلق قهقهة عالية وتدخل .

– هل تعرف أن «مسطروف» قد عرض علىّ الزواج يا حياتى ؟ وجعلته بردى أسوأ من الساقط من على الحمار . والآن كنت أريد أن أعرف ماذا تفكر فيه .

لاحظت الرجل الغريب فجأة .

– أووه ، لم أكن أعرف أن عندك ضيفاً .

قال لها «بوشكين» :

– كان على وشك الخروج . سينتظر القيصر فى الردهة .

التفت إلى الرجل ، وقال له :

– سأجعلك تقابله . أعطنى الخطاب وانتظر حتى يستيقظ القيصر . ولن تنقضى ساعة واحدة حتى تكون فى مقابلته كما أظن .

سار الرجل نحو الباب دون أن ينطق كلمة واحدة . صاح به «بوشكين» من خلفه وقال له :

– قلت لك هات الخطاب يا هذا .

قال دون أن يلتفت إليه :

– لا . الخطاب أقدمه فقط لجلالة القيصر .

تحرك «بوشكين» حركة كأنه يريد أن يمنع الرجل من الخروج ، فرأى «كاتينا» ، وسار نحوها . وكان مضطراً للابتسام .

قال :

– ما لى ولهذا . لا «شامل» يهمنى ولا القوقاز . كلاهما لا يكسبانى «كاتينا» . فبماذا سينفعانى ؟

أمام «أون صوقول»

أخذ قلم الحاج قاسم المجرب فى العمل على الورق من اليمين إلى الشمال محدثاً صريراً وهو يكتب فوق سقيفة عتيقة . وهذا المكان يسيطر على المنطقة . أسند رجليه على الغصن الذى أمامه . واتكأ ظهره جيداً على جسم الشجرة . وعندما أصاب الخدر أصابعه من الكتابة . ترك القلم واستغرق فى دراسة المنظر .

أمامه أنقاض قلعة . وفوقها أماكن مازال الدخان يخرج منها ولم تعد بذلك قلعة «أون صوقول» بحالها هذا تصلح لعمل العدو .

تحول نظره من قلعة «أون صوقول» إلى قرية «أون صوقول» . كانت كما هى . الشعب أكثر من أى وقت مضى متلاحم بهمة كبيرة . ورأى القرويين الذين يتعجلون الذهاب إلى أعمالهم . يخطو جنود «شامل» بين الحين والحين خطوات خشنة وهم يسيرون . ابتسم واستغرق فى تشغيل قلمه مرة أخرى .

«عندما وصل الشيخ «شامل» أمام «أون صوقول» بسرعة تذهل العقول التقى بكل من «كعبت محمد» و«موسى هيتينوف» والحاج «مراد» الذين انتظروه حسب الخطة المتفق عليها . وهكذا اتحدت القوة الضاربة . حوصرت القلعة وبدأ الضرب فيها .

وبعد قليل اشترك فى الحصار الحاج «موسى» بستمائة شخص بسيوفهم . وهكذا اتخذت قوة الشيخ «شامل» الأخيرة هذا المنظر : ألفان من المشاه ، ألفان وخمسمائة فارس . ست مدافع وفرقة الحرس الخاص للشيخ «شامل» المكونة من ألف شخص .

وبعد أن اتخذت الترتيبات المتكاملة وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس ، أخرج الشيخ «شامل» من بين شفتيه أمره بإطلاق النار فكان كمن يخرج الدعاء من بين شفتيه . أربعة مدافع تضرب القلعة وتضرب القرية فكانت مثل قطن الحلاج .

وجد الجبليون اسماً للمدافع الروسية التي تشحن من الأمام وهذا الاسم هو «مسدس القيصر» والذين يرون هذا يحتارون قائلين : ترى هل هناك شعب يستطيع أن يملأ المدافع من الفحم بسرعة جهنمية مثل هؤلاء؟ أما إصابتها للهدف فهى كبيرة بدرجة تثير الدهشة . وأستطيع القول أنهم لم يشعلوا قذيفة عبثاً .

وفى وقت الصباح أحدثت أصوات المدفع التى تمزق السكون فجأة ، الذعر فى أهل القرية .

ونحو الظهر ، كان الصراخ يرتفع من كل جوانب القلعة . لم يستطع الحاج «موسى» الصبر فأطلق عنان فرسه وفى صحبته خمسمائة فدائى فارس نحو أكثف موقع تتركز فيه نيران العدو . ومن الناحية الأخرى أمر الحاج «مراد» الذين بجواره بالهجوم على متاريس العدو . ومنه طلب الشيخ «شامل» القلعة.

كان العقيد «وتسلتسكس» أول من سارع لنجدة القلعة لكنه لم يتحمل الصمود طويلاً أمام هذه الشجاعة وهذا الإقدام فانسحب .

أخبر الجواسيس اليقظون الإمام «شامل» - فى حينه - بأن فرقة قوية قد وصلت إلى قرية ميقاتل عبر منطقة قبيلة خراجى وتهدف إلى إنقاذ القوات الروسية المحاصرة فى قلعة «أون صوقول» . ركز نظراته المهولة المتقدة على الشيخ «كعبت محمد» ، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة ، نظر فترة ثم أشار إلى الخط الأمامى وقال :

- العدو جاء لمساعدة العدو ، فلتفعل فعلك يا شيخ «كعبت» .

انطلق «كعبت محمد» وقد أخذ معه رجاله ، انطلقوا جميعاً بجيادهم كالبرق . وقاموا بحركة تطويق . وانتهى كل شيء نحو نصف الليل . استطاع رجل واحد فقط من ١٧٠٠ جندى روسى أن يهرب من كل هذا المدد الذى جاءوا به لتقديم يد العون لقلعة «أون صوقول» . استولى المجاهدون على أربعة مدافع وكم ضخم من الذخيرة .

أنهى الحصار يومه السابع بمعارك شديدة مع قوات النجدة لكن المعارك مستمرة . كان ذلك اليوم هو ٣٠ أغسطس ١٨٤٣ . وفى الساعات المبكرة من الصباح جمع الشيخ «شامل» نوابه ومساعديه وأخبرهم بالهجوم الحاسم .

كان الشيخ الإمام قد حسب الوقت حساباً دقيقاً . كانت القلعة فى حالة يأس حقيقى . فالمساعدات التى أخذت طريقها إليها ذابت وتلاشت قبل أن تصل إليها ، وتجرى مشاهد فظيعة أمام أعينها .

ورغم هذا ، ورغم اليأس الذى أصاب الروس فقد كانوا يحاولون منع رجال الشيخ «شامل» من الاقتراب وذلك باستخدامهم نيران البنادق . قال «شامل» للحاج «مراد» :

- أيها الفتى ، إنى أريد القلعة منك أنت . هيا أرنى فتوتك . إن اسمك وشأنك لكبيرين .

كان الحاج «مراد» فى غاية الامتنان لأن الفرصة أتيحت له ليبرز نفسه . فطار بخمسمائة فارس على متاريس العدو . كان يتقدم دون أن يعبأ بالنيران الكثيفة . كانت مخيفة تلك الثغرات التى ظهرت فى الصفوف . وأمر صعب هو الموت قبل الوصول إلى بدن القلعة . اتخذ قراراً سريعاً جداً . أمر باستخدام السياط فى آخر سرعة للجياد نحو النقطة التى تتركز وتتكاثف فيها النيران . احترقت النعال وطارت فى الهواء وعلت أصوات التكبير «الله أكبر الله أكبر» وغطت على صوت هدير المدافع . ونجح الحاج «مراد» فى

الوصول إلى هدفه . تسلق مع صحبه إلى الداخل من بدن القلعة وأسكتوا المواقع المتعبة . وعملت سيوف الداغستانيين عملها سريعاً . سقطت الرؤوس المليئة بالحنق والثأر بجانب الأحذية ولم يستطع إنقاذ روحه من الروس إلا هؤلاء الذين طلبوا الأمان .

هكذا سقطت هذه القلعة القوية فى أيدى الجبليين هذه القلعة التى عرفتها روسيا كلها بأنها القلعة التى لا تنهار . فتحها أسود داغستان الذين لا يستعصى شىء عليهم . ليست هذه القلعة فقط هى التى فتحوها ولكن كماً من القلاع الأخرى الكثيرة فتحوها بعدما قال الروس عنها بأن فتحها غير وارد . من يدرى لعل هؤلاء الأسود يجبرون الجنرالات الكثيرين - المعتقد أنهم لن يهزموا - بجبروتهم على تقبيل الأرض أمامهم .

أدار رجل رأسه بقوة فرأى رجلاً يقترب نحو جسم شجرة وكان هذا هو الحاج «قاسم» فأخذ يهز له يده .

أدخل الحاج «قاسم» دفتره بين طيات حزامه . وصاح بالرجل قائلاً :

- هكذا الناس يريدون التسلق إلى الأعلى دائماً . وكم من الأرواح يزهقونها فى هذا السبيل . انظر ، كيف وصلت إلى ارتفاع ظاهر دون أن أضر بأحد! .

نزل إلى أسفل ومضى نحو الرجل . ووضع يده على كتفه مبتسماً . وقال له :

- إنى مبتهج لأنك أسلمت ، والحق إنى كنت أعرف أن هذا سيحدث .

- ممن سمعت ؟.

- ليس من أحد ، لكنى منذ رأيتك آخر مرة رأيت نور وجهك قد سطع كثيراً لدرجة يمكن ملاحظتها دون احتياج إلى عين القلب .

شعر «بانوف» المساعد السابق فى جيوش القيصر بالفخار .

– أيها العجوز الذى يقول كلاماً حكيما لذلك غيرت اسمى . ولم يعد اسمى «بانوف» .

– إذن ماذا ؟

– «على» .

– فهمت . ذلك من إعجابك بالشيخ «شامل» . إن اسمه الأول «علىّ» أيضاً . ثم غيروه فأسموه باسم «شامل» . لماذا ؟

– أعرف سبب ذلك لكثرة مرضه . وإن هذه عادة عند الداغستانيين . يقولون : أن الاسم لم يكن كما ينبغى .

– كلام فارغ ، ولكن لا ضرر . على كل حال ، المنطقة هنا غاية فى الجمال . قيصر الروس لا يدع أقوى جيوشه عبثاً . إنها أماكن أسطورية حقيقية .

– قيصر روسيا لا يعنيه هذه الأراضى وإنما نتاجها . وكذلك يعنيه الإجهاز على المسلمين والوجود الإسلامى . كل حماسه من أجل هذا .

– أقول إنه يفكر بطريقة خاطئة . فلو فرضنا أن القوقاز هزمت لقلنا إن الإسلام باق . الدولة العثمانية العظيمة موجودة .. وهى تحمى الإسلام .

هز رأسه وعبس وجهه وكأنه يتألم .

– نعم موجودة لكن للأسف إنهم لم يقدروا بكل أسف كما يجب كفاح الشيخ «شامل» . يرون حركة الإمام الشيخ كأنها حركة تمرد محلى . غفلة كبيرة . من يضمن أن الدور لن يأتى عليها بعد ابتلاع القوقاز . على هذه الحال يمكن القول بأنهم فى موقف غريب أن يبقوا متفرجين على هدم الأسوار التى تحمى البلاد . أتمنى أن يستيقظوا .

– ما قولك فيمن سيكسب هذه الحرب ؟

– قديمة جداً هى نقطة البداية فى هذه الحرب . لقد بدأت بصراع سيدنا آدم مع الشيطان .

– ما هذا الذى تقوله ؟

– ترى الحقيقة إذا درست تاريخ الإسلام . إنها معركة الصليب ضد الهلال هذه معركة كل زمان وأوان . المتغير فيها هم الأشخاص فقط . أما المتصارعان فهما الصليب والهلال . ويستمر هذا الصراع حتى يوم القيامة.

– ما دام الله مع المسلمين فالمسلمون هم المنتصرون .

ونظر فى أعماق عينى الحاج «قاسم»:

– أليس كذلك أيها العجوز الطيب .

– ماذا تقول أنت ؟ تريد أن تفقد الدنيا ماهيتها كساحة امتحان . ألا يمكن لو أن الله أحب أن يجعل كل من على وجه الأرض مسلمين ، أن يفعل ذلك . لماذا يكون على الأرض أديان مختلفة ومعتقدات مختلفة وأمم مختلفة وقضايا مختلفة ؟

همهم «على» وقال :

– حكمة !

– لكن لسبب . المسلمون سيؤدون فرض الجهاد من أجل نشر دينهم وسيثابون على ذلك . الكفار يقومون بما يستوجبه الكفر ويقتحمون بئر غياً(١) الذى فى جهنم . وباختصار إن امتحان تنفيذ القانون على البشر لموضوع يمكن كتابة كتاب كامل عنه ما هى أخبار الحاج «مراد» ؟

– وبعد يومين من السيطرة على «أون صوقول» ، قام خمسمائة فارس – من أجل تنفيذ أوامر الشيخ «شامل» – مع مدفعين من مدافع الجبال المركب وجاءوا إلى «خون زاه» المركز القديم مقر حكام الآوار . أظن بأن العدو

(١) إشارة إلى قوله تعالى: «سيلقون غيا» .

يركز اهتمامه على هذه الأماكن .

- كيف ترى الأمر ؟ هل الهدف الرئيسى «تمير خان شورى» ؟

ابتسم «على» وقال :

- إنها الهدف الرئيسى . لكن قبلها لابد من سقوط منطقة قبيلة القرموق أولاً . ولابد أن يسير «شامل» إلى هناك .

- هل لهذا ترك «تمير خان شورى» بدون سند ؟

- نعم ، لهذا !

- إن هذا لهو عين العقل . العزل والاستيلاء . «شامل» إنسان كبير .

- نعم . ربته أسرته تربية طيبة .

- وكذلك يربون أنفسهم .

- رأيتك تكتب أشياء وأنت فوق الشجرة . فماذا ؟

هز الحاج «قاسم» رأسه ، وقال :

- التاريخ أصدق القضاة . وأنا أحاول أن أوجد ذلك القاضى .

سار . ثم همهم من جانب بقوله :

- هناك أشياء كثيرة تتغير تحت قبة هذه السماء .

يقوم الإمام «شامل» بعملياته العسكرية كأنه يقوم بعمل جميل خارق للعادة يحبه . وكان يثبت للجنرالات الروس وجميع القيادات العسكرية الروسية أن فى الحرب جمالاً فنياً دقيقاً وهؤلاء القادة هم الذين يظنون أن الحرب ما هى إلا استعراض للقوة الغاشمة . لكنه يقوم بأداء هذا العمل ليس لأنه فن وإنما لأنه شىء ضرورى . إن هذه الحرب ستفقد معناها فى اليوم الذى تتجمع فيه تحت راية واحدة عزيزة كل «القوقاز» و«داغستان» و«ششنستان» و«آوار ستان» . القلوب مفعمة بالشوق إلى هذا اليوم والدماء التى تسيل قطرات الآن ستتحد فيما بعد فى نقطة واحدة لتصبح نهراً وتصبح بحيرات .

كانت هناك حفر من الدماء ، بل كل شبر وكل خطوة قد اصطبغت باللون الأحمر . يتجمع الناس بملابسهم فى كثرة تسد الحفر وكل هذا فى سبيل شيئين .

من جانب ، نجد الناس البرءاء الذين لا ذنب لهم إلا أنهم يطلبون الحرية، ومن الناحية الأخرى ، نجد روسيا التى تقف منتصبة القامة بأظافرها الدامية والتى تخنق بالدم بكل حرص سافل ، كل شىء ، والتى تسد كل الطرق الموصلة إلى الحرية وتقف هى وعبيدها المدججون بالسلاح ! إلى جانب ، والباحثون عن الحق على الجانب الآخر . مصاصو الدماء الذين يرون أبسط الحقوق الطبيعية كثيرة على الناس . ويمضى الصراع قدماً أمام أعين الإنسانية .

قد لا يصفق العالم لسياسة روسيا الاستعمارية الغاصبة المعتدية ولكن هذا العالم لا يتقدم خطوة من أجل إيقافها . خاصة وأن العالم لا يقدم مساعدة صريحة أو مغلفة «لشامل» غير ما تقدمه الدولة العثمانية بين الحين والحين من السلاح . كان «شامل» يواصل كفاحه وحيداً من أجل إعلاء كلمة الحق والدين ورفع راية الحرية التى هى أدنى حق طبيعى فى الأرض الرهيبة الضخمة . ضاعت جهوده سدى عندما راجع إيران لتسانده . وإنما كان يحارب ويحارب بإيمان متدفق فى كيانه لكنه كان يجوع أحياناً ويبقى بلا سلاح أحياناً .

وعندما قال لإخوانه :

– ليس لنا صديق.

أجابوه بقولهم :

– لكل منا صديقان صادقان هما : فرسه وسلاحه ! وهذان هما الضروريان لمواصلة الجهاد ومن أجل الاستقلال . يكفى أن الكفاح لا يؤثر فى ضمور العزيمة .

إن الوطن العظيم الذى تبلغ مساحته ٤٣٠ ألف كيلو متر مربع ويقع بين قارتين بين بحرين يفصلان آسيا عن أوروبا ، إن هذا الوطن يدافع عن السنوات الطوال وهو مؤمن بدينه وباستقلاله .

آه لو لم تتفكك الدولة الإسلامية الكبرى فى الشمال ، إلى إمارات طوائف بسبب الاختلاف الداخلى الذى لا يملأ نواة التين ، لصعب على الروس ابتلاعها وكان «شامل» سيأتى وهو رئيس لدولة إسلامية حرة ولكن لم يكن التاريخ ليعرف ساعتها قط أن هناك بطلاً بهذه الروعة . ولما كان هذا الخطاب التالى سيكتب إلى الجنرال «قزه» القائد العام لجيوش القوقاز .

جمرى فى ٢٨ سبتمبر ١٨٣٧

أنا «شامل» أحقر المحاربين الذين قاموا بحمل السلاح فى سبيل حرية القوقاز . أنا مسلم لن أستبدل حماية الله بسيادة القياصرة . لقد كررت كثيراً إننى لا أعترف بالقيصر «نيقولا» وإنه لن يستطيع أن يحل إرادته فى هذه الجبال الشاهقة وبلسان يستطيع الجنرال «كلوج» أن يفهمه . ما زلتم حتى الآن تستدعوننى إلى «تفليس» لكى أجتمع بالقيصر وكأن كل هذا الكلام الذى قلته أوجهه إلى حجر . وإننى لن أجيب هذه الدعوة فى أى وقت من الأوقات وبخطابى هذا أكون قد أبلغتكم لآخر مرة . وإننى لن أغير قرارى القاطع هذا حتى لو علمت بأن جسدى الفانى هذا سيقطع إرباً إرباً . وما كتبته هذا هو إجابتى عليكم وليكن هذا معلوماً «لنيقولاً» وعبيده» .

ويجرى القدر حكمه ، لقد قدم «شامل» كل كيانه إلى السيل الجارف فى نهر الحرية ، وأخذ ينتقل من جبل إلى جبل .

أكمل المرحلة الأولى من الحرب . لقد كان فتح «أون صوقول» عظيماً . لكنه لم يكن كافياً . ولن يستطيع إشعال نار الحرية فى القوقاز إذا لم يخنق فى بحر الدماء كامل القوة المعظمة التى تقترب من ٤٠٠,٠٠٠ جندى والتى ساقها الروس إلى القوقاز . وعلى هذا فينبغى تطبيق القسم الثانى من الخطة . وهذا هو الفصل الثانى من هذه اللعبة . ولكن يمكن أن تكون أيضاً فصل الختام فى الموضوع . القدر !

جمع نوابه حوله ونظر إلى وجوههم واحداً واحداً . وهنأهم كلهم واحداً واحداً بالغزو . كانت عيونه تلمع . لحيته واقفة شعرها مثل عرف حصان عربى يعلو شفتيه الابتسام . وقال :

– أيها الإخوان ، إن انتصارنا فى «أون صوقول» لنصر من الله عظيم . لكنه ليس النصر الأعظم . امتلكنا به قرية وقلعة . لكن مناطق كثيرة من القوقاز ليست في متناول أيدينا حتى الآن . ويجب ألا ننسى أن هذا سيحرك الروس انتقاماً لهزيمتهم . وبالطبع هذا يتوافق مع ما نرغب فيه . إن رأس مال الانتقام هو العمر . إن الذين يربطون الحرص بالبصيرة يتركون خط المنطق ، والنتيجة أنهم ليسقطون أهدافهم ويلقون بها فى غياهب الآبار . وإنى مقتنع بأننا إذا فتحنا هذه الآبار سنكون قد قمنا بعمل اللازم من وجهة النظر الاستراتيجية .

لم يكن يحب الكلام الكثير . كان يردد دائماً : «اعمل بدلاً من أن تتكلم ولنرى ما عملت» . وكالعادة كان هذا كل ما قاله . وركز عينيه على الحاج «مراد» . قال :

– يا حاج «مراد» .

قفز واقفاً على قدميه :

– أمرك يا إمام !

– خذ خمسمائة فارس وخذ مدفعاً جبلياً مركباً ستسير إلى قلاع «خون زاه» و«أهلاجى» وسنقطع اتصالهما بموقع «بالافان» . وعندما أقوم بالهجوم على «بالافان» ستكون أنت مسئولاً عن الوحدات الروسية التى تأتى من ناحيتك .

وضع الحاج «مراد» يديه على صدره وحيا الإمام :

– سأنفذ أمرك حرفياً بإذن الله .

– وتكون مستعداً على الصباح .

– الصباح ؟ ولم ندع المسألة إلى الصباح ؟ هل هناك مانع من الذهاب فوراً ؟

– إنك متعب الآن ، لقد حاربت كالأسد ، وجعلت الكفار يتقيأون دماً .

لم يعد في وجه الحاج «مراد» أي أثر للتعب .

– ألم تكن أنت القائل كثيراً يا شيخنا أن العمر أقصر عن الأعمال الواجب عملها . دعنا نذهب تواً .

توجه «شامل» إلى الحاج «مراد» . وضع يده على كتفي عدوه القديم وضغط عليها بحب . وقال :

– يا صقر «الآوار» هيا صحبتك السلامة .

ونظر إليه حتى خرج ، ثم ذكر بعد ذلك اسماً آخر .

– الحاج «تاش».

– أمرك أيها الإمام !

– اذهب إلى «عنضالال» بثلاثمائة فارس شجاع . وقو نائبنا «على مرتضى التيليتى» . وكلاهما مسئول عن أي تخريب يمكن أن يقوم به الروس من ناحية «قوموق».

– تمام أيها الإمام . سأذهب فوراً .

– صحبتك السلامة.

– أستودعكم الله .

وخرج .

– يا حاج «موسى».

– أنا هنا أيها الصديق الأكبر .

– الصديق الأكبر هو الله . من يصادقه نصادقه . خذ ثلاثمائة

وخمسين من المشاة ومائة من الفرسان وعليكم بالدفاع عن قرية «خاراجى» .

– فوراً أيها الإمام ولا تنسنا من دعائكم .

وذهب «شامل» . وأمسك يدى الحاج «موسى» :

– الدعاء الذى تقويه الأفعال يقبله الله . وها نحن نفتح أيدينا كفاً عن هذا الفعل .

وارتفعت الأيدى إلى السماء.

– اللهم انصر الذين يدافعون عن المسلمين المكسورين المسحوقين الذين تبعثر شرفهم .

– آمين !

كان لابد من الاستعداد العاجل لاستخدام جميع المدافع فى صباح أول سبتمبر لإرسال الموت إلى قلعة «بالافان» . وقد خرج بنفسه للتفتيش على الاستعدادات بعد عمل «تمام» على تقسيم العمل وبعد أن أبلغ الباقين بواجباتهم . كانت القرية تغص بالجنود كأنها قطيع من النمل . وابتسم عندما رأى الذين انطلقوا يشدون نعالهم على اتجاه معين . وبدأ فى مراقبة المدافع بعد أن قرأ سورة الفتح .

صوت عسكرى ضعيف يقول :

– يا أولاد ! قفوا ، انظروا .

كان الملازم «لوبكا» قريباً جداً من المقدم «زايطيف» . قال المقدم بصوت فيه ازدراء :

– ما هذا الغطيط .

وسأل عندما رأى المسكين يترنح .

– هل أنت جريح ؟

– ألا ترى يا سيدى المقدم ؟! انظر من فضلك هل ذراعى فى مكانه ؟

كان الملازم «لوبكا» خلف المقدم مباشرة وكان ميالاً للفكاهة .

– هل كانت ذراعك تنوى الذهاب إلى مكان ما أيها الجندى ؟ إنه فى مكانه .

كشر الجندى وجهه وقال :

– إنه تخدر يا سيدى الملازم ، تخدر تماماً . ينزف دماً غالباً .

أمسك ذراعه جيداً . ومع ذلك كان الدم يسيل من بين أصابعه . نظر بعينين مفتوحتين عن آخرهما لفترة . ثم أدار نظراته إلى الملازم . ثم ركز ناظريه على المقدم . وقال :

– نعم لقد جرحت ، وربما أيضا أموت .

رفع المقدم يده وصباح زاعقاً بكل ما أوتى من قوة بقوله «إلى الأمام؟» وكرر الملازم هذه الكلمة :

- إلى الأمام !

وهمهم العسكرى الجريح بقوله :

- إلى الأمام . إلى الأمام : الموت . وهنا أيضا . يمكن الآن أن أموت . لا أريد هذا ، ولكن من يسمع . لم أكن أود أن أعمل جندياً . أجبرونى على هذا بقولهم إن القيصر يريد ذلك .

وعندما اصطدم بأحد الذين يمشون بسرعة كاد يسقط على الأرض . فقال :

- يا عبيط ألا تكن دقيقاً .

وضحك من خلف المسرعين :

- مستعجلون على موتهم . وأنا لم أكن مستعجلاً عليه . ومع ذلك أصابت رصاصة ذراعى . هل الجرح فى الذراع يميت ؟ ومن أدرانى ، فلست طبيباً . يبدو أن أصوات البنادق قد تكاثفت وزادت الآن أكثر . ما هذا الغطيط ؟! أتصور هذا أم أتخيله ؟ ولكنى أسمع أصواتاً تقول : «الله!! الله!» يبدو إننى على لقاء مع عيسى . قال لنا أنه لا أثر للداغستانيين هنا . جئنا فى طابورى استحكامات «بالافان» بعد أن قالوا لنا إن هذا مجرد تدبير . بهت المقدم «زايطوف» كثيراً عندما وجد نفسه فى مواجهة هؤلاء الداغستانيين . لكنه يبذل كل جهوده لينقذ نفسه . مات ألف من أصدقائى فى الشهر الماضى . ونجا المقدم والملازم . ألا يؤثر الرصاص فى الضباط أم ماذا يحدث ؟ أف ! تزداد كثافة إطلاق نيران البنادق . أقسم بأن الداغستانيين فى القرية . عندما قلت إن «شامل» لا يترك قرية «خاراجى» فارغة هكذا ، قالوا لى إنك مجرد جندى ولا تستطيع أن تفكر أو تعقل هذه الأمور . فهل يا ترى أنا كذلك ؟ أنا مجرد جندى لكن لى عقل أفكر به . قلت للملازم : هذا الكلام ولكن من يسمع ؟!! وها هم الآن قد وقعوا فى أحضان العدو .

نظر حواليه . ولم يجد أحداً :

- أنا محظوظ . حسناً ما فعلته ، عندما اخترقت ذراعى رصاصة . إنى مدين لتلك الطلقة المجنونة . إذا حييت فليس فى المسألة مشكلة .. ولو مت .. لا يجب أن أموت . «عيسى» لا يريد أن يأخذنى بجانبه . قبل شهرين طعنت شيخاً ششنياً . لا أستطيع نسيان الرعب الذى كان فى عينيه عندما خرقت له عينه . يا .. ما أفظعها من نظرة .

ورأى هذا الجندى مجموعة من الجنود تأتى مهرولة وجارية من ناحية القرية . وكان وراءهم داغستانيون وسيوفهم فى أيديهم يلوحون بها فى الهواء .

قال :

- يا للفزع . الوقوف مستحيل . إنهم يقتلون جنودنا .

أخذ يزحف حتى وصل إلى مكان خلف سقيفة وألقى بنفسه فيه . تجمد الدم الذى كان ينزف من جرحه . ولم يعد الدم ينزل منه . مر أمامه بسرعة الريح إخوانه الفارون . قال :

- الرصاص لا يلحقهم . الرصاص لا يلحقهم من خلفهم .

توارى واختفى جيدا عندما كان المجاهدون يعبرون ورؤيتهم له ليست فى مصلحته .

لم يدر الروس أن الحاج «موسى» مع خمسمائة رجل من رجاله قد تمركزوا داخل قرية «خاراجى» ، لذلك دخلوا القرية وهم يهزون أياديهم . ساروا وهم فى سكرة النصر حتى ساحة القرية دون أن يحدث شىء يعكر صفوهم . فصرعوا بفعل إطلاق خمسمائة بندقية فجأة وفى لحظة واحدة . وبعد أن كان الحاج «موسى» يأمر جنوده بإطلاق النار أمرهم بالخروج من خلف المتاريس والانطلاق نحو الروس بالسيوف . وكما هو العهد به دائماً كان فى مقدمة جنوده المجاهدين . وكان الروس - كما هم فى كل أوقاتهم - يهربون .

دفع المقدم «زايطوف» ثمن خطئه الصغير . هزيمة منكرة . لقد انتهى كل أفراد فرقتى القناصة تقريباً . ووصلت شراذمهما فى حالة اضطراب قصوى إلى قائدها العقيد «باسك» كان هذا العقيد القائد جالساً ينتظر باهتمام بالغ أنباء الانتصار وعندما رأى أمامه ضابطاً منتهياً بكل شىء فيه. كاد العقيد أن يجن . وبعد أن أخذ يصب عليه وابلاً من شتائمه جمع طابوره وخرج ليقابل الحاج «موسى» .

شمخ الحاج «موسى» الذى كانت كل إمكاناته عبارة عن خمسمائة شخص ومدفعين ، شمخ مثل الصخرة أمام قطعان الروس . وأجهد هذا الشيخ عزيمة العقيد «باسك» فى حرب ضروس . وأخيراً اضطر العقيد الروسى ومن معه من جنوده إلى الهرب بشكل غير منتظم تاركاً ذخيرته وكانت بكميات مذهلة ، ومجموعة بنادق ، وأربعة مدافع جبلية و٦٢ أسيراً و٣٦٠ قتيلاً .

وفى نفس اليوم يعنى يوم ٢ ديسمبر ١٨٤٣م ، هاجم الشيخ «شامل» قلعة «بالافان» . وكانت هذه القلعة فى أهمية «أون صوقول» .

وقد حول مع الشفق كل مدافعه نحو القلعة . وحاصرها بإطار من النيران جهنمية .

نجح الحاج «مراد» فى عمله فى «خون زاه» ثم انطلق بجنوده ليلحق «بشامل» وترك مشاته تحت إمرة الإمام . واستمر فى طريقه . كان من الضرورى أن يسيطر على كل الطرق التى كان من الممكن استخدامها فى إرسال الروس قوات إلى «بالافان» . كان من اللازم أن يقوم «شامل» بعمله بنجاح .

جرى إلى «بالافان» كل أنهى عمله حسب الخطة بقواته ومعداته الثقيلة ليلتحق «بشامل» . وعندما كان الوقت نحو الظهر وصل عدد أفراد قوات «شامل» إلى ستة آلاف مجاهد .

لم يكن الإمام «شامل» ينوى ترك العمل لنيران المدفعية فقط . كان لابد من الحصول على نتيجة إيجابية فى زمن قصير . ومع ذلك كان فى عدد قليل إذا قيس بالعدو الروسى . فإذا لم تنزل ضرباته المتلاحقة القاتلة على الروس . فيمكن أن يقع - لا قدر الله - فى براثن الهزيمة .

لم يتردد قيد أنملة فى الدفع بقوات «المغيرين» إلى المعركة وتدخلت مدفعيته بنيرانها الملتهبة فى أكثر فترة من فترات المعركة حدة .

كان لابد أن ترتوى حرية داغستان بدماء الشهداء . وكانت مجموعات المغيرين تريد أن تضرب العدو الروسى فى مقتل ، فذهبت إلى خلف الوحدات العسكرية الروسية وأشعلت النيران فى مخازن الذخيرة . واستولت مجموعات المغيرين على مهمات الروس . وكانت الروح المعنوية هابطة بين الجنود الروس . وعدد الفارين منهم من المعركة كبيراً . وأخيراً ، وعندما اقترب وقت المغرب ظهر تفكك عام فى الجناح الأيمن . ولم يتأخر الإمام فى ملاحظة هذا . وبسرعة لا يتصورها عقل اختار ألفى شخص ليقف على مقدمتهم ويقودهم . ونزل بهم مثل سيف فريد واحد مستل على الجناح الأيمن من قوات الروس الذى كان على وشك الانهيار .

ساد الاضطراب بعد قليل وسرى إلى كل الجبهة الروسية . وكان الإمام «شامل» ينتقل من هنا إلى هناك بمناورات مذهلة ومعه مفرزة فدائيين فى حوالى الألفين . وأخذت سيوف الداغستانيين العريضة تطيح برؤوس الروس وهى تعمل بأقصى سرعتها وهى سرعة البرق .

واستمر الهجوم حتى الصباح . حاول الروس الاستفادة من حلول الظلام فكانوا يرمون بأنفسهم إلى داخل أسوار قلعة «بالافان» فكان أكثر المتهالكين على إنقاذ أنفسهم يقعون فريسة لسيوف الششنيين الذين نصبوا للروس كميناً .

وفى صباح ٢ ديسمبر كانت الشمس تشرق فوق نصر براق لامع قدر بريق الشمس ولمعانها .

اضطراب فى «بطرسبورج»

قد تكون هذه أول مرة لا يهتم فيها القيصر نيقولا الأول بهندامه وهو المتعلق به - إلى درجة الضعف - فى كل أوقاته. لم يهتم حتى بوضع الباروكة على رأسه. فكانت صلعته تلمع بفعل ضياء الشمس فى الظهيرة وهى تدخل من النافذة.

كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وباستمرار كان يحس بنحس هو نفسه كان يعجب له. اصطدم بزهريتى كريستال قيمتين وتسبب فى كسرهما.

كان فى درجة من الضيق فظيعة. وألمّ به صداع. كان مضطرباً جداً فى الأشهر الأخيرة من هذا الصداع الذى يصيبه فى رأسه. ولم يجد أطباء القصر علاجاً له. ولذا اتصل سراً بالقساوسة ليكتبوا له تعويذة، لكنه لم يجد لهذا أيضاً أدنى تأثير. لذا كاد أن يفقد كل محبته لعيسى. نعم. إلا أنه لم يجد حيلة للشفاء من صداع رأسه.

كان القيصر يفسر هذه المسألة تفسيرات ساذجة. إنه يتصور أن نبياً عظيماً أرسل فقط لشفاء القيصر من صداع رأسه. وبالطبع ألقى بأفكاره هذه فى داخله يعنى تكتمها. وإلا فإنه يعلم ماذا سيحدث له من مصائب لو علم القساوسة بما يجول فى نفسه.

أعصابه متوترة لأنه قضى ليلته أرقاً. لكن لم تكن هذه هى الليلة الأولى التى يقضيها أرقاً. إنه منذ زمن وهو دائم التقلب فى فراشه حتى الصباح، فى فراشه المصنوعة مراتبه ومخداته من ريش الطيور. لكنه كان ينام أحياناً

نوم الطيور. يرى فى أحلامه سيف «شامل» العريض، فينفلت من السرير خائفاً.

لهذا السبب كانت هناك فجوة خلاف بينه وبين الملكة!

سار نحو الباب وروحه تهفو للتحدث مع أى أحد.

أدار القبضة. مد رأسه من فتحة الباب وقال:

– من هناك؟

خرج «مسطروف» البدين من خلف عمود وربط يديه بعضهما ببعض، وقال:

– أوامركم ياصاحب الجلالة.

– أليس هناك أحد؟.

– الحرس ياسيدنا.

حدج القيصر «مسطروف» البدين من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. تحرك «مسطروف» بضيق. وسحب بطنه إلى الداخل بحركة غير إرادية.

– هل أنت مهتم كثيراً ببطنك يا«مسطروف».

دهش فجأة، تلعثم وقال:

– لم أستطع الفهم ياصاحب الجلالة.

– يعنى هل تاكل كثيراً؟.

– بفضلكم ياسيدنا.

– بفضلى؟! شىء غريب! هل أطبخ أنا ما تاكله أنت؟ لماذا تقول بفضلى؟.

– جلالتكم ولى نعمتى.

لم يكن القيصر يحب البدانة. لهذا السبب كان هو نفسه يلبس الكورسيه.

– اذهب وأحضر «بوشكين».

– أمركم.

أشار إليه بعكس يده أن ينسحب. عاد، واستمر فى التجول فى غرفته.

كان «بوشكين» أثناء ذلك مشغولاً بأشياء مهمة. خدعته «كاتينا» بالزواج، ولكن بأنوثة شيطانية وفى نفس الوقت ضغطت عليه لتأخذ نقوداً. كان بوشكين يفهم جيداً كيفيتها. ولكنه كان يعرف جيداً جداً أنه يلف فى مدارها. وكلما كان يحاول التحرر من ذلك كان يغرق وكلما حاول التخلص منها تحتويه؛ وباختصار كان يجد نفسه فى شركها.

– تريدين أن أجد نقوداً، ليس هذا بالأمر البسيط كما تتصورين يا«كاتينا». لا يمكن للإنسان أن يصبح صاحب ثروة فجأة.

ضحكت المرأة وقالت:

– ولكن حدث ما حدث ياصديقى، مثلاً «مسطروف» البدين..

ضغط «بوشكين» الشاب على أسنانه. تضرب المرأة رغماً عنه المثال «بمسطروف». كانت تريد أن تضخم شريان الغيرة فيه. قال «بوشكين» وهو يبصق على الأرض.

– إنه لص.

– لا أحد يستطيع القول بأن «مسطروف» لص، ماذا حدث، إنه يستحق الاحترام. كذلك أشخاص كثيرون. إنك تغار منه.

– أنا أغار منه، أصحيح هذا! أأنا أغار من «مسطروف»؟! ها ها ها...!. إنى أضحك على تفكيرك. إن هناك شيئاً واحداً فى «مسطروف» يغار كل واحد منه وهو بطنه! يعنى كرشه!. أريد أن أكون مثله عندما تكبر سنى. إن كرشاً ضخماً ليكسب الإنسان مظهراً قيماً عندما تكبر سنه.

لم يكن هو نفسه يؤمن بما يقول. تحدث عن «مسطروف» مدة أطول لو لم تكن «كاتينا» قد أغلقت فم «بوشكين» بيدها من يدرى كم من الوقت بعد ذلك كان سيتحدث عنه.

– لماذا تتعب نفسك عبثاً ياعزيزى؟ دعك من هذا الهراء لننتقل إلى الموضوع الأساسى. إن حباً بلا نقود لينتهى فى ثلاثة أيام. وإنك تعرف هذا جيداً. ما الداعى لكلام أكثر.

– ماذا تنوين فعله يا«كاتينا»؟.

كان صوت «بوشكين» ينم عن توسل. ولاحظت المرأة هذا جيداً. تجمدت على شفتيها ابتسامة شيطانية.

– أنا مضطرة للقيام بعملية تفضيل بين النقود وبين الحب سأسأل «مسطروف» إن كان لا يزال يريد الزواج منى أم لا.

قفز «بوشكين » من مكانه وقال:

– لن تفعلى هذا.

– ولماذا؟ إنك تعرف أن حياتى مرت فى فقر، لقد عشت طفولتى محتاجة إلى كسرة خبز. هل فكرت يوماً فى حياتى وأنا واحدة من ثمانية أولاد فى عائلة صياد فى غاية الفقر؟ أمضيت ربيع حياتى فى مكان واحد تفهم كانت تفوح منه رائحة السمك. والآن أنا حرة وجميلة. فلماذا لا أستفيد من وضعى؟ ولماذا ألقى بنفسى مرة أخرى فى أحضان الفقر؟.

خر «بوشكين» على ركبتيه وسحق كبرياءه تحت قدميه وقال:

– أسمعت يا«كاتينا». إنى أحبك. صحيح أنه ليس معى مال لكن لى منصبى. إنى أقرب عبيد القيصر إليه.

ضحكت «كاتينا» بسخرية.

– لكن باعتبار النتيجة فأنت عبد. عبد القيصر. إذا قال اذهب يا«بوشكين» تذهب وإذا قال لك تعال يا«بوشكين» تأت، ارقد يا«بوشكين» ترقد. إذا كان هذا هو الذى تسميه منصباً فأقول لك إن لك منصباً، نعم لك ولكن المنصب الناشف لا يشبع بطناً ياعزيزى.

- هل تظنين أنى لا أحب أن أكون غنياً؟.
- إذا كنت تريد فكن..
- كل من يريد، لا يصبح غنياً.
هزت المرأة كتفيها وقالت:
- الذى لا يريد لا يمكن أن يكون.
- بم توصين أن أعمل؟.
- ما فعله «مسطروف» .
انقلبت سحنة «بوشكين». لم يكن يريد سماع اسم هذا الرجل.
سرق واغتصب وارتشى واستولى على أراضٍ كثيرة مستغلاً اسم القيصر.
هزت «كاتينا» كتفيها مرة أخرى.
زعق «بوشكين» بحدة قائلاً:
- أتريدين منى أن أصبح كذلك؟.
- فقط أريدك أن تصبح غنياً. لن أستطيع التزوج بشخص مفلس.
- عندى دخل يجعلك تعيشين مرتاحة.
- أصحيح؟ أريد أربعة خدام للغرف، نصف دستة على الأقل ومثل ذلك فراشين، وطباخين، وبستانيين، وحرس وغير ذلك يعنى حوالى خمسين شخصاً وقصراً يغنى عن قصر القيصر.
مالت إلى الأمام وقالت:
- هل تستطع أن تقول نعم لكل هذا؟.
قال «بوشكين» وكأنه يئس:
- تعلمين أننى لست على هذا القدر من السعة والغنى يا«كاتينا». أردت الغنى فقط لكى أتزوج بك. وفى سبيل هذا أفعل كل شىء حتى ولو كان ذلك رأس الشيخ «شامل».

فتح يديه علىَ جانبيه وقال:

– ولكن ما الفائدة يا«كاتينا». إن المبلغ المرصود لرأسه لا يفى باحتياجاتك التى تبحثين عنها. أنت تدفعيننى إلى ارتكاب الجرائم. إن الغنى الذى تريدينه أستطيعه على أنقاض حياة آخرين وفقر ناس كثيرين.

ذهبت المرأة وجلست على الأريكة. وقالت:

– ما لى وفقر الآخرين وفقدهم حياتهم، عندما خرج جسد زوجى من الماء لا تستطيع غالباً أن تقول أن ذلك أثر فى. حتى فى هذه الدقيقة، مازلت أذكر خيال هذه الأيام. وعلى الأصح ليست هذه الأيام بل الأيام الجميلة التى تنتظرنى بعد ذلك.

ركزت عينيها على إنسانى عينى «بوشكين» وقالت:

– خدم، حشم، حرس، طباخون، بستانيون.. أووه! ياأحلامى تحققى!.

نهضت من مكانها وسارت نحو الباب:

– من يضمن لى ذلك أكون زوجة له. لا تفهمنى خطأ. إنى أحبك ولكن يجب أن تفهم أننى عشت فى الفقر وأعيش حتى الآن. ولا توجد أية قوة تجبرنى على الحياة فى نفس الإطار بعد هذا. والآن إلى اللقاء ياعزيزى، وعندما تتخذ قرارك نلتقى.

لم يتكلم «بوشكين» بكلمة واحدة، وإنما ظل فترة متعلقاً بها وهى تخرج. ثم ضرب الحائط بقبضة يده غيظاً، وصاح قائلاً:

– سأصبح غنياً. مهما كان الثمن.

وخرج. وبمجرد خروجه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام «مسطروف» البدين الذى كان يبحث عنه منذ نصف ساعة.

– سيدى إن جلالة القيصر يريدكم.

أدار «بوشكين» رأسه إلى جانب آخر. وقال:

- حسناً. إني ذاهب.

توقف بعد أن سار بضع خطوات. كان «مسطروف» البدين يأتي خلفه. عمل إشارة لكي يلحق به. وعندما جاء بجانبه قال:

- أريد أن أسألك شيئاً يا«مسطروف».

كان يحاول أن يعطي صوته - بقدر استطاعته - تعبيراً مخلصاً. لكنه لم يكن ينظر إلى عينى الواقف أمامه. لقد عاش «بوشكين» حتى تلك اللحظة بشرفه لا يتذكر أبداً أنه ملأ ذهنه بأفكار شيطانية مثل الآن. لقد استولت «كاتينا» على تفكيره الطفيلى ولم يكن يستطيع أن يفكر إلا فى أن يصبح غنياً.

- يقولون ياصديقى إن ثروتك زادت زيادة كثيرة فى الأيام الأخيرة. ما قولك فى هذا؟.

اضطرب «مسطروف». لم يكن يريد أن يتحدث أحد عن ثروته. من يستطيع غيره أن يلقى بقانوراته على المكان عندما ينبش قاعه؟ قال:

- أبداً! إن أحوالنا جيدة. هذا كل ما فى الأمر.

حاول «بوشكين» الابتسام. مسح ظهره لكى يضفى عليه الثقة.

- هيا ياصديقى، لا تفرط فى التواضع، وتحدث. هل تستطيع الإنفاق على عشرة من الخدم؟.

أنزل «مسطروف» رأسه وقال:

- يعنى.

- عشرين.

- يتغير هذا حسب شراهتهم فى الأكل.

- وما قولك فى خمسين من الحشم.

صدق وهو يهز رأسه.

– يعنى أنك تنفق على خمسين شخصاً فى بيتك، لذا لابد وأن تكون غنياً كما يقال عنك. حسناً، ولكن كيف استطعت أن تجمع مالاً بهذا الشكل مع أن مرتبك أقل من مرتبى.

– أنا أكبر منك سناً ياسيدى.

– عشر سنين على الأكثر. إذا حسبنا هذا نقول أنك تقتصد فى السنة الواحدة ألف روبل وفى عشر سنوات عشرة آلاف روبل، والباقى؟.

– أنا لم أكتف بالمرتب فقط، لقد قمت بأعمال أخرى.

– ألا يحدث إنك تقوم بأعمال غير مشروعة.

تغير لون «مسطروف» وقال:

– أنا لا أعمل شيئاً مخالفاً للقانون ياسيدى. كما إنى معفى من الضرائب. وإلا لكنت أقدمها بكل سرور. صدقنى.

هز «بوشكين» يده وقال:

– بالطبع أؤمن بذلك. كل الذى أريد أن أعرفه فقط هو كيف تستطيع إيواء خمسين خادماً.

– ولكن لماذا؟..

تصرف «بوشكين» كأنه لم يسمع هذا السؤال الذى سأله «مسطروف» باضطراب. أوسع من خطواته وتقدم إلى الأمام. ولحقته من ورائه بطن «مسطروف» وهى تهتز اهتزازاً.

– سيدى أرى أنك لا تحب أن يتمكن الاضطراب منى.

ابتسم «بوشكين» فى ظلم واضح.

– لا بأس حتى تتخلص من كرشك المنتفخ الذى يسخر منه كل الناس.

– ولكن ياسيدى.

وفجأة احتد عليه «بوشكين» وقال:

- دعك من إلقاء الأسئلة يا«مسطروف»، إنك تنسى أنك تحت أمرى وإنى أرأسك.

نظر إليه «مسطروف» كأنه يكاد يأكله. لقد ندم ألف مرة على أن الكلمات أفلتت منه، ولكن ما حدث حدث وانتهى. سيذهب «بوشكين» الآن إلى القيصر مباشرة ليحرضه عليه. والواقع أنه أصبح عدواً له بسبب «كاتينا». والواقع أن غيرة شاب فى موقع كبير مثل «بوشكين»، منه، لأمر يبعث السرور فى نفسه. ولكن يجب ألا تتجاوز هذه الغيرة البحث عن الثروة. لابد أن يحاسبوه على السلاح الروسى الذى باعه لمجاهدى القوقاز، وسيكون أقل جزاء لهذا هو وضع رقبته على جذع شجرة فى ميدان الإعدام.

صاح من وراء «بوشكين» قائلاً:

- دقيقة واحدة.

تصرف «بوشكين» كما لو كان سيقف إلا أنه تراجع. أسرع من مشيه مستمراً فى طريقه. و«مسطروف» وراءه يلهث.

- إنك ياسيدى تريد أن تعرف كيف كونت ثروتى، أليس كذلك؟.

حدج «بوشكين» الرجل بنظرات ذات معنى. كسب الجولة الأولى.

هل تستطيع أن توضح؟.

- بالطبع. لكن ليست هذه بالمسألة التى يمكن توضيحها ونحن وقوف. إن هذا كفاح السنوات الطوال. هل تستطيع تشريفى فى بيتى المتواضع.

- لابد أن أرى القيصر الآن.

- ألا يمكن أن يكون اللقاء بعد رؤيتكم هذه؟.

تردد «بوشكين» لحظة، فأخذت نفسه من داخله تلقنه بشكل متوال: «يجب أن تصبح غنياً. يجب أن تصبح غنياً».

فأجابه بقوله :

- يمكن بعد أن أقابل جلالة القيصر أن نخرج معاً.

ودخل من باب القصر المخصص لكبار رجال الدولة. واعتلت شفتا «مسطروف» تكشيرة بلهاء عجيبة. ودعك يديه. ثم أخذ طريقه إلى البيت وهو يهمس فى نفسه قائلاً:

- سأريك أيها الفأر الصغير .

وكان لابد أن يقوم ببعض الاستعدادات قبل مجىء «بوشكين».

كان القيصر «نيقولا» قد تضايق وغضب واحتدت أعصابه إلى أقصى حد لأن كبير ياورانه لم يصل بعد. صاح بدون تفكير قائلاً:

- كلهم بُلهاء. مهرجون. أحسنهم لا يساوى شروى نقير. وأسوأهم هو «بوشكين» هذا. قهرهم الله. ليذهبوا جميعاً إلى جهنم.

وفتح الباب بحدة.

- ياهذا...

قال لأحد الحراس.

- ألم يأت هذا الأبله بعد؟ أين «مسطروف»؟ وهل اختفى ملك البلهاء هذا؟.

لم يكن الحارس - وقد غير نوبته تواً - يعلم أن القيصر يبحث عن «بوشكين». وتخلص المسكين من شعوره بالضيق لأن «بوشكين» ظهر فجأة على طرف الممر. وإلا لكان على هذا الجندى أن يتصبب عرقاً أمام هذا القيصر الغضبان. زعق القيصر قائلاً:

- أوه أوه!.. يعنى استطاع أخيراً حضرة «بوشكين» أن يأتى.

وضرب رجله بالبساط السميك.

- أين كنت أيها الرجل؟.

انحنى «بوشكين» باحترام.

- صاحب الجلالة.

- سألتك أين كنت؟.

- إنى ياسيدى تحت أمر قيصرى.

- تحت الأمر، وأنا أبحث عنك منذ ساعة.

تلعثم وقال:

- عمل مهم.. مهم جداً..

هز القيصر يده فأسكت «بوشكين». وقال له:

- أهم عمل عندك، أن تكون بجانبى. أريد إذا بحثت عن واحد أن أجده. لا أدرى لماذا أنتظر كل هذا لكى أطردك.

تراجع إلى الباب.

- تعال إلى أين تذهب؟.

عاد «بوشكين» وهو فى غاية الخجل. كان فى ذلك اليوم تعيس الحظ: كاد أن يفقد «كاتينا». وكاد منصبه أن يطير منه. ولو لم يستطع أن يقنع القيصر بنفسه فإنه سينتهى حتماً، حاول محاولة.

- ياصاحب الجلالة إنى أحس بقرب وصول أخبار مبهجة.

نظر القيصر إليه بابتسامة وقال:

- ألا تحس على الأقل بالمكان الذى ستأتى منه هذه الأخبار الجميلة!.

- من القوقاز يامولانا القيصر.

جلس «نيقولا» على عرشه بحدة.

- إذن نظف ما بداخلك يا«بوشكين».

- لم أفهم ياصاحب الجلالة!.

- لن تفهم، لأن مخك لا يشتغل. كم ليلة أرقت فيها. وسعادتك غير مهتم.

صداعى يزداد ويزداد، ولا دخل لك! إن أخبار الهزائم المتوالية هى التى تأتى من القوقاز، كما أنهم بصدد إعلان الحكم النيابى فى القرم.

قفز من مكانه، وحول إصبعه إلى صدر ياوره وكأن إصبعه ماسورة بندقية.

- ثم تأتى وتبشرنى بأخبار جميلة تحس بها. كم إنك أبله هل فى هذه الأخبار رائحة البشرى قط؟!.

فهم «بوشكين» أنه لم يبق على طرده إلا القليل، وسينتهى أمره إذا لم يجد وسيلة ومخرجاً للموقف. لابد لعقله أن يعمل. لكن ذهنه مملوء كله بالمال. ولم يعد فى ذهنه مكان حتى ولو مقدار نقطة يفكر بها فى شىء آخر. وهذه هى المرة الأولى التى يفقد فيها لياقته. وفقد قابليته للتفكير البديهى.

- مولانا.. أنا.. يعنى أخبار طيبة.. أقصد.. «شامل»..

صاح به القيصر قائلاً:

- إنى أطردك، هيا اخرج من هنا ينبغى ألا أراك. فكر كيف إنى لم أسلمك للجلاد طوال كل هذا الوقت. أنا نفسى مندهش من هذا.

وانتهى كل شىء بالنسبة لـ«بوشكين» فى لحظة. وانهدم فوقه عالم خياله السافل بكل قانورات أنقاضه. وكان بالفعل يستحقه. ولكى يتخلص من هذا الثقل، هز كتفيه مرة أو مرتين، لكنه لم يوفق. وانحنى كأنه عجوز فى السبعين من عمره. واغرورقت عيناه بالدموع، وتدلت رأسه إلى الأمام، وخرج وهو فى هذه الحال من الباب.

ظل يذرع شوارع بطرسبورج وقتاً طويلاً، بدون هدف. وعندما أفاق كانت السماء تمطر. يبدو أن قطرات المطر ستخدر جسمه. وعندما رأى نفسه أمام منزل «مسطروف» تولته الحيرة. شاهد بامتنان بالغ أنه يسير إلى هدفه حتى فى الأوقات التى يظن فيها أنه بلا هدف، فتولته جرأة

بعد جرأة . وضع يديه فى جيبه. كانت هذه أول مرة منذ زمن طويل يسير فى الشوارع هكذا مثله مثل أى روسى بسيط آخر، ولكنه كان يقسم بينه وبين نفسه أنه لن يجعل هذا يستمر مدة طويلة. ومرة أخرى سيجد نفسه فى زمن قصير يدخل حياة الروس العاديين. كيف يكون هذا؟ بالطبع عن طريق ملء جيوبه بالروبلات. ولن يكون لديه احتياج للقيصر، بل إنه يفكر فى أن ذات القيصر سيكون محتاجاً إليه. خاصة لو استطاع أن يعلم من «مسطروف» البدين طرق الغنى، تصبح المسألة سهلة. لابد أن يكون هناك طريق لهذا مثل السياسة. والإنسان لا يولد من بطن أمه غنياً. لابد أن يكون الغنى أمراً غير صعب كثيراً على اعتبار أن واحداً مثل «مسطروف» البدين وهو رجل أهبل قد تملك ثروة تجعله يؤوى جيشاً من الخدم فى بيته يصل إلى خمسين خادماً.

كان يفكر فى كل هذا بعد أن صعد السلم وأعطى اسمه للخادم. وكان مستمراً فى هذا التفكير إلى أن أخذوه إلى غرفة ضخمة.

كان «مسطروف» يرقد بجانبه على أريكة فخمة وضعت أمام النافذة. وعندما رأى «بوشكين» داخلاً اعتدل نصف اعتدالة وهى حركة خاصة بسكان القصور الذين يهتمون اهتماماً كبيراً براحتهم.

– أووه صديقى العزيز، شرفتمونا.

كان انطباع «بوشكين» سيئاً أمام هذه الحركة اللامبالية التى قام بها «مسطروف» ولكنه عاد إلى هدوئه ووجد أن هذا أمراً طبيعياً عندما تذكر أنه لم يعد رئيسه. توجه نحوه ومد إليه يده، وقال:

– منزلكم رائع ياسيد «مسطروف» إنه لا يختلف كثيراً عن القصور.

كانت هذه أول مرة يتوجه فيها «بوشكين بألفاظ محترمة نحو «مسطروف». مثل «ياسيد» وبصيغة الجمع الدالة على الاحترام فى كلمة

منزلكم. إنه أيضاً دهش لهذا قدر دهشة «مسطروف». يبدو أنه تعود أن ينظر إلى نفسه كأحد أفراد الشعب الروسى. قال له «مسطروف» وهو يشير إلى المقعد الذى بجانبه:

– ألا تتفضل سعادتك بالجلوس. كنت أريد أن أجلسك بجانبى ولكن هذه السمنة لا تتحملها إلا أريكة كبيرة مثل هذه.

جلس «بوشكين» على المكان الذى أشار إليه به. والحق أن «مسطروف» يتصرف تصرفاً معقولاً. ولكن «بوشكين» كان يعرف أن هذا هو تصرف التشريفاتى. وواضح جداً أن الرجل كان يريد أن يبدو فى منزله الخاص – على الأقل – له قيمته وأهميته.

وعندما رأى «مسطروف» أن ضيفه يتحرك بضيق لم يستطع أن يتمالك نفسه من الفرحة الخالصة. وقال له:

– تصرف براحة. أرجو أن تتصرف كأنك فى بيتكم.

كان «بوشكين» يحاول أن يبتسم.

– بالطبع. ائذن لى فى أثناء هذا أن أقول إننى أعجبت جداً بمنزلكم. ورغم أنك أعزب فالبيت مفروش بشكل رائع.

لم يكن «مسطروف» عبيطاً بالقدر الذى تصوره «بوشكين». هذه التغيرات التى انتابت تصرفات «بوشكين» جعلت «مسطروف» يفكر. كان يعرف كأنه يرى أن أشياء لابد أن تكون قد حدثت ولكن لم يستطع أن يُعين ماهيتها. سأله وقد قرر أن يجعله يتكلم:

– كان جلالة القيصر غاضباً قليلاً .

ونظر فوراً إلى وجه «بوشكين» بانتباه بالغ. وعندما رأى بعض الخلجات فهم أنه لم يكن على غير حق فى شكه. وأمسك لـ«بوشكين» بعلبة ذهبية فى تطور مريح.

- دخان؟.

- شكراً، تعرف إننى لا أدخنه.

ولف هو لنفسه سيجارة بعناية. وقال:

- لابد من التدخين ياعزيزى. إن التحدث بارتياح أمر يعجبك كثيراً.

ولهذا الاحتياج كرر قوله:

- ينبغى التدخين. إنه يريح الإنسان ويخفف ضيقه.

مد «بوشكين» يده. كان مستعداً لشرب السم لو كان سيخلصه من الضيق. وقال:

- أألف لك سيجارة مادام الأمر كذلك.

تناول «بوشكين» ورقة سيجارة رقيقة. ووضع فيها دخاناً من العلبة الذهبية. وأراد أن يقلد «مسطروف» فى لف السيجارة لكنه لم يفلح. كما أنه كان غير مجرب، يداه ترتعشان. سقط بعض الدخان على صدره. ابتسم لـ«مسطروف» بشكل ينم عن خجله. قال «مسطروف»:

- إلق هذه.

وأتى بالعلبة من جديد ووضع ورقة دقيقة على إصبعه السبابة وإبهام يده اليسرى. ثم وضع عليها الدخان. وثنى أطرافها بمهارة ووضعها على شفتيه وبللها ولصقها وقدمها إلى «بوشكين».

- دخن هذه.

أشعل «بوشكين» السيجارة. وأراد مرة أخرى تقليد «مسطروف». وسحب مثله نفساً طويلاً. وأحس بلسعها فى حلقه كأنها أخرجت فلفلاً، ثم أخرج من حنجرته أصواتاً عجيبة. ودمعت عيناه. وبدأ يسعل بشدة.

أطلق «مسطروف» قهقهة وقال:

– البداية دائماً هكذا. وكنت في حوالى العاشرة من عمرى عندما تعودت على التدخين.

كدت في البداية أن أختنق ولكن، بعد ذلك..

هز يده في الفضاء وقال:

– لو أخرجت كل مداخن قصر بطرسبروج دخانها وملأت كلها رئتى فلن أهتم بذلك.

وفجأة أخذ شكلاً جدياً.

– كان القيصر غاضباً، أرجو ألا يكون قد أصابك ضرر من جراء ذلك.

سعل «بوشكين». وأمسك السيجارة في يده وهو خائف من أخذ السيجارة إلى شفتيه. وهز رأسه نحو الأمام وقال:

– طردني.

– أمعقول؟.

– نعم هذا ما حدث. وكما يطرد خادماً ولم ير أى بأس في ذلك.

كاد «مسطروف» أن يموت من الفرحة. واضطر أن ينظر إلى جهة أخرى ويدير وجهه حتى لا تظهر فرحته. وقال شيئاً مختلفاً عما في نفسه:

– أسفت لهذا.

– وماذا يجدى الأسف. أنا أيضاً أسفت. لو طردك أنت كنت أنا بدورى سأتضايق. ما علينا.

وسحب نفساً آخر من السيجارة. واشتدت حرارتها على حلقه وسعل مرة أخرى ولكن هذه المرة كانت أخف من سابقتها. وقال:

– أنا الآن مضطر للبحث عن العمل بمرتب عال. ولن يهمنى شيئاً مهماً كان خطراً. جربنا العمل بشرف فماذا استفدنا من ذلك؟ ركلة على مؤخرتنا، وهيا..

تقلص وجه «مسطروف» البدين وقال:

- آه! ليتك عرفت هذا من قبل. إن الشـرف لا يشبـع البطـن الخالية.

مال نحو الأمام وقال:

- هل أنت متأكد من تفكيرك؟.

- على ماذا.

- القيام بأعمال خطيرة تدر أموالاً كثيرة؟.

أحاطت بـ«بوشكين» لحظة تردد لم تستمر غير عشر ثوان والنتيجة. رفع كتفيه وأنزلهما وقال:

- نعم في غاية التأكد.

اتكأ «مسـطروف» إلى الخلف بشكل مـرتـاح. أخذ ثلاثة أنفـاس متـلاحقة من سيجارته أطفأها في الطفاية، وقال:

- اسمع كنت تريد أن تعرف كيف أصبحت غنياً. والآن أستطيع أن أقول لك هذا بصراحة. وكيفما كان الأمر فإنك على فرض إن قدمت في شكوى فلن تجد من يستمع إليك ويصدقك.

- لا أفعل ذلك، ولم أفعله؟ لقد انقطع ما بيني وبين القيصر.

- على كل حـال سأقترح عليك عملاً. وسـأقوله لك مقدماً، يجب عليك أن تلقي جانباً بكل قواعد الأخلاق. سأرسم لك لوحة غناك بأقصر الطرق، هل أنت مستعد؟.

- نعم مستعد.

مرت بعينيه لحظة تردد أخرى. لكنه كرر قوله:

- نعم مستعد.

اعتـدل «مسطـروف». وذهــب ليضــع يــده عـلى كتــف «بوشكين».

- لم أكن أحبك، ولكني غالباً بدأت أحبك. طبعاً لو قبلت هذا.

– أقبل.

– لا داعى للعجلة. كن على علم أولاً بالعمل الذى ستقوم به ثم قرر بعد ذلك.

وجلس فى مكانه مرة أخرى.

– سيعطونك مجموعة صناديق. وستنقلها إلى القوقاز.

كان «بوشكين» يعلم جيداً أنه لن يكون فى داخل هذه الصناديق شىء غير السلاح والذخيرة، ولكن لم يكن فى ذهنه الآن غير شىء واحد هو أن يصبح غنياً. غنياً بأقصر الطرق. هز رأسه وقال:

– قبلت. متى أبدأ؟.

– تخرج هذه الليلة معنا. سترسو سفينة فى الميناء.

– هكذا بمنتهى الوضوح؟.

– هذه الطريقة هى الأكثر أماناً. جربنا كل الطرق فوجدنا أن السرية لا تحل المشكلة. لو قمنا بهذا العمل أمام الأعين فلن نلفت الاهتمام.

– وهل أنت الرئيس؟.

رفع «مسطروف» يده وابتسم، وقال:

– لا تكن فضولياً هكذا. يكفيك الآن أنك تعرفنى. وستعلم كل شىء فى حينه.

– أفهم. وأين سنلتقى؟.

– هل ستذهب إلى مكان ما؟.

لم يكن لدى «بوشكين» برنامج قط. إذا خرج من هنا سيذهب إلى منزله، وإلا سيتجول فى الشوارع على غير هدى. وقال:

– لا، لن أذهب إلى مكان ما.

- إذن ابق هنا. نشرب شيئاً معاً. لابد أن نحتفل بانضمامك إلى المجموعة.

- مجموعة؟.

- يعنى أقصد المنظمة. على كل حال فلنتحدث عن شيء آخر الآن. لن يمر عام واحد إلا وجيوبك مملوءة . وأنا أيضاً أريد أن أستقيل هذه الأيام من خدمة القيصر.

- لا أستطيع فهم مسألة وهى لماذا تبقى معه حتى الآن ؟

- لابد أن تعرف. نحتاج إلى أشخاص نوى نفوذ. ننجح فى هذا عند تواجدنا فى القصر. عملت جاهداً لأقترب منك كثيراً لكن جرأتى كانت تذهب هباء لأنك كنت مثالاً للشرف. وعلى كل حال. لم يحدث شيء معاكس. ها أنت ذا قد جئت. لا أظن أن أصدقاءك سينفضون عنك حالاً. وفى النهاية سينفضون عنك. ولكن حتى ذلك الوقت لابد من استغلالهم.

نادى خادماً وأمره - دون أن ينظر إليه - قائلاً:

- هات لنا شراباً أحمر .

عمل «بوشكين» فى تهريب السلاح إلا أن مناقشات حادة ونزاعات شديدة ومستمرة كانت تقوم بينه وبين «مسطروف» بسبب «كاتينا» بين الحين والآخر. وفوق هذا فقد كان «مسطروف» يفضل أن يضبط طموح هذا الشاب. فلم يكن يعطيه من النقود إلا قليلاً حتى أن «بوشكين» أخذ يفكر بأن هذه الحال إذا استمرت فلن يغتنى فى يوم من الأيام.

وبالطبع كان لدى «مسطروف» البدين حساباته الشخصية. لقد أمسك بـ«بوشكين» من عقدة طموحه. وهو الغنى فإنه إذا أصبح غنياً ذات يوم فسيتوقف عن الاستمرار فى العمل لذلك كان يتصرف تجاهه بحساب دقيق. أما سبب قبوله فى العصابة فقد كان لإظهار أهميته أمام «كاتينا». وكان يعتقد أنه بذلك سيثبت قدرته وتفوقه أمامها. والواقع أن هناك تغيراً كبيراً أصاب تصرفات المرأة.

إنها على الأقل لم تعد تستهزىء بكرش «مسطروف» كما كانت تفعل من قبل. بل وصل الأمر بها أنها امتدحت هذا الكرش مرتين ووصفته بأنه لطيف. وكان هذا أكبر شىء بالنسبة لإنسان بدين. كان «مسطروف» بذلك يتصرف فى «بوشكين» كأن هذا الأخير نقود «فكة» يصرفها. والحق أنه كان يحس بنشوة كبيرة من جراء هذا.

وبينما الأمر على ذلك كانت السفن ترسو فى الميناء، وهى ممتلئة بالسلاح والذخيرة وعليها لافتات تشير إلى أنها تحمل برتقالاً وليموناً

وزبيباً. تفرغ حمولتها أمام الناس جهاراً نهاراً. ولم يكن أحد يشعر بأن الميناء قد أصبح منبعاً عظيماً لتهريب السلاح الذى يتدفق أمام أعينهم ولم يكن ليستطيع أن يلاحظ هذا لو لم يخضع «بوشكين» تحت لحظة انفعال طارئة فيخبر المسئولين.

فى ذلك اليوم. وبالمصادفة البحتة، عرف «بوشكين» من يكون رئيس هذه العصابة . كان موظفاً كبيراً يعمل فى وزارة الخارجية. يبدو وكأنه قد وضع الخارجية الروسية فى قبضة يده.

كان عرق الوطنية قد نبض فجأة فى «بوشكين» فاتجه إلى وزارة الدفاع واعترف بكل شىء إلى مساعد الوزير. بدأ المسئولون عملهم بالقبض على «بوشكين» ثم جمعوا أعضاء العصابة واحداً تلو الآخر. وأجبروا الجميع على الاعتراف المطلوب. وانسد تماماً طريق السلاح هذا الموصول إلى الشيخ «شامل».

كان القيصر بذاته مهتماً بالموضوع. وقدر القيصر الخدمة التى أداها «بوشكين» فعفا عنه ولكنه اتخذ تدابير شديدة لمنع حركة نقل السلاح إلى القوقاز من الحدود العثمانية.

لم يعد القوقاز يجد السلاح إلا بمشقة بالغة، ولم تكن الآمال معلقة إلا بالهجوم على القوات الروسية والحصول منها على السلاح. ولم يكن هناك طريق آخر لذلك. لذا كان من الضرورى الهجوم الدائم لتحقيق هذه الآمال. واتجه الشيخ «شامل» والذين معه لهذا بكل سرعة.

أعد القيصر - فى نفس الوقت - خطة وقيعة دقيقة بين الشيخ «شامل» والحاج «مراد». وقد أرسل تعليماته بذلك إلى القائد العام للقوات الروسية فى القوقاز طلب منه فيها خداع الحاج «مراد». فكتب هذا بدوره الخطاب

الآتى إلى الشيخ «مراد»:

«إنك تعلم أن ليس لهذا الصراع بنهاية. الإمام «شامل» يسفك الدماء عبثاً، ويبدد بلا سبب ولا غاية قوى إخوانه فى الدين. إنه خاضع لطموحاته. ونحن نعدك بملك بلاد الآوار «آوارستان». إننا - روسيا - نعضد الدولة التى ستؤسسها وتقيمها وتعلنها وستعيش الدولتان فى إطار من علاقات الصداقة والمودة. ليس لنا تجاهك حقد وسوء نية وإنما كل حقدنا موجه نحو «شامل». وإنه بدوره يكن الحقد لنا وفى وهج هذا الحقد المتبادل يحترق النصارى ويحترق المسلمون. مع أن ليس لهم ذنب ارتكبوه. فلنتراجع.

يستطيع كل مسلم - إذا أراد - الالتحاق بك. وكل من يلتحق بك يعد من شعبك. وأقسم بأن لن يصيبك منا مكروه. وسنقدم لك كل مساعدة وعون حتى تتطور ويعلو أمرك. وعلى هذا سنستريح نحن وأنتم. وكل من لا يلحق بك سيعد متمرداً.

فكر فى اقتراحنا هذا..

وامنع سفك الدماء عبثاً واكسب ثواباً ....».

***

يقول الشيخ «شامل»:

- الهدف: «تمير خان شورى» فلنتقدم هيا إلى الأمام!.

أخذ فرسان القوقاز وقد قاموا كزوبعة الجليد يهدرون كالسيل الجارف، فإذا بهم قد أصبحوا أمام «تمير خان شورى» فى وقت الفجر.

وبعد صلاة الفجر وقد أدوها فى مجموعات أخذوا فى حصار القلعة. بدأت المدافع التى غنموها من الروس فى صب الموت على البطاريات

الروسية.

كان الجنرال «غوركى» هذا الرجل الذى باع دمه فى سبيل المال، كان بين أول من تسلق الأبراج وقد أخذه الفضول من هذه الجلبة والضوضاء التى تصيب بالصمم فى هذه الساعة المبكرة. وعندما اطلع على الموقف على الطبيعة أصابه الذهول. إنه رجل خبير بالحروب متمرس بها ورغم هذا لو صدر إليه يوماً ما الأمر بالقيام بمثل هذه الحركة العسكرية وأن يصل فى هذا الزمان القصير من «پالاڤان» إلى «تمير خان شورى» فلن يتردد لحظة فى تقديم استقالته.

نظر يمنة ويسرة. وبحثت عيناه اللتان قد اتسعتا، فى وجه كل جندى ووجه كل ضابط عن طريق للنجاة. لكنه لم يجد.. الوجوه عابسة والنظرات باردة متجمدة. وعندما رأى أن لا فائدة من أحد، أخذ يصب جملة من الأوامر العشوائية شمالاً ويميناً.

ولاشك أن كان فى إمكانه الاستمرار فى إصدار أوامره العشوائية هذه ويوزعها يمنة ويسرة لولا انفجار قذيفة مرت بالقرب منه وسقطت فى وسط القلعة تماماً. لم يكن فى الأمر هزر. وكان لابد من مرور نصف ساعة حتى يدرك هذا.

غير كل أوامره التى كان أصدرها أثناء ما كان مأخوذاً من الدهشة. وإلا لكانت القلعة قد انهارت من جراء الدفاع الخاطىء.

لم يكن الشيخ «شامل» قد انجر عاطفياً لا نحو «تمير خان شورى» ولا لمنظرها الرائع. كانت رغبته الوحيدة الاستيلاء على دار الذخيرة فيها. كان قد اتخذ قراره من وقت مضى بأن لابد أن يحقق تكامل تسليح جنوده.

وإلى أن حان وقت صلاة الظهر كان قد هاجم من ناحيتين بعد أن انتهى

دك هدفه بالمدافع. كانت الناحية الأولى بقيادة الحاج «مراد» والثانية بقيادة الشيخ «أولوبى» وصبت قوات الاحتياط المساعدة التى لحقته نيرانها على القواعد الروسية جيداً.

كان الجنرال «غوركى» يرى أن الحذاء قد غلى وارتفع ثمنه. حقاً إنه كان يعلم جيداً بحكم خبرته وتجاربه أن الحرب مع الداغستانيين وتحديهم أمر ليس بالسهل أبداً رغم تفوق الجنرال عددياً ومدفعياً وذخيرة. إن أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذا الأمر هو طلبه النجدة من الجنرال «فرايتاج» والجنرال «أرغوتينسكى» وكلاهما قريب من «تمير خان شورى».

انقطع الاتصال البرقى بين القلعة وخارجها وبالتالى فإن طلب النجدة قد توقف. وكان السبب فى هذا أن فرقة «المغيرين» التابعين للشيخ «شامل» قد قطعوا منذ مدة بالمقصات خطوط الاتصال وسريعاً لاحظ الروس أن طلب النجدة لا يعمل ولم يكن أمامهم من حل إلا إرسال مخبر لطلب النجدة.

خرج فى تلك الليلة مائة شخص على الأقل من فتحات معينة من جوانب القلعة الأربعة مستفيدين من الظلام. كان التفكير أن يصل عدد منهم على الأقل لطلب النجدة. وقد حدث هذا. حقيقة أن أغلب هؤلاء المخبرين قد وقعوا أسرى فى أيدى الداغستانيين ولكن استطاع بعضهم الوصول إلى المعسكرات المجاورة لإبلاغ الموقف.

كان الشيخ «شامل» ماهراً فى حساب كل شىء واحتمالاته قبل وقوعه. فقد كان يعلم أن قواته قليلة العدد وأن القلعة كانت قوية فى الدفاع من الداخل ومن الخارج. وعلى هذا فإن وصول «فرايتاج» و«أرغوتينسكى» معناه أن الموقف سيكون وخيماً. والأصل عنده أن «تمير خان شورى»

موقف لا يميزه غير مخازن الذخيرة المكدسة فيه.

وسريعاً كان قد اتخذ قراره. أمر بخداع قوات العدو التى ستأتى للنجدة مهما كلفه الأمر، بعد أن أقر خلفه مفرزات عسكرية قوية. ورفع الحصار عن القلعة وهاجمها من ثلاث جهات.

لم تتحمل كثيراً تلك المتاريس التى كانت أمام القلعة. اهتزت الصحراء التى ملأها صدى أصوات التكبير «الله! الله!» بأصوات أقدام العسكر الروس الذين كانوا يهربون رعباً. كان العسكر الروس يؤمنون بأنهم لا محالة ميتون إما بسيف ششنى أو بطلقة بندقية آوارية، أرادوا الاحتماء بالقلعة. لكن الجنرال «غوركى» كان قد أمر بإحكام إغلاق أبواب القلعة أمام الجميع وإطلاق الرصاص على من يقترب من القلعة صديقاً كان أو عدواً. وكان العسكر الروس يرفعون أياديهم وأذرعهم صارخين بقوله:

- لا تطلقوا الرصاص! نحن منكم.

ولكن عبثاً ذهبت صيحاتهم وصراخهم.

لقد لفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت نيران رفاقهم. وكان نصيب قسم آخر منهم الموت بالسيوف الششنية.

هبت فى القلعة رياح رعب. انحطت من جرائها معنويات الروس. لو كانوا تحركوا بسرعة للحق بهم «فرايتاج» من مدة ماذا يمكن أن يفعلوا إذا لم يستطع أحد قط من المخبرين الوصول إلى طلب النجدة. ماذا يمكن أن يحدث إذا كانت الطرق مقطوعة، أو إذا طبق المهاجمون تكنيك الخداع.

والخوف يأتى بعد التردد. والخوف يؤدى إلى تأثير يمنع اتخاذ القرارات الصائبة وهاهو ذا الجنرال «غوركى» قد وقع فى هذا الموقف.

كأن رأسه قد خلت لم يكن فى ذهنه فى تلك الأوقات أى شىء من تجاربه

التى اكتسبها عبر معارك كثيرة خاضها حتى الآن ولا التكنيكات الحربية. ولا أصول الحرب. إذ أنه كان يؤمن بأن إحداها لن تستطيع إنقاذه من هذا الموقف الذى هو فيه.

قد يكون الشيخ «شامل» فى ذلك الوقت قد أمسك لحيته بكفه وأخذ يفكر فى أن لو كانت القوات التى تحت يديه أكثر من ذلك لكان من الممكن أن تنتهى «تمير خان شورى» من الجغرافيا. على كل حال فهو الآن صاحب إمكان محدود للغاية. إنه يحارب بالعقل ولا يحارب بالقوة.

ظهر العقيد «پاسيك» - مرة أخرى - فى الميدان. ترك الحاج «مراد» «خون زاه» وتوجه لمساعدة الشيخ «شامل» فظن العقيد أنه بمجرد ذلك سيكون حراً. فتوجه بالقوات التى معه نحو نقطة «زيران» ومن هناك يسرع بنجدة «غوركى» هذا هو تصور العقيد، لذا استدعى «شامل»، الحاج «مراد» وقال له:

- اذهب وحاصر «پاسيك» فى «زيران» لكنه إذا أراد الخروج من القلعة فلا تمنعه، يسر له هذا الأمر وافتح له طريقاً من جهة «إيرغاناى».

وفهم الحاج «مراد» الباقى فأكمل قائلاً:

- فإذا وقع فى الفخ، نتبعه لنقتل جنده.

نظر إليه «شامل» بتقدير، وقال له:

- كنت أعلم أننى أمام عبقرى من عباقرة الحرب. أعانك الله.

ترك الحاج «مراد» المنطقة وكأنه يطير.

وطبق خطة «شامل» بسرعة. قام أولاً بفرض الحصار، ثم انسحب. ولم يستطع العقيد «پاسيك» أن يفهم معنى هذا التراخى. فظن أن عدوه وقع فى غفلة، فخرج من القلعة. وساقه الحاج «مراد» إلى طريق «إيرغاناى». فكانت

وجهة نظر «پاسيك» أنه وجد طريق رجعة، وعلى ذلك فيمكنه اللحاق قريباً بالجنرال «غوركى». وكان يأمل بذلك أيضاً أن يحوز فى مرة واحدة على ترقيتين:

لم يصدق أذنه حين سمع أنه يهاجم، يهاجمه المتعقبون له. تعامل بخشونة شديدة مع الذى أوصل إليه هذا الخبر وقال له:

– ماذا.. ماذا تقول يا....؟.

تلاحقت أنفاس الرجل ورد عليه قائلاً:

– الحاج «مراد»!!.

– ما هذا الذى تقوله؟! إن استخباراتنا قوية، وهى التى قالت لنا إنه مع «شامل» الآن.

– تفضل ياسيدى وانظر بنفسك ماذا يجرى!!.

فضل العقيد «پاسيك» أن يرسل ضابطاً يثق فيه، وذلك بعد أن حسب حساب رصاصة مجنونة قد تودى بحياته. وعندما ذهب الضابط إلى مكان الواقعة وجد أن أجساد جنود روس بلا رؤوس قد تكومت فأصبحت كالتلال. وقعت النظارة المكبرة من يده أرضاً فتحطمت. انتصر بصعوبة على دهشته وأسرع بحصانه وأوصل الخبر إلى قائده.

جن جنون العقيد «پاسيك» ووقع فى حيرة لا يدرى فيها ماذا يمكن أن يفعل. لم ينبس ببنت شفة. ولو لم ينبهه الضابط فأيقظه لكان من المحتمل أن يظل فى حيرته هكذا فترة أطول. ولسلم رقبته لسيوف الآواريين.

– سيدى العقيد!! سيدى العقيد!!.

نظر إليه بعينين نائمتين مخمورتين كأنهما مستيقظتان من النوم الآن.

– نعم.. ماذا.. ماذا هناك؟.. ماذا يحدث؟..

– لو انتظرنا قليلاً سنموت.

– نموت؟ نعم.. نعم.. الداغستانيون يهاجمون. أليس كذلك؟ هيا سريعاً.. التفت إلى الضابط وسأل سؤالاً سخيفاً جداً.

– كم كانوا؟.

بهت الضابط، وقال:

– كم شخصاً؟ لو كنت سيادتكم هل كان من الممكن العد؟.

– أيها العبيط أنا الذى أسألك ولست أنت الذى تسأل.

– لم أستطع العد ياسيدى العقيد.

همهم بكلمات ثم أسرع بحصانه.

وبدأ فى الهروب السريع، كانا مع الجميع يهربان وهما خائفان من النظر خلفهما فالذى فى الخلف مجموعات من المخلوقات الغريبة لا يؤثر فيهم رصاص ولا طلقات مدفع وكأنهم ليسوا من البشر ليسوا من دم وعظم كالبشر. والواقع أن الفرقة المكلفة بالمحافظة على التموين والمدافع لم تستطع تحمل هذا الهروب السريع فكانت مجبرة على ترك المدافع والتموين ليسهل هربها نجاة بأرواح أفرادها وكانوا فى موقف تفضيل أيهما. ودار بين اثنين من رتبة مساعدى الضابط حوار هو:

– إنهم يكادون يلحقون بنا يا«پاشو»، ماذا نفعل؟.

– أهذا سؤال؟.

– أتريد أن تقول إننا نحارب باسم القيصر؟.

– ومن أين أتيت بهذا الكلام، لو اجتمع عشرة ملوك هل يمكنهم تغيير قدر راعى غنم بسيط؟ إننا مضطران الآن لتعيين قدرينا. إما الموت وإما..

وقام بأداء حركة معناها «الهروب» وأشار إلى الطريق وقال:

– إننا نصارع قوة أعلى منا. ألم تعرف بعد طعم السيوف الآوارية؟.

– ماهو الصحيح فى الأمر؟.

– لا أدرى إن كان هو الصحيح أم لا. ولكن لابد من إنقاذ روحينا. لو متنا هنا ميتة الحمير فربما يضع القيصر على صدر أبى ميدالية فضية.

وهز رأسه على الجانبين وقال:

– إنى واثق أن أبى يفضل أن أشتغل معه فى الحقل على أن يحمل هذه الميدالية.

– يعنى هذا أنك تقول بأن نهرب، تاركين الأحمال؟.

– يعنى أنك فهمت هذا أخيراً.

– إيه.. وماذا نفعل؟ كان أبى يقول دائماً: «إن الإنسان يسير فى الطريق الذى رسمه له قَدَره، وليس فى الطريق الذى يختاره». وغالباً إنه الطريق الذى أمامنا وعلينا ألا نضيع الوقت.

ثم التفت إلى الجنود وقال:

– اتركوا الأثقال، هيا إلى الانسحاب السريع..

جرب الذين لا يحاربون بشجاعة، كل قوة أقدامهم. لكن رجال الحاج «مراد» فرسان لذا نزلوا مثل الصقور على رؤوس الروس الهاربين. ومن طلب الأمان منهم أمنه المسلمون على روحه، وأسروه. ومن أشهر منهم سيفه كان نصيبه القتل بسيوف المسلمين. ووقعت المهمات الروسية من تموين ومدافع فى يد المسلمين.

أما العقيد «پاسك» فقد نجح فى أن ينقذ نفسه مع مجموعة من الجنود ولجأ إلى الجنرال «كلوج فون كلوجناف» وهو فى أشد حالات الاضطراب والإنهاك.

كانت كل الجبهات تموج بأخبار النصر. لقد أدت هيئة أركان حرب الشيخ «شامل» واجباتها على أكمل وجه. ترك الروس معداتهم ولوازمهم الثقيلة. وقتلوا وراء أسوار «تمير خان شورى» بقى شيء وحيد أمام الشيخ «شامل»، الاكتفاء بما حصل عليه والانسحاب بشكل منظم. كان الهجوم على «تمير خان شورى» خطأ عسكرياً عظيماً. القلعة محصنة، وجنودها كثيرون بالإضافة إلى أن الذين جاءوا من الأطراف واحتموا بالقلعة رفعوا درجة الكثافة العسكرية إلى مستوى رهيب، والواقع أن ما أراده الشيخ قد حدث. ومنذ أن سدت منابع الحصول على السلاح أمامهم، لم يحصل المجاهدون على عتاد ضخم بهذا القدر. ولو كانوا قد أتوا بهذا بطرق التهريب لكلفهم الكثير جداً من النقود. والروس أهدوا رغماً عنهم كل هذا العتاد بسبب ارتباك عقولهم.

إذن فلا فائدة من الانتظار. إنه لم ينتظر حتى يقوم الروس بهجومهم العام وإنما قاموا هم بالهجوم المعتاد وأعملوا فيهم القتل.

قال أحد المؤرخين الروس وهو يحكى بقلمه هذا النصر الذى أحرزه أعداؤه - المسلمون - على بنى جلدته - الروس - بشكل يبلغ درجة غريبة من التعبير.

مستحيل أن ينكر أحد أننا هزمنا هزائم جادة فى معاركنا مع الآواريين هذه المعارك التى استمرت من ٢٧ أغسطس حتى ٢٢ كانون الأول . وبلغت خسائرنا العامة فى هذه المعارك من قتلى وجرحى وأسرى ومفقودين: «٩٢ ضابطاً و٢٥٢٨ جندياً و٢٧ مدفعاً صحراوياً وثمانية مدافع قلعة و٨٦٨ حصاناً وعديداً من المواد العسكرية».

وإضافة إلى هذا، فقد دمرت لنا ثمانى قلاع و١٢ مركزاً عسكرياً

واستولى الداغستانيون تماماً على مراكز تحمل أهمية حياتية وغاية فى الخطورة مثل «أون صوقول» و«پالاقان»، و«موكسوق» و«أوهالجى» و«ظاس طاناخ» و«هوصاد» و«كراكبيل» وقلعة «بورو ندوق» و«خون زاه» و«نوزوڤويه» و«زيران» و«كيميرى».

ويسجل بعض المؤرخين أن هذه الأرقام ينبغى أن تضرب فى خمسة على الأقل. ويبدو أن هذا صحيح. ذلك لأن الجنرال الروسى «كيديمان» يكتب ما نصه:

يخل قوادنا تماماً بجدية البلاغات العسكرية، وهؤلاء يظهرون مهارة قصوى فى بيان خسائر العدو، فى الوقت الذى لا يمكن فيه إنكار خسائرنا الهائلة.

إن الإنسان ينظر إلى جسامة خسائر العدو التى ترد فى تقارير قوادنا الحربية فلا يملك نفسه من العجب من أن هناك من شعب داغستان من لا يزال حياً منذ اليوم الذى بدأنا فيه حربنا للاستيلاء على القوقاز ، وإلى اليوم. وإلا فلو صدقنا هذه التقارير فإن لنا أن نتصور أن كل داغستانى فى القوقاز قد مات، ولا يبقى هناك أثر لداغستانى واحد!..

ويصدر جنرال روسى هذا الحكم التالى قائلاً:

ولاسيما ما يتمتع به «شامل» من عبقرية عسكرية عظيمة نادرة فى إدارة الحروب وتحريك الجنود. وهذا ما يجعل كفة ميزان النصر دوماً بجانبه.

كان «كيديمان» لايزال ضابطاً صغيراً فى معركة «تمير خان شورى». لكنه كان يمتلك عقلاً عسكرياً يعمل. كان يستطيع أن يقيم بإنصاف وعدل، عجز هيئة الأركان الروسية ، كما كان يفعل ذلك أيضاً تجاه هجوم

«شـامل» وانسـحـابه بمهـارة فـائقة بعـد أن يعـمل مـا كـان يريد عـمله. وبعـد سنوات يصبح هذا الضـابط الروسى الصـغـير جنرالاً كـبـيراً فى الجـيش القـيـصرى فـيكتب عن مشـاهداته ولا يملك نفسـه أبداً مـن أن ينحنى أمـام «شـامل» الذى وصفه من قبل بأنه عبقرى عسكرى قديم.

أصديق أم عدو؟

كان الإمام «شامل» صقر داغستان العظيم قد جعل أعداءه المنصفين يجلونه ويحترمونه، وأشد ما يحزن أنه كان هدفاً للسهام المغرضة التى أطلقها عليه أشخاص كان من الواجب أن يكونوا له أصدقاء. واحد من هذه السهام جاءت من «عيسى خان» وهو أحد رؤساء قبائل الآوار.

كان الشيخ «شامل» جالساً يتحدث مع بعض نوابه فى منزله بقرية «داركو». فدخل الحارس عليه. وهمس له فى أذنه بشىء قاله:

- اثنان من رجال «عيسى خان» يريدون رؤيتك.

اتقد وجه «شامل» فجأة بالنور. ارتفع بشكل لطيف حاجباه المقطبان الرقيقان. وقال:

- دعهما يدخلان.

التفت إلى نوابه وقال:

- خيراً إن شاء الله. أرسل «عيسى خان» رسولاً. منذ متى ونحن ندعوه للانضمام إلينا والرجل يرفض.

أشار بيده إلى مكان بجواره ليجلس عليه هذان اللذان دخلا عليه من الباب. كان الأول منهما ذا أنف محدودب ووجه عبوس، والآخر بديناً بعينين صغيرتين. وقفا أمام الباب كأنهما سمرا تسميراً دون أن يلقيا بالسلام. تحرك الشيخ «شعيب» - من نواب الشيخ «شامل» - علامة على الضيق. من المحقق أنهما لا يحملان خيراً مثلما كانوا يأملون. كان هذا مفهوماً بمجرد النظر إلى وجهى هذين الرجلين. قال الإمام:

– ألا جلستما. أهلاً بكما.

اقترب الآوارى البدين بينما كان ذو الأنف المحدودب يتلفت يمنة ويسرة . خلسة اقترب الآوارى البدين ووضع يده فى صدره. وانطلق فى نفس اللحظة الحاج «موسى خيتين أى» من مكانه كالبرق واحتضن ذلك الرجل بقوة. أمسك رسغه قبل طرفة عين وإغماضتها ولواها إلى الخلف. صاح الرجل بألم :

– آه!.. ما هذا؟.

زأر الحاج «موسى» من مكانه الذى يجلس فيه، قائلاً:

– قل ما هذا الذى قمت أنت به؟ تدخل دون إلقاء السلام وتقبل على الإمام دون احترام. ومعلوم ذلك الخنجر الذى لم تستطع إخراجه من صدرك.

همهم «كعبت محمد» وقال:

– وفوق هذا لا يجيب الدعوة ولا يجلس فى المكان الذى أشير إليه به.

لم يهتز الإمام «شامل» قيد أنملة، ولم تتغير حتى هيئة جلسته. كل ما فى الأمر أنه هز شفتيه وقال للحاج «موسى»:

– دعه.

– وإذا كان قد تصرف تصرفاً خاطئاً، أو كانت نيته خبيثة؟.

كرر عليه القول:

– دعه .

– أتعرف معنى ما أقدمت عليه؟ إنك تمسك بالموت بكلتا ذراعيك.

قال الرجل غاضباً:

– أنا لم آت وفى نيتى شىء من هذا. إنى أحمل رسالة من «عيسى خان»، إنه لن ينسى تصرفك هذا أبداً.

ترك الحاج «موسى»، البدين الآوارى، وقال له:

- ماذا لو قلت هذا فى حينه.

لكنه لم يجلس فى مكانه. وذهب ليقف وراء «شامل» تحسباً لأى احتمال مفاجىء. وقف منتصب القامة يحمى رئيسه.

قال «شامل»:

- نعم. أعطنى هذه الرسالة.

كان واضحاً من صوته أن أمله قد انطفأ. قطب عن حاجبيه مرة أخرى.

أخرج الرجل الرسالة من صدره ومدها إليه.

- إنه جواب على آخر اقتراح لكم. لم يعد مولاى العظيم «عيسى خان» يرغب فى أن تزعجوه بعد ذلك، ويقول إن لكل واحد طريقاً وعليه أن يختاره. و«عيسى خان» فى الطريق الصحيح. أما إذا أطعتموه فهو مستعد للقبول.

نظر إليه الشيخ «شامل» نظرة خاطفة جعلت الرجل عاجزاً عن ابتلاع ريقه فتوقفت الكلمات فى حلقه. ثم تعثر فى الكلام عدة مرات، واضطر إلى أن يدير رأسه إلى جهة أخرى.

وهمهم بقوله:

- إنى ذاهب:

تعقب «شامل» بعينيه خروج الرجلين بل استمرت نظراته نحوهما حتى بعد خروجهما وغيابهما عن الأنظار. وبعد ذلك فتح الرسالة فوجد فيها ما يلى:

«من عيسى خان إلى «شامل»..

- لقد اغتصبت الإمامة. لقد تصورت أن موت حمزة بك غنيمة تقتنصها فوقعت فى حب الشهرة وأردت أن تكون إماماً بينما كان هناك من هو أقدم منك فى نيابة الإمام حمزة بك وأصبحت ممثلاً لمسلمى القوقاز مع إنك لم

تكن جديراً بهذا، إذن فعليك أن ترجع عما أنت فيه. وينبغى انتخاب قائد يستصوبه جميع المسلمين. ويمكننى أن أطيع رئاسة آخر غيرك، أما تحت أمرك أنت فمستحيل».

وكما بدأ الخطاب بدون سلام فهكذا انتهى. رفع الإمام «شامل» رأسه وقال:

– ما رأيكم؟

صاح الشيخ «أولوبى» قائلاً:

– أرى أنه قد جن. ما الداعى إلى اللجوء إلى تفسير آخر لفهم تصرفه؟ جنونه واضح جداً.

«شامل» ساكن هادىء، ومع ذلك عقب على هذا فقال:

– الطموح فى المنفعة مساوٍ للجنون. ولكن علىّ أن أستشيركم فى اقتراحه هذا. أنتم ممثلون عن القوقاز وآوارستان وششنستان. أريد أن تقولوا لى ما تولد فى نفوسكم. أريده لوجه الله. هل أنتم راضون برئاستى؟.

أجابوا جميعاً فى صوت واحد.

– راضون.

– ورضى الله عنكم.

– يمكن للقوقاز كلها أن تنال حريتها تحت قيادتك.

قال موسى:

– هل هناك ضرورة للانقياد لمفسد. هل لابد من أن تقلق على موقفنا؟ إن غالبية الأمة تقف معنا. فهل لابد من إفساد الوحدة بأن يذهب كل منا إلى جهة مختلفة مثلما يفعل عيسى خان؟ أليس واضحاً أن الجيوش الروسية ستستفيد من هذا؟.

صدقوا على قوله:

- واضح واضح.

- وفى الاتحاد قوة.

- والحديث الشريف يأمر بالاتحاد.

- ما يفعله عيسى خان ليس إلا التفرقة. يجب ألا ترتفع الحسابات الصغيرة فوق المبادىء العظيمة. والحقد على الأشخاص، ينبغى ألا يوجه لخنق الأمة. وواجب الآن خنق عيسى هذا بحقده.

نظر «شامل» إلى نوابه واحداً واحداً. ولم يكن فى عينيه غير حب الاعتدال وحب الواجب.

- والقرار الآن فى أية جهة؟.

أنزل الجميع رؤوسهم نحو الإمام.

قال الإمام:

- ينبغى ألا نتعجل. لنجرب مرة أخرى، فربما يفهم الرجل خطأه ويعدل موقفه. نبعث إليه بمجموعة من علماء الشرع ليوضحوا له أن الطريق مسدود وليس هناك فارق بين هذا وبين خدمة الروس.

قال الحاج «موسى»:

- لا، فكل حركاته وأحواله حتى الآن تقول بأنه يسير فى الطريق المعاكس. ولم تعد لدينا القدرة على تحمل خسارة فى الوقت مرة أخرى. لابد من حل هذه المعضلة من جنورها، وإلا فالوقت ليس فى صالحنا. وأفضل الأمور هو إطفاء نار التفرقة فى المكان الذى ظهرت فيه قبل أن تستعر النيران وتنتشر فى كل داغستان.

أبدى «شامل» ترحيبه بهذا الموقف المتشدد. وقال:

- جميل قولك هذا ياحاج «موسى». ولكن يخيل إلىّ أنك تدخل أحاسيسك الشخصية فى الموضوع. وواضح نفورك من «عيسى خان».

أجابه الحاج «موسى» بقوله:

- بالطبع إنى أنفر منه. ويجب معاقبته.

ابتسم الشيخ «شامل» من تحت شاربه.

- يجب معاقبة المذنبين، ولكن ليس بأحاسيس الانتقام والنفور، وإنما بالعدل..

خجل الحاج «موسى» من خضوعه لأحاسيسه الشخصية هذه، وفى طفولة بريئة يشوبها الاندفاع قال:

- أنت على حق يا إمام.

- والآن إلىّ بقراركم.

وأبلغوه القرار:

- فلنرسل إلى «عيسى خان» - كآخر فرصة له - وفداً من علماء الدين، وبالتالى نكون قد أدينا واجبنا تجاهه للمرة الأخيرة.

ملاحظات

كان الحاج قاسم بين علماء الدين الذين أرسلهم الشيخ «شامل» لكى يقنعوا «عيسى خان» بالعدول عن معارضته هذه التى لا معنى لها. استقبل «عيسى خان» ضيوفه بوجه عبوس وبدلاً من أن يفسح لهم مكان الصدارة بالمجلس إذا به يعبر المكان لكى يجلس هو فى الصدارة. وأشار إلى عدم اتكائهم على المخدات الموضوعة فى الأرض. وبدأ هو فى التحدث دون أن يهتم بما يمكن أن يقولوه.

- لقد خدعكم جميعاً. إنه يستخدمكم لإرضاء طموحه فى الإمامة. وأنتم لا تدرون بهذا. انضموا إلىّ، وأعطيكم ما تطلبونه من مناصب. وأغرقكم فى الذهب. وماذا لدى «شامل» أن يعطيه لكم؟.

وعندما وصل الكلام إلى هذا الحد انفجر الحاج «قاسم» قائلاً:

- للشيخ «شامل» قلب كالذهب، وروح مفعمة بالإيمان، وهدف أعلى من جبال الشيشن. وإذا قيس كل هذا بذهبك الأصفر تكون أنت مسكيناً جداً.

غضب «عيسى خان» وبان غضبه على وجهه، واحمرت عيناه أيضاً. ومد إصبعه إلى صدر الحاج «قاسم» وكأنه فوهة مدفع صنع فى روسيا، وصاح بغضب:

- انظر أيها الدرويش، لا تكثر الكلام. ولن تنقذك قاعدة «لا مساس بالرسول» ولا تركن إليها كثيراً.

همهم الحاج «قاسم» وكأنه يحدث نفسه:

- لابد من الخوف ممن لا يخاف الله.

انطلق «عيسى خان» من مكانه بحدة، وقال:

- ماذا!.. أتقول لى إنى لا أخاف الله؟.

- هذا لا أقوله أنا، أنت الذى تقوله.

- افتح أذنيك وانصت إلىّ جيداً، قل لـ«شامل»: لقد أقسم «عيسى خان» أن يحرر كل القوقاز ويحررها بنفسه لو اقتضى الأمر. وليس بمقدور أحد أن يثنيه عن عزمه. ولا يهمنى أن يرسل لى أربعمائة عالم وليس أربعة فقط. عندى العلم، وعندى المال، والرجال حولى بالقطعان. وصحتى والحمد لله طيبة. وإنى فى قوة تجعلنى أنفذ ما أقوله.

سعل أحد العلماء، وقال:

- الزعامة ليست بالصحة، والمال، والطموح.

- إذن فبم تكون؟.

أشار إلى قلبه، وقال:

- بهذا

أطلق «عيسى خان» القهقهات وجلس فى مكانه وقال:

- ها.. ها ااى!.. ظننت أنك ستقول شيئاً ذا بال، إن القلب الذى أحمله مثل قلب الجاموس، فماذا ظننت.

- إن كلمة مثل، لكثيرة غالباً.

- ماذا.. ماذا قلت؟.

وجه عينيه إلى السقف دون أن ينتظر جواباً. وضرب بلكمة منه صدره الذى كان يعلو ويهبط مثل المنفاخ. وقال:

- سيجتمع كل المسلمين تحت أمرى. وسأنتصر بهم نصراً بعد نصر. ولن أكون جباناً مثل «شامل» فلن أسلم ابنى للروس. ولن ينزف أنف أحد. وسيتحدث عنى المؤرخون فى المستقبل ويصفوننى بأنى «أعظم رجل أنجبه القوقاز».

قال الحاج «قاسم»:

- لو تحدثوا عنك بقولهم «رجل» ستكون من المسعدين.

أنزل «عيسى خان» نظراته، وقال:

- بماذا تهذى وما الذى تتذمر منه؟.

قال الحاج «قاسم»:

- أبداً أريد أن أعلم باختصار، ماذا تهدف إليه؟.

- ألم تفهم حتى الآن؟! ها؟!.. إنك تمكر وإلا، فلتقل أنت، ماذا أهدف إليه.

- نفسك.

- كلام فارغ!.

- ربما. إن الإجابة على الكلام الفارغ لابد وأن تكون غير ناضجة ولا منطقية.

- أقول لك - فى الحاج «قاسم» خبرة النضج - لا الشهرة ولا الاسم، ولا المال ولا هوس الزعامة، وإلا فقد قال عكس ذلك منذ قليل.

وعندما رأى الحيرة فى أعين ضيوفه أعلى من صوته قائلاً:

- استمعوا إلىّ، أقول لكم الصدق، ليس فى قلبى حب لكل ما قلته. لكن هناك شيئاً واحداً فقط. أريد أن يتجمع كل القوقاز فى يد واحدة.

لم يستطع الحاج «صادق» التحمل، وقال:

- أصحيح ما تقوله؟.

- وهل لديك شك فى هذا؟.

- استمر.

- عندما يتحد القوقاز كله سيقوى كله. سينهزم الروس ويضطرون إلى الانسحاب.

- إذا كنت تفكر فى هذا، فها هى الفرصة سانحة. ليس هناك من بعيد غيرك. تعال ولنتحد.

عبس وجهه بنفور قال:

- مستحيل !

- كنت تتحدث منذ قليل عن الاتحاد.

- اتحاد من غير «شامل» ممكن أكون أنا، وحتى يمكن أن يكون آخر لكن لا ينبغي أن يكون «شامل»، مستحيل.

أثار بذلك فضول الحاج «قاسم»، فسأله:

- هل بينكما شيء ؟ إنه محبوب من كل المسلمين، إنه قائد عسكرى وشيخ ومرشد وزعيم دينى.

- وما لى أنا وكل ذلك، ولماذا تشير حوالى هذا ؟

- هناك شيء آخر.. إنه عالم، ويجيد الحرب والإدارة وانتصر فى معارك كثيرة، وهو عادل وفاضل.

ضرب قدمه أرضاً وقال:

- قلت ما لى ولهذا ؟ هل أنت أصم ؟

- حسناً، ولكن لماذا ؟

- لأن ..

رفع عينيه مرة أخرى نحو السقف. تحركت ذكرياته كثيراً. مزق حقده ستائر الزمن أزاحها بأظافره الدامية، ودفعها للبحث عن أشكال مبهمة.

- ذلك لأنه يظن فى نفسه أنه يعلم كل شيء، وأنه يفهم كل شيء فيقومه بأحسن تقويم، ويرى كل من أمامه صغيراً، ولا يعطى أهمية ما لأحد.

- إنك تعلم مثلما نعلم نحن إن كل هذا افتراءات دون سند، «شامل» على العكس تماماً، مما تقوله الآن.

صاح قائلاً:

- مستحيل.

قال له أكبر أفراد الوفد سناً سائلاً:

- ألم تقابل الإمام منذ فترة طويلة ؟

قال «عيسى خان»:

- لا يرى وجهه إلا الشيطان... إنى لم أره منذ الطفولة من أين تعرفون أنتم هذا اليوم ؟

أخذ فى نبش ذكرياته حتى وجد ما أراده. ثم أخذ فى التحدث.

- والدى ووالده صديقان. جاء ذات مرة مع أبيه إلى قريتنا فى يوم من أيام الربيع. كلانا كان فى سن اللعب. كان لى فرس ولم يكن هذا الفرس يقبل أن يمتطيه أحد غيرى. امتطى «شامل» ظهره فى وثبة واحدة. وسيطر عليه بحيث أصبح هذا الفرس الجامح مثل بغلة بائع اللبن. وكسب به سباق إصابة الهدف وكسب هو السباق وأثبت أنه أقوى منى فى ضرب الرمح، وهزمنى فى الضرب بالسيف.

ضغط «عيسى خان» على قبضتى يده، وضرب بهما ركبتيه، وقال:

- فى تلك الليلة ضربنى والدى ضرباً مبرحاً وبكتتنى أمى. نعم، بسبب «شامل» ، نعم كل ذلك بسبب «شامل».

كانت عينا «عيسى خان» تلمعان حقداً. تشددت خطوط وجهه وعمقت. وأكمل حديثه قائلاً:

- إنى أنفر منه.

والتفت إلي الرسل. وفطن إلى أنه أكثر الكلام، لكنه لم يعد يستطيع التراجع . كان التصحيح هو أفضل الحلول.

- لكن ليس ذلك هو السبب. إنى سأثبت لكل الناس عن قريب إنه ليس بالزعيم الجيد كما يذهب ظن الناس فيه. وسأجره خلف ذيل حصانى.

قاموا وقوفاً على أقدامهم . أدركوا جيداً أن أى كلام مع هذا الرجل عبث ليس ممكناً التفاهم مع رجل يأخذ من حادثة حدثت.منذ أن كان فى العاشرة من عمره علماً ودليلاً، ويضع الحقد مكان الدين.

قال الحاج «قاسم» لإخوانه عند الخروج:

– رأيت فى هذا الرجل ما لم يستطع أن يخفيه من بقع الملابس المزركشة المذهبة، البقع التى فى روحه. وليس هناك من عمل يمكن عمله.

هزوا رؤوسهم.

لم يستطع الحاج «قاسم» أن يقف حتى وهو على ظهر الحصان، من غير عمل فتح دفتره. وكتب ما يلى :

«الأنا هى منشأ سوء الخلق. إن الإنسان الذى يفكر فى نفسه يفعل كل سوء قمت بقياس جسم «عيسى خان» وروحه . ودهشت للفارق بينهما ليس هناك داع لكى يشتغل رجل الدين كثيراً لإقناع الآخرين بشىء صحيح عقل العالم واسع وناضج ومحب للتفكير المنطقى. إن جاهلاً يعتبر نفسه عالماً مثل «عيسى خان»، وهو فوق ذلك غافل. والأسوأ من هذا إنه بئر حقد أقول إن إقناع رجل فيه كل هذه الصفات بالطريق المستقيم لأمر غير ممكن فهمت عندما رأيت هذا الرجل أن التعب معه فى الإقناع حرام. والأمر الآخر إننى لا أود الإيمان أن إنساناً ما يمكن أن يصبح أحمق بهذا القدر. ربى ! احفظ المسلمين من الأصدقاء الحمقى..

- أيهما أيسر نطقاً «على حاجى» أو «الحاج على» ؟ ما رأيك يا حاج «قاسم» ؟

- كن حاجاً أولاً ومن بعد ذلك تفكر فيما بعد فى اسمك هل نضعه قبل هذا أم بعده ؟

لقد أطلقوا اسم «على» على «پانوف» الذى التحق بقوات «شامل» بعد أن أسلم وبعد أن كان مساعد ضابط كشاف ماهر فى الجيش الروسى منذ وقت طويل وهو فكر أن يحج كان يرغب فى الطواف حول الكعبة، كما كان الشوق يستعر بداخله إلى تقبيل الأماكن التى مستها أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم لقد فتح هذا الموضوع كثيراً مع الحاج «قاسم». وتعتبر هذه المرة المرة المائة أو أكثر فى ذلك الموضوع قال:

- هكذا الأمر، أولاً يجب الذهاب إلى الحج، هكذا أريد.

- إنك هنا تقوم بخدمة مقدسة.

- ليتقبلها الله، إن شاء الله ما أسعد الجهاد تحت إمرة «شامل».

هز الحاج «قاسم» رأسه. قال:

- «شامل» إنسان كبير، إنسان عظيم، فى إحدى يديه سيف، وفى الأخرى القرآن . والحق، إنه يعطى لكل منهما واجبه. بإحداها العدالة، وبالأخرى ينثر الرعب.

- ماذا تقول فى دعوة «عيسى خان».

- وماذا أستطيع قوله. لقد فقدت تماماً آمالى فى لقائى معه. ولم أضع

أى احتمال قط لاستقامته . آخر مكتوب كتبه.. لو أسميته خدعة، ربما لا يكون كذلك لو قلت عنه إنه مخلص، الإخلاص فى ذلك الرجل.. إنه شىء لا يستطيع العقل إدراكه.

– على كل حال فإن «شامل» لا يفكر فى أن ذلك يمكن أن يكون كميناً.

– ينبغى أن يفكر ولو لم يفكر لما أخذ معه مائتى رجل. يسمون هذا تدبيراً، أيها الشاب. الأسباب أولاً، ثم القدر.

– هل تعلم إننى أيضاً ذاهب معه.

– لم أكن أعرف. علمت ذلك بفضلك متى الذهاب ؟

أشار «على» بذقنه إلى مجموعة الششنيين الذى بدأوا تجمعهم فى الميدان.

– بعد قليل ، يكمل تجمعهم.

– إيه ! عجل إذن. إن الشيخ لا يعفو عن التأخير.

– دعواتك أيها الدرويش.

– دعاء المؤمنين مشترك أيها الكشاف الصديق. أسعدك الله.

سارا معاً نحو الميدان. مجموعة من الجنود الششن تتجمع ، «شامل» ونوابه بجانبه قادمون نحو الميدان ، «شامل» يتوقف عند الجنود ويضع يده اليمنى فوق قلبه ويقول:

– السلام عليكم يا أسود القوقاز...

رد عليه مائة شخص فى نفس اللحظة.

– وعليكم السلام أيها الإمام العظيم.

– العظيم هو الله ، إن الحمد له والشكر له.

انحنت الرؤوس احتراماً وقالوا :

– الحمد له والشكر له ، هو رب العالمين.

فتح الإمام «شامل» يديه نحو السماء، ودعا بدعاء. أمسك جندى بلجام جواد الشيخ. ثم قفز الشيخ إلى ظهر جواده الأصيل هذا.

كان مساعد الضابط الروسى السابق يتبع الإمام بنظره ويشاركه فى هذه النظرة مائة جندى ششنى ممتازين . واتخذ الشيخ شعيب موقعه بجوار «شامل» وانطلق الجميع إلى طريقهم بين أصوات التكبير وأصدائها.

كانوا ذاهبين إلى قرية «صونترى» أما قبل ذلك بوقت فقد كان «عيسى خان» قد أرسل لهم خطاباً يقول فيه إنه يريد الاشتراك فى الاتحاد، وإنه مستعد للقائهم والتباحث معهم. لم يكن «شامل» - مثله فى ذلك مثل إخوانه - لم يكن يظن أن هذه المباحثات ستثمر نتيجة إيجابية. ولكن بعد أن رأوا فى الأفق مجرد احتمال اتحاد لم يود «شامل» الوصول إلى مجموعة أحكام مسبقة. وعلى الرغم من كل شىء فقد قرر الذهاب إلى قرية «صونترى» ولقاء «عيسى خان» حتى ولو كان كل ذلك مصيدة للإيقاع به.

أخذ معه مائة جندى فقط. كما أخذ معه من نوابه الشيخ «شعيب». كان الوقت قد تجاوز الظهر عند خروجهم إلى طريق السفر. كل مكان هادىء ولم يكن هناك صوت يمكن سماعه غير أصوات صرخات طيور الجبال.

الزهور البرية تدفىء روح الإنسان . والأناشيد الدينية التى يرددها الجنود الششن تلهب الروح. كان شامل فى طريقه ولكن دون أن ينزل عينيه عن الأفق فى ذلك لأنه كان يفكر فى مخططات الروس الجديدة.

كان يستقبل كثيراً الأخبار التى تقول بأنهم يقومون بدعاية مكثفة. كان الجواسيس يذهبون للقرى المسلمة ويوزعون آلاف البيانات المطبوعة المليئة بالإفتراءات التى تحقر من الإمام «شامل» وفى أكثر هذه البيانات أقوال تصف الإمام «شامل» بأنه محتال وأنه يضحى ببلاد القوقاز فى سبيل

مطامعه الشخصية وأن الروس لا يمكن أن يسامحوه وأنهم يمكن أن يسمحوا باستقلال وحرية القوقاز إذا كان هناك قائد غيره. ولم تكن الحقيقة خافية عن أصحاب العقول السليمة إنها أقوال مؤلمة ترقد تحت هذه الدعاية لكن هناك من انخدع بهذه الأقوال. وهناك أيضاً هؤلاء الذين يؤمنون بضرورة انتهاء الحرب وهؤلاء يفكرون بأن «الروس لا يريدون شاملاً»، وطالما يحكمنا فإن الدماء ستسيل دوماً، ليكن الزعيم رجلاً غيره، وإذا كان «شامل» رجل دعوة وقضية بحق فليظهر تضحيته وينسحب من الإمامة».

يذيع الروس شيئاً آخر هو أن هذه المسألة هى الأصل وهى التى تثير عقله . كانوا يقولون إنهم لا يريدون «شاملاً» ولكن ليس لديهم اعتراض على الحاج «مراد» صحيح أنه كان لهذا تاريخ مع الروس، ولكن «شاملاً» كان يؤمن بأن ذلك قد انتهى. حسناً إذن ماذا يعنى عدم مجئ الحاج «مراد» إلى «داركو» منذ عدة شهور ؟ ترى هل استطاع الروس أن يأخذوا هذا الصقر الجبلى الطيب القلب إلى معصرتهم ؟

– ما قولك يا شيخ ؟

أراد الشيخ «شعيب» أن يتحدث عدة مرات، لكنه تراجع عن ذلك عندما فهم من تصرف الشيخ الإمام أنه يفكر تفكيراً عميقاً . أجاب فور إحساسه بأن الحديث موجه إليه. فقال:

– يبدو كل مكان، ساكناً.

– يبدو هكذا. كل الجبهات غرقت فجأة فى السكون. هل تعرف السكون القاهر الذى يسبق العاصفة ؟ حتى الطيور توقفت عن التغريد. ولم يعد للورق حفيف.

- نعم أيها الشيخ.

- إنى أشبه هذا السكون بذلك. ستفيض الدماء مرة أخرى فى هذه الجبال عن قريب . ليس هذا الذى أريد السؤال عنه. إنه يشبه ترك الروس لاختبار القوة ولجوئهم إلى سلاح الخديعة والدعاية. يطلقون الجواسيس فى القرى لتحريض المسلمين علينا . وينبغى أن يسمع الحاج «مراد» الأقاويل التى تطلق عليه.

- لا أستطيع أن أعطى لذلك احتمالاً.

- وأنا أيضاً. ولكن لماذا يبدو هذا الاسد وكأنه قد ضجر من قفصه ؟ إن استيعاب هذا أمر صعب.

- لابد أن يكون لديه ما يشغله.

- ومن منا يخلو من مشاغل. ورغم هذا لا نهمل اللقاء. وإننا نؤمن بأننا فى حاجة لعدم إعطاء الفرصة للإشاعات لكى نقف دائماً لنتكاتف جيداً. ولابد للتفاهم أن يحل بين الذين يلتقون كثيراً. إن ظهور الأقاويل يؤدى إلى تشتيت الأذهان. وإذا حضر الحاج «مراد» ولو مرة واحدة لارتحنا .

نظر إلى الشمس، وقال:

- سنصلى العصر عند ذلك النبع ثم نواصل سيرنا، حتى إذا ودعنا الدنيا تكون صلاتنا كاملة غير منقوصة.

- تقول الحق.

نادى المنادى فى الجنود أن الإمام يأمر بالنزول من على صهوات الخيول والتوضئ. وصلوا العصر يتقدمهم «شامل» .

ثم عادوا إلى خيولهم وانطلقوا فى طريقهم. وكان عليهم الوصول إلى قرية «صونترى» قبل المغرب وكان الجميع يدعون أن تكون نتيجة الاجتماع خيراً.

كان الشيخ شعيب يبدو مهموماً. لم يكن هو ذاته يدرى سبب ذلك الشعور، ولكنه كان يتذكر أنه كان به هذا الإحساس ذات مرة، ثم أعقب ذلك نبأ استشهاد صديق له يحبه كثيراً.

رفع رأسه. كأن هناك يداً مجهولة تجبره على ذلك. بدا له كأنه يرى وميضاً خلف النتوء الذى أمامه. ساوره إحساس بأن هذا ماسورة بندقية. لكز حصانه لكزة شديدة فانطلق كالبرق ليكون أمام «شامل» .

وفى نفس اللحظة دوت طلقة.

قال الشيخ «شعيب»:

- حاذر يا شيخنا...

ثم وضع «شعيب» يده على صدره.

والآن تأخذ الأسلحة فى الانطلاق فى تعاقب مستمر، وأخذت ستائر السكون تنقطع الواحدة تلو الأخرى.

صاح «شامل» عندما رأي الشيخ «شعيباً» يهتز فوق حصانه.

- يا شيخ !

احترق داخل عينيه، واحترق قلبه أيضاً . ألقى بنفسه من على حصانه إلى الأرض وقع بجوار حجر ضخم، وتدحرج خلفه. والشيخ «شعيب» أيضاً انزلق من على حصانه. وسريعاً رقدا فى امتداد طول إنسانين. وقال لجنوده:

- تفرقوا !.. أحيطوا بهذا التليل واقبضوا على الخائنين.

وانطلق الصقور الششنيون إلى التل الصغير مثل سيف مستل من غمده.

عض «شامل» شفتيه حتى دميتا وقال:

- عملها «عيسى» أخيراً، يعنى عملها .. إذن فليأخذ جزاءه !

كان الرصاص بصوت انطلاقه يمر من فوق رأسه. وكان يسقط كثيراً عن يمينه وعن شماله. كان المتآمرون قد حددوا المكان الذى هو به وكثفوا كل أحقادهم على هذا المكان .

كان شامل يفكر فى شىء واحد: حياة الشيخ «شعيب» ، ربما يكون هذا الشيخ مازال حياً ويمكن إنقاذه. لم ينتظر كثيراً انطلق دون أن يعبأ بالنيران الجهنمية هذه تشقلب مرة أو اثنتين وأمسك الشيخ «شعيب» من ساقه وسحبه عليه. وأخذه خلف الحجر.

كان الجرح، فى قلبه تماماً واضح من هذا أن قناصاً ماهراً أطلق عليه الرصاص بإصبع منفور. لم ينفك عقد عمامته . كانت عمامته ملفوفة بانتظام تام بنفس البياض ونفس النظافة حول طاقيته القالباق.

- يا «شعيب» !.. يا «شعيب» !..

ولم يعد الشيخ «شعيب» يستطيع التحدث لابد وأنه الآن يستطلع الحياة الحقيقية فى ثناياها العذبة الخاصة بدرجات الشهداء التى يعجز اللسان البشرى عن شرحها. هذا الوجه الباسم، هاتان العينان النقيتان اللتان تبدوان وكأنهما امتلأتا بالحياة حتى الآن.

صاح بشدة قائلاً :

- الشهادة !..

وسحب مسدسه . وثب على واحد من الحصانين الفارغين بعد أن قتل فارساهما وانطلق نحو تل الغدر والخيانة الذى أحاط به الجنود الششن الصادقون.

- الله .. الله !

وعندما انتهت الرصاصات استل سيفه وانطلق بجلادة جعلت «على المهتدى» يعض إصبعه وجعلت من الجنود الششن فى حالة من الوجد لا

مثيل لها ودون أن يبالى بوابل الرصاص وأزيزه انطلق مسرعاً ليخنق أصحاب الانتقام الأعمى فى دم شهيد. وغطس سيفه العريض المشهور فى دم الخائن الذى لم يجد وقتاً للخروج من وراء متراسه. صاحوا خلفه بخوف:

- ارجع يا مولانا.

وانطلقت البنادق متتالية، وأخذت السيوف تؤدى دورها. قد تكون عشر دقائق مضت حين انتهى كل شىء. وذهبت بعدها حوالى خمسين رأس خائن وألقيت فى حفرة خياناتهم .

صاح جندى ششنى فرحاً:

- النصر !

التفت الشيخ «شامل» إلى الجندى وكأنه يستيقظ من النوم. ونظر إليه طويلاً ببسمة فى شفتيه تجمد دم الإنسان، قال :

- النصر ؟ إن حرباً تنتهى بشهادة الشيخ «شعيب»، حتى ولو أكسبتنا روسيا كلها فقد خسرنا «شعيباً».

والتفت إلى الوراء. ونزل صامتاً كالصخرة من على جواده. كان الشيخ شعيب يرقد بالشكل الذى تركه به وفى المكان الذى تركه فيه . لا ، لم يكن هذا ميتاً بل كان أقرب الى إنسان ذهب عنه التعب فارتاح ونام. ينظر بعينين مطمئنتين. كان يعطى انطباعاً بأنه سينهض بعد قليل ليمتطى جواده مرة أخرى.

لكنها الحقيقة المرة.. فقد كانت الثغرة الحمراء الصغيرة التى فوق قلبه توضح كل شىء لقد سافر الشيخ «شعيب» منذ فترة سفرته الأبدية.

نزل الإمام على ركبتيه. وأغلق بيديه عينيه اللتين كانتا مازالتا مفتوحتين، ومس باحترام جبهته بشفتيه اللتين احترقتا بنار الفراق المؤقت وفتح طرف

عمامته الناصعة البياض وكانت متدلية على ذراعه اليمنى وغطى بها وجه الشهيد. ولف بذراعيه القويتين نعشه المبارك.

بقى هكذا على الأرض دون حراك لفترة كأنه دق فيها مسماراً. لم تصدر حتى الهمسة من الجنود مساعد الضابط الروسى «المهتدى»، كان يلف على كتفه العمامة التى لم يستطع أن يلفها بانتظام حتى الآن يمسح بها دموع عينيه المتجمعة فى مآقيهما . وبينما كاد يوبخ نفسه لأنه يبكى لاحظ حبات الدموع تنزل من عينى الإمام إلى لحيته. إن قبضة الاضطراب الشديد الذى يشبه الحديد والذى يمزق حلقه منذ فترة انتهى على شكل بكاء شديد.

تهتز الأكتاف وتعلو الصدور وتهبط كأنها المنفاخ، استشهاد الشيخ «شعيب» هل هو انهيار عش صقر جبلى ؟ إنه كان فاتحاً، حتى أن اسمه حيث يذكر، تسرع قطعان الجنود الروس إلى الفرار بأقوى قوتها دون أن تستطيع التجرؤ على اللجوء إلى السلاح.

لم تكن الشفاه تستطيع أن تسيطر على قوة نحيب القلوب الجبلية. إن موجة التأثر العامة كانت تحنى الرقاب بل تحنى الأشجار أيضاً. كانت الدموع تفيض مدراراً من العيون.

تحرك «شامل» اقترب نحو حصان يخلو من فارسه. أمسكوه من لجامه ودون أن يطلب مساعدة من أحد مدد الشهيد على ظهر الحصان. بينما هو كذلك تراجع فجأة. وهز رأسه على الجهتين وهمهم قائلاً:

- هذا لا يكون.

والتفت الجنود وهو صامت كتمثال :

- اعملوا نقالة من أغصان الشجر.

ثم مدده على النقالة التى أحضروها. وأمسكها هو من طرفها.

- سيروا !

كان على الإمام أن يسير مترجلاً، وأن يحمل الجثة. كان عليه أن يسير طريقاً قدر الدنيا. اقترب منه «على»، وقال له :

- هل تأذن لى بأن أحمله ؟

نظر إليه «شامل» بحدة.

وقال جندى آخر:

- يا شيخنا، إنك متعب، وأنا تابع بسيط من أتباعك، فائذن لى.

صوب الشيخ أيضاً إليه نظرة شديدة .

وحمل طرف النقالة حتى مقر القيادة دون أن يعطيها لأحد. كان يعلم لو أن الشيخ «شعيب» لم يتصرف وقتها ويسوق حصانه ليقف أمام «شامل» لكان هو نفسه الآن يرقد على هذه النقالة.

حدث نفسه قائلاً:

- ربما كان ذلك أفضل.

ولم يستطيعوا الوصول الى مقر القيادة إلا قبيل الصباح. أخذ الإمام «شامل» الشهيد مباشرة إلى منزله. وانتظر حتى الصباح بجانبه وهو يقرأ له الأدعية.

وفى اليوم التالى تركت الأعين الدامعة، والقلوب الحزينة ، الشهيد، إلى نومه الأبدى. واحد من الذين جاءوا من التراب، عاد إلى أصله، ترك نفسه لأحضان الأم الحقيقية.

اقترب «شامل» وهو فى غاية التأثر، اقترب من «كعبت محمد» وعندما رأى «كعبت محمد» اقترب الإمام منه. وضع يديه أمامه على بعضهما احتراماً قال له الإمام :

- يا ابن «كعبت».

- تفضل يا شيخنا.

- جهز ألف فارس، وسننطلق بعد ساعتين.

والتفت إلى حيث دفن الشيخ «شعيب» وقال:

- سندمر قرية «صونترى» إنها بؤرة الفساد والشقاق الموجهة نحو قتل الكثير من مجاهدينا والتى كلفتنا حياته.

وابتعد «كعبت محمد» بسرعة من جانب «شامل» وجرى لتنفيذ ما قيل له وقبل انقضاء الساعتين كان الاستعداد قد تم وتجمع فى الساحة ألف فارس مدججين بالسلاح.

لكن أين الإمام «شامل» ذهب «كعبت محمد» إلى منزله ليخبره، فرأى الإمام «شامل» مع العلماء يستشيرهم فوقف ينتظر أمام الباب حياء من أن يزعجهم.

وبعد قليل فتح باب البيت، وظهر الإمام «شامل» ، على العتبة وعندما رأى «كعبت محمد» ألقى عليه السلام.

- هل كل شىء على ما يرام ؟

- الجنود متأهبون فى الساحة يا سيدى.

- وحصلنا أيضاً على الفتوى.

وخرج . كان يرتدى ملابس بيضاء وكان يلمع فى الشمس يد الخنجر الذى وضعه فى حزامه. وكان سيفه ينزل حتى كعب قدمه.

ركب حصانه. وسار إلى مقدمة الجنود الذين تجمعوا فى الساحة. وهز يده للذين أتوا لوداعه. وانطلقوا.

ثم استراحوا قليلاً لأداء فرض الصلاة. وكان الوقت ضيقاً. ولم يكن الإمام يريد تضييع الوقت، ذلك لأنه كان من الضرورى الهجوم على هؤلاء الخونة قبل أن يجدوا الفرصة للهرب.. كان يجب خنق خيانتهم فى حفرتها.

وعند وقت العصر كانوا قد وصلوا إلى تل يشرف على قرية «صونترى» ويسيطر عليها، فأوقف الإمام «شامل» وحدة جنوده الألف. ونظر إلى القرية طويلاً. ثم رفع المنظار المكبر على عينيه ليتحرى كل جوانبها.

وقال «لكعبت محمد»:

- إنهم فى انتظارنا . لقد اتخذ «عيسى خان» احتياطاته وترتيباته.

ومد إليه المنظار المكبر.

- هل سترى ما رأيته .

وأخذ «كعبت محمد» المنظار الموجه إليه. ووجهه نحو القرية.

لقد كان أول ما لفت نظره وانتباهه وجود بعض عساكر الروس فى القرية.

صاح قائلاً:

- روس ! ماذا يعملون هنا .

- وماذا سيكون عملهم ؟ لقد أتى بهم «عيسى خان» وهو قمة الفساد والشقاق لمواجهة نتائج الخيانة .

التفت إلى العسكر . وأصدر أمره بصوته الغليظ الجهورى الذى يهز الأرض هزاً:

- هيا .. إلى الهجوم !

فاضوا من التل إلى أسفله كأنهم الشلال، وفى لحظة كانوا قد أحاطوا بالقرية.

كانت قوات «عيسى خان» المدعمة بالوحدات العسكرية الروسية قد أعدوا العدة للدفاع عن القرية بكل إمكاناتها. كانوا على الأقل يظنون أنه يمكنهم المقاومة والتحمل حتى وصول وحدات روسية جديدة لنجدتهم. ولكن الألف نوى العزم بقيادة الإمام لم يتوقفوا حتى عندما أصبحوا قريباً من متناول

رصاص العدو، كانوا يحاربون لكي يدخلوا القرية مهما كان الأمر. لقد سببت بحق طلقات البنادق الكثيفة تلفيات كثيرة، ولكن لم يكن هناك من يعبأ بهذا.

كانت هذه هي المرة الأولي التي يقابل فيها اليوزباشي الروسي «هانز» الذي استأجره الجيش الروسي من ألمانيا، الإمام «شاملاً»، ورأي بنفسه لأول مرة أن ما قيل له عن الإمام «شامل» لم يكن أسطورة. لقد بدأت النتيجة في الظهور ولم تمض بعد نصف ساعة علي الهجوم. والسد الذي يمكن أن يوقف هذا الانطلاق غير موجود، لا عند «عيسي خان»، ولا عند اليوزباشي الروسي. ترك مكانه في قيادة جنوده وجري نحو «عيسي خان»، وقال له:

– شيء سيئ للغاية، لقد جاء الشيخ «شامل» بذاته، يحارب في مقدمة جنوده بلا خوف. لم نستطع النجاح حتي في إصابته بجروح في الوقت الذي أمرت فيه بتسديد البنادق كلها نحوه. إن الشياطين تحمي هذا الرجل.

قال له «عيسي خان»:

– الشيء الوحيد الممكن عمله هو، الهروب سراً من هنا.

– ماذا، ونترك كل شيء هكذا.

– «شامل» يتحدي روسيا إذا لم أكن أنا موجوداً ناوره أنت وخادعه بقدر ما تستطيع. وسأحادث قادتك عن مساعدتك وسأضمن لك الترقية، وإني أعدك بذلك.

ضحك اليوزباشي «هانز» مستهزئاً، وقال:

– وماذا تجدي الترقية والرتب والميداليات التي تعلق علي جسدي الميت. إذا كان لابد من الهروب فسأهرب مع جنودي.

قفز «عيسي خان» من مكانه وقال:

– هل أنت مجنون؟ لقد أرسلوك لمساعدتي.

– نعم، ولكنهم نسوا أن يكتبوا أن أساعدك علي الفرار في الأمر الصادر إليّ. هل أضيف هذا؟.

فهم «عيسي خان» أنه قد غضب. وجرّب طريقاً آخر للهرب.

– سأغنيك.

– وكيف؟ إن هذا هو ما يهمني.

وفتح «عيسي خان» دولاباً. ووضع علي المنضدة درجاً مقبب الغطاء وأخرجه ونزع منه الغطاء. وهز في كفه واحداً من الأكياس الجلدية الموجودة فيه.

– إنه مملوء بالذهب. خذ، هذا لك.

التقط اليوزباشي الكيس وهو في الهواء. ووضعه في جيبه بحرص. وابتسم ببلاهة.

– واحد لا يكفي..

قطب «عيسي خان» ما بين حاجبيه وصاح به قائلاً:

– يكفي!..

– لا يكفي، لا يكفي، واحد آخر علي الأقل. بالطبع هذا لو كانت روحك غالية.

كان يعلم أنه مضطر اضطراراً لتنفيذ ما قيل له، لم يكن لديه طاقة ولا تحمل. قال دون أن يفقد هدوءه:

– هكذا الآن، وبعد أن تبعد هذا الرجل، سأعطيك اثنين.

– إني أفضل أخذ كيس واحد مقدماً بدلاً من الوعد باثنين. هيا اقذف!..

زمجر قائلاً:

– عليك اللعنة.

ومد «عيسي خان» يده إلي الدرج وقذف إليه بكيس آخر:

– خذ، واغرب عن وجهي. أريد أن تناوره لمدة ساعتين علي الأقل.

– لا تشغل بالك، سيحدث كل ما تريده.

كانت ترقص في عيني «هانز»، ومضات غريبة، لم يكن يستطيع أن يسيطر علي عينيه المحملقتين ولا أن يبعدهما عن الصندوق المملوء بالأكياس الجلدية.. وهذا ما أزعج «عيسي خان» كثيراً. فقال له:

– ازدادت أصوات الأسلحة، من الأفضل أن تذهب وتنظر.

كان «هانز» يبدو وكأنه غاب عن وعيه. إن ما في هذا الصندوق يكفيه حتي آخر عمره، ولو تزوج وكان له أولاد لكفاهم أيضاً. يعود إلي بلاده يشتري ضيعة ويحقق فيها ما كان يحلم به من تربية الحيوانات. لقد كان أبوه يعده ليعمل بالزراعة. مسكين هذا الرجل مات وهو معدم.

قال له:

– نعم، سأكون مزارعاً كبيراً. وسأربي الماشية.

ولم يستطع «عيسي خان» أن يفهم شيئاً من هذه الجملة. فقال له:

– ما هذا الذي تقوله؟.

ركز «هانز» عينيه. وداخلتهما لمعة مثل حد الإبرة، برق إنسانا عينيه. وسريعاً سحب مسدسه، وأرجع زناده مرة وضغط إصبعه على الزناد في الثانية.

اتسعت عينا «عيسي خان» وخرقت الرصاصة بطنه. وخدشت معدته التي لا تعجب بالطعام. وضغط بيده علي الجرح. غمغم قائلاً:

– كنت سأعطيك كيساً آخر.

وعندما رأي «هانز» أن الرجل مازال واقفاً علي قدميه خاف. وأطلق نفسه إلي الخارج. بمجرد فتحه الباب.

ولم يستعد نفسه إلا بعد أن جري قليلاً. وترك صندوق النقود تركه من شدة اضطرابه وخوفه. وليجري مرة أخري إلي المنزل. دخله. وجد «عيسي خان» يرقد في المكان. لم يعد يهتم إن كان قد مات أم لا ، انطلق، وأخذ الصندوق في أحضانه واتجه إلي الباب لكي يخرج.

لم يكن «عيسي خان» قد مات بعد. لأنه رأي «هانز» عائداً. ففهم جيداً ماذا يريد عمله، لذلك استخدم ما تبقي فيه من نفس ونجح في سحب مسدسه. وبينما كان الرجل علي وشك الخروج، ضغط إصبعه. وانطلق المسدس. واهتز اليوزباشي «هانز» فجأة. ورجع ببطء. نظر «هانز» فترة إلي اليد الممسكة بالمسدس، وكأنه مسحور. صندوق النقود ينزلق ببطء من بين يديه ويقع علي الأرض. انفتح غطاؤه بصرير شديد. وانتثرت الأكياس المليئة بالذهب هنا وهناك. وكانت كلها ذهباً روسياً. تدحرج بعضها حتي وصلت إلي أمام «عيسي خان». مد الرجل ذراعه رغم عدم وجود المجال لهذا. وأمسك المعدن الأصفر بكفه وهو يضغط عليه حتي انغرست أظافره في لحمه.

وقال:

– الذهب .. الذهب.

كان اليوزباشي يهتز كالسكير. وهو يكرر قوله:

– الذهب.. ذهب.. ذهب.

ولم تستطع ساقاه أن تحملاه أكثر من هذا. سقط جسده الذي يتثاقل فوق «عيسي خان» ولفظ نفسه الأخير وهو ينطق بكلمة واحدة هي:

– الذهب!.

وفي نفس اللحظة كان هناك موتي في الخارج. كان مساعد الضابط الروسي «المهتدى» قد سقط من فوق حصانه إلي أسفل برصاصة تلقاها في صدره. سقط بجوار جندي روسي جريح.

- يا هذا، ألست ميشيل؟.

قال له الجندي:

- نعم، ومن أين عرفت؟.

- ألم تعرف مساعد الضابط القديم «پانوف» من فرقة الاستطلاع؟.

تحسس الجندي الروسي كتفه وقال:

- ليتك لا تكون أنت الذي أصبتني بالرصاصة، إنها تحرقني، إنها توجعني جداً.

أشار له علي صدره وقال:

- وهل أنت الذى أطلقت على تلك التي في صدري؟.

- أين! أنا ما أصبت يوماً شيئاً أطلقت عليه النار، لماذا خنت؟.

- خطأ. لقد فهمت مؤخراً جداً أنني أعيش في وسط الخيانة منذ سنوات طوال.

- يعني إنك نادم. هذا شيء جيد جداً.

- كيف لم تتحدث؟ لقد ندمت منذ فترة طويلة وصححت خطئى.

- ما معني هذا؟.

- لقد كنت دائماً بطيء الفهم. وماذا في هذا مبهم وغير مفهوم؟ ألم تكونوا تنادونني دائماً باسم «التركى» هأنذا قد عدت إلي أصلى. أووف إن شيئاً في رأسي يزن ويضغط عليّ. يبدو أن جرحي شديد. الحمد لله إن رجالنا قد كسروا خط الدفاع، وصوت البنادق أخذ يخف. يبدو أن أعمال رجالكم علي وشك الانتهاء. ثم ما هي أعمالكم، دعوا مستقبلنا لنحدده نحن. لا تضعوا نصب أعينكم الحرب بهذه الصورة فتضربوننا بعضنا ببعض. هذه سفالة. والقيصر أحد هؤلاء السفلة.

وأعطي لصوته نبرة احترام وقال:

- كنت أريد أن أري «شاملاً» وهو فوق الحصان. إنه صقر، حقاً إنه صقر، إن الروس أنفسهم يعترفون بهذا. يسمونه صقر داغستان، ويسمون مقره «عش الصقور»، هيه. ماذا أنت فاعل بنفسك؟.

استهدف ميشيل، رجلاً شcountنياً من المكان الذي يرقد هو فيه، وبينما كان يضغط علي الزناد، قال:

- لا تتدخل.

كانا يتامان وجهاً لوجه. بندقية الرجل استهدفت «علياً». صاح به قائلاً:

- قف.

أمسك ماسورة البندقية وسحبها عليه. وفي نفس اللحظة كان الجندي الروسي قد لمس الزناد. ولم يلاحظ أحد صوت هذه البندقية المخنوقة التي غابت بين الطلقات المستمرة. وقد خرج الصوت مخنوقاً جداً لأن الماسورة كانت في بطن «علي» جيداً. ولم يفطن قط الجندي الشيشني أن «المهتدى» مساعد الضابط الروسي قد أنقذ حياته.

صاح ميشيل قائلاً:

- ماذا فعلت أيها المجنون. أنا لم أكن أود أن أصيبك.

دخلت الرصاصة من بطن «علي» وخرجت من ظهره. وحرك شفتيه بصعوبة بالغة، وقال له:

- ها هو ذا، وهأنذا، ألم تكن تريد قتل مسلم. ما هو الفرق؟.

لفَّ كتفه اليمنى عليه. ووضع يده تحت رأسه بدلاً من الوسادة واستعد كأنه يريد نوماً مريحاً. وقال:

- الله!..

وأغمض عينيه جيداً ولم يفتحهما مرة أخري.

«شامل» يدخل القرية. أمر بإعمال السيف في كل من يقاوم. وهمز حصانه لكي يتوجه نحو البناء الذي يستخدمه «عيسي خان» مركزاً لقيادته أخذ حوله بعض الجنود ودخل. وأمر بفتح كل الأبواب. وأخيراً رأي جسدين في غرفة واحدة. وكانت الجثتان قد أخذتا في البرودة تواً. كان المكان من حولهما ممتلئاً بذهب الروس. كان كل شيء قد وضح منذ النظرة الأولي. انحني وفتح كف «عيسي خان». وتناول الذهب منها ووضعها في كفه. نظر إليه طويلاً وقال:

- أكان هذا يستحق الخيانة والشقاق؟.

«.. لقد رأيتم بأنفسكم وشهدتم علي أن الإمام «شامل»، قد بدأ الآن في قتل هؤلاء الذين من دينه ومن عرقه. ولا يمكن تسمية هذا الجهاد المقدس. ما هذا إلا الحرب، في سبيل طموح «شامل». وكل شخص يوالي جبلياً طماعاً لا يستحي من التضحية بآلاف المسلمين، لابد وأن يعد مذنباً. إذا كان مسلمو القوقاز يريدون الاستقلال حقاً، فإنهم مجبرون علي ترك «شامل» لوحده، وأن يتجمعوا خلف زعيم آخر. وروسيا مستعدة لتأييد محاولة مثل هذه من كل قلبها. لقد ذهب «عيسي خان» ضحية لأطماع «شامل». لقد قتله بيده. إنه ضحية طموح كبير يصل إلي درجة اغتيال من هم من دينه وعرقه.

أيها القوقازيون، والششنيون، والآواريون!.. إننا نقول لكم مرة أخري بكل إخلاصنا، اتركوا «شاملاً». انفضوا من حوله. وهذا يدخل في عداد ترككم لذنوبكم..»».

لقد جندت روسيا كل تنظيماتها، وبدأت الخطة المبدئية لهجومها العام، بهذه الدعايات.

لقد لعن معظم الجبليين هذه الافتراءات السافلة. ولو وقع كاتب هذا في أيديهم لخنقوه في ملعقة ماء. ولم ينعدم المتحرضون. تري هل يمكن للروس أن يكونوا علي حق ولو بمقدار؟ تري هل يمكن لشيطان الطمع والطموح أن يكون له مكان في نفس «شامل»؟ تري هل هو يحارب من أجل السلطة والشهرة وليس من أجل العقيدة والإيمان؟.

كانت الأسئلة تزعج الأذهان . وكان هناك من لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير، وكان هناك من يخجل من تفكيره هكذا. ولم يكن هذا في أيديهم. كان يبدو كأن هذه النشرات قد أثرت فيهم . بعض أشياء لا يستطيعون إخراجها من أذهانهم مع أنهم لا يريدون التفكير فيها.

وبدأت كلمة.. «تري» تترك مكانها لكلمة.. «يمكن».. وذهبت مجموعة من هؤلاء إلي الحاج «مراد».

لم يكن الحاج «مراد» نفسه قد استطاع أن يبعد عنه تأثير هذه الدعايات وكان بطل الجبل النقي يفكر تفكيراً سيئاً. وكان بعض فاسدي النية وبعض كبار الآواريين الذين لا يقبلون «شاملاً»، يحرضونه دوماً، ويوسعون رقعة تفكيره السيىء.

– شيء واضح غير طريق «شامل». كان في أول عهده جيداً . ونحن أيضاً كنا نؤيده. أما الآن، فهو يفكر في نفسه فقط. هل كان الأمر يستوجب قتله «عيسي خان» بحجة أنه أخطأ خطأ ما. وماذا يمكن أن يقال لنهبه خزانته؟ هل كانت عبثاً تلك الحكمة القائلة بأن الكلام العذب يخرج الثعبان من جحره؟ نحن واثقون من أن «عيسي خان» كان سيظهر فهماً واضحاً لو كان الإمام «شامل» قد أرسل له بعض علماء يذكرونه بأنه في طريق خاطيء.

كان الحاج «مراد» كالنائم. قال لهم:

– يقولون أنه أرسل ذلك بالفعل.

– ليس للسان عظام، يطلقون الكلام فينتشر، والأمر لا يكون إلا بإلقاء كلام مثل هذا. إنهم لن يعرضوا بسهولة مسألة قتله، قبل أن يقولوا إنه أرسل إليه. ولابد أن يصطنعوا شيئاً في كتابه.

– قولوا ما تقولون، لكني لا أستطيع أن أصدق أن «شاملاً» يفعل شيئاً مخالفاً للشريعة.

– حسناً، لمن تبقي ثروة «عيسي خان»، أليس لعائلته؟.

– نعم.

– فلماذا اغتصبها.

– ومن يدرى ؟

– تبدو وكأنك لم تقرأ أية نشرة قط .

– إنها افتراءات روسية.

– تكون مصيباً يا حاج «مراد» لو استخدمت ولو قليلاً حسن نيتك هذه فى صالح عائلة «عيسى خان». إنك تدرى مثلما ندرى أنه أسرهم.

– إنه أعلن حمايته لهم.

– أمعقول هذا ؟ وماذا نفعل نحن هنا ؟ «عيسى خان» أوارى. ولا ضرورة لكى يتكفل شيشنى أو داغستانى بحماية عائلته. نحن من عرقه، إن شرفه شرفنا، وماذا لو أرسلهم إلينا بدلاً من أن يأسرهم.

– لكنه لم يقتلهم .

– لأنه يخاف من هذا طبعاً. ليس من السهل أن يقتل عائلة أوارية.

– ...؟!

إن هذا التحريض قد فعل فعله فى إضعاف مقاومة الحاج «مراد» وكأن هذا لم يكن كافياً، لأنه تلقى الخطاب تلو الخطاب من الأمير «فورنتسوف»، نائب القيصر، والقائد العام للقوات الروسية بالقوقاز. كانوا يكتبون للحاج «مراد» أنهم سيمكنهم الاعتراف باستقلال القوقاز بشرط واحد وهو: إذا كان الحاج «مراد» هو القائد ...

لقد قاوم كل هذا بكل الأشكال. كان يقول لمن يحاولون إرضاءه :

- يعلم الله إننى لا أطمع فى رياسة ولا قيادة.

- ليس من أجلك، ولكن من أجل حرية كل بلاد القوقاز.

ويعلم الله أنه لم يكن راغباً فى منصب ولا مال ولا شهرة. لكن إذا كانت بلاد القوقاز هى التى تريد.. لكن لو كان هذا المنصب ضرورياً من أجل الحرية فـ...

ازداد هذا التفكير. وكان لابد من نهاية له ذات يوم، إذ قال:

- سأذهب للتباحث مع الروس.

«فورنتزوف» فى فرح

كان الأمير «فورنتزوف» القائد العام للجيوش الروسية فى القوقاز يعيش أسعد لحظات حياته. لا يذكر أنه كان فى حياته بهذا القدر من الفرحة والسرور، لا أثناء تحصيله فى إنجلترا، ولا أثناء قيادته فى روسيا. كان يحتسى الخمر مع ضيفه الجنرال «كلوجناف» فى أفخر غرفة من غرف ضيعته، كان من ناحية يتبادل النخب معه ومن ناحية أخرى يتحدث. كان يقول :

– يا عزيزى الجنرال، لقد أوضحت لك أن الأسد سيدخل القفص أخيراً.

لم يكن الجنرال مصدقاً خبر تسليم الحاج «مراد».

– أرجو ألا يكون فى الأمر خدعة يا سيدى الأمير.

تغير وجه «فورنتزوف» الضاحك، لهذا الاحتمال.

قال للجنرال:

– أرجو ألا تكون متشائماً دائماً. كيف يمكن أن يكون فى الأمر خدعة ؟ أسيأتى الحاج «مراد» لكى يستولى على قيادتنا ؟

– كل شىء يمكن توقعه منه يا عزيزى الأمير.

نهض «فورنتزوف» واقفاً على قدميه.

– عفواً يا جنرال، اسمح لى بالقول بأن الرعب قد استولى عليك.

تنفس «كلوجناف» نفساً عميقاً وقال :

– لا شك أن الحق معكم، يا سيدى، يمكن أن يكون الخوف قد تمكن منى، فالحاج «مراد» مخلوق مختلف . إنه مثل الريح، أو الظلال. يهب فى

لحظة، يضرب، يهدم ثم يعود بلا صوت مثلما جاء. هل تذكر كم شخصاً استطاع النجاة منه، كيف تفسرون نجاته سالما من هوة لا يرى أحد عمقها.

– مسألة صدفة.

– أو أن هناك شيئاً لم نستطع فهمه. يقول الجبليون أن الملائكة هم الذين أنزلوا الحاج «مراد» إنهم يدعون أنه التحق بقافلة من الأولياء الذين كانوا ينتظرونه فى أسفل الهوة.

أطلق «فورنتزوف» قهقهة، وقال :

– يا عزيزى، لا أحد يفكر تفكيرا بدائيا مثلك حتى المسجونون فى سيبريا. وستخجل من أوهامك هذه عندما ترى بعينيك أن الحاج مراد واحد مثلك له لحم وعظام.

– الواضح إنى كنت أراه من لحم وعظام. بل إنى شاهدته عدة مرات يسير فى عرج، إنى أدعى أن له قوة غير عادية. الحاج «مراد»، والشيخ «شامل»، كلاهما، بهذه الصفة.

– على كل حال سيتحول جناح الإمام إلى أوزة منتوفة الريش.

– وسيقع فى شباكنا . والحق أن جلالة القيصر قد فكر تفكيرا رائعا فى هذا . البلع بعد التجزئة .. فرق تسد. لو اتحدنا لما اتسعت شباكنا .

قال «فورنتزوف» :

– نعم .

وعاد إلى مكانه. وركز نظراته على الشخصية الروسية المعلقة على الحائط المواجه.

كانت فوقه لوحة رسوم ونقوش حربية ترمز إلى المعارك الدامية التى حدثت بين روسيا ونابليون. كان «فورنتزوف» قائدا فى هذه الحرب. وكسب

نصراً براقاً. أما نابليون فأعجب القيصر به. وفكر «فورنتزوف» فى اللوحة . ضابط روسى محاط بالجنود الفرنسيين من كل جانب ويحارب بسيف مكسور، ويعمل على شق الحصار حوله. وفكر «فورنتزوف» فى أن مركز خيال النساج لابد وأن يكون واسعا. واحتمال أنه لو وجد فى البساط مكانا فارغا لكان سينقذ الضابط الروسى من هذا الموقف الصعب. وجميل أن البساط قد انتهى لأن ذلك منع الرجل من الهذيان. وإلا فإن كسر طوق كهذا ليس أمراً يقبله العقل .

ربما لو كان الحاج «مراد» لاستطاع أن يكسر هذا الطوق. أليس كذلك ! كان يجب توقع كل شيء من رجل استطاع أن ينقذ نفسه بإلقاء نفسه من هوة سحيقة بعد أن خدع كل هذا القدر من الجنود. لقد كسب حريته بثمن الموت. نجح. ولكن ها هو ذا .. قد جاء ليبسط حريته التى كسبها بثمن حياته، تحت قدمى نائب القيصر .

واعتدل سريعا عندما دق الباب. قال :

– يبدو أنهم جاءوا.

نهض فى نفس اللحظة الجنرال «كلوج فون كلوجناف» ويمم وجهه شطر الباب بفضول .

– ادخلوا!

دخل العقيد، وهو ياور الأمير. وحياهما تحية قوية .

– الحاج «مراد» على وشك دخول نقطة الحراسة يا سيدى الأمير .

وتهلل وجه «فورنتزوف» .

– لقد أتيت بخبر جميل أيها العقيد. هل كل شيء على ما يرام ؟

– نعم يا سيدى ، لقد اصطف فريق الموسيقى على جانبى القلعة .

وحملة البنادق اصطفوا فى الخلف ، وأخذ المدفعيون مواقعهم أمام المدافع .

– حسنا جدا، شىء عظيم للغاية، أريد أن يستقبل استقبال الملوك لاتنسوا إطلاق عشر طلقات مدفع، عشر طلقات كاملة.

وهمهم لنفسه قائلا :

– إنه جدير باكثر من هذا.

وبعد عدة أيام عقدت هيئة محكمة فى قرية «أوطورى» فى بلاد الشيشن حضرها قادة «شامل» الكبار واشترك فيها العلماء . وتباحثوا فيها طويلا عن موقف الحاج «مراد» . جالوا خلال ذلك فى كتب الفقه. وأخيرا قالوا بثبوت التهمة وحكم عليه بالإعدام غيابيا. كما تقرر فى نفس الوقت القبض على جميع أفراد أسرته .

وذات مساء أعلم الوفد الذاهب إلى بيت «شامل» الموقف له كما هو ومالت رأس «شامل» أمامه. وعرضت خطوط وجهه بوضوح آثار حزنه المدهش . نظر بعتاب إلى أحب قادته إليه.

قرأ الإمام النظرات المليئة بالسؤال. وحول إصبعه إليهم، وقال :

– ذلك لأنكم بحكمكم بالإعدام على الحاج «مراد» قد قطعتم يدى اليمنى!.

وهكذا انفرط عقد اتحاد القوقاز بشكل لايقبل الإصلاح، وكان ذلك خطأ قام به الحاج «مراد»، ربما لم يكن يقصد هذا الخطأ، انفرط، ليس بسبب قوة الروس ولكن بحيلتهم كسبوا الجولة الأولى من الصراع. والباقى كان سيأتى سريعا.

أما الحاج مراد ...

فقد فهم بعد لأى أنه قد خدع. ورأى أن كلمة الروس لاتحمل أدنى قيمة، كما أنه طعن «شاملا» من الخلف، إنه لم يتحمل اقتراح الروس السافل وسيطير لكى يعود إلى عش الصقر مرة أخرى.. لكنه القدر.. ولم يستطع أن يغفر الخطأ الكبير لثانى مرة. نجح فى الفرار من نقطة الحراسة الروسية مع اثنى عشر صديقا مخلصا ولكنه يصاب برصاصة بعد الإحاطة به من كل جوانب حقل أرز.

الجولة الأخيرة

انتهت حرب القرم، وتولى القيصر الكسندر الثانى العرش خلفاً لنيقولا الأول، فقام - بإنزال الضربة الأخيرة بشامل- بإرسال الجيش- الذى سحبه من القرم - إلى جهة القوقاز. وقد أصدر إلى «فورنتزوف»، أمره التالى :

- اقض على جميع عشش الصقور، وانتف أجنحة الصقور حتى لا تستطيع الطيران بعد ذلك. أنتظر منكم جميعاً النشاط والهمة والغيرة. ولابد لهذا العمل من نهاية».

والواقع أن جناحا من أجنحة حرب الاستقلال قد تحطم عند انفصال الحاج «مراد». وقام بعض أمراء الآوار والقازاق بتغيير المكان من جديد واتحدوا ضد «شامل»، ولم يكن هذا غير الملح والفلفل الذى يوضع على هذا الجرح . وباتت وحدة الناس التى كانت بين المجاهدين وكانت مثل قلعة لا يمكن اختراقها، باتت هينة لدرجة أن السيف يمكن أن يدخل بينها. وأصاب الرصاص ببقعه ، هذا الكفاح النظيف وأثمرت بنور الشقاق التى سبق زرعها، وحوصر الإمام «شامل» فى «داركو»، حاصرته جيوش روسية ثلاثة.

انسدت كل طرق المساعدات، وتحكم المستطلعون الروس فى نظام التخابر بين الداغستانيين. وتقلب الخط وتقلبت معه أشياء كثيرة.

يلعب «شامل» ومعه مجموعة من المسلمين المخلصين التفوا حوله، ساعاتهم الأخيرة فى جولتهم الأخيرة.

ضغط كلا الفريقين على قبضاتهم بشدة هائلة. محكوم على واحد منهما قطعا ألا يبقى قائما وأن يقع أرضا. وسيكتب على أسوار مقر القيادة فى «داركو» النتيجة القاطعة .

لم يكن الإمام «شامل» ينتظر أية مساعدة قط تأتيه من العالم الإسلامى كان واقعياً طوال حياته، أدار ظهره دوما للخيال، وعاش يواجه الواقع والحقائق ويعيش فيها. وكانت الحقائق مرة. كان العالم الإسلامى مشغولا للدرجة التى لا يستطيع فيها أن يساعد إخوان الدين الذين يجاهدون فى سبيل حريتهم.. كان مشغولا وأى انشغال. نسى فيه الغيرة الجهادية التى أمر بها الله فى القرآن، والتى حث الرسول صلى الله عليه وسلم عليها، واستبدل هذا العالم وفاقه بالنفاق واتفاقه بالتفرقة . لقد ألم بهذا العالم سبات وحذر طارئان.

وبعد دعاء طويل، وقرأ شعرا للشاعر التركى الشيخ إبراهيم حقى الأرضرومى. ثم خرج :

هيا نرى ماذا يريد المولى فكل ما قد قدر المولى جميل

كانت أضواء الغابات المحترقة من بعيد تنعكس، على وجه «شامل»، وتجعل إنسانى عينيه يلمعان، كانت هذه هى خطة «فورنتزوف» كان يحرق كل غابات بلاد القوقاز، وأخذت جريمته هذه تشمل الآن الحيوانات . كان القيصر قد أصدر أمره التالى : «خرب عشش الصقور . وطالما أن هذه الغابات موجودة فلابد أن يكون بالضرورة خلف كل شجرة فارس ششنى أو داغستانى آخر. يتحدى بمفرده روسيا حتى لو احتاج هذا الأمر إلى روحه كان هكذا يفكر «فورنتزوف». ولأنه يفكر هكذا كان يحرق الغابات.

لابد أن تكون هذه اللهب، لهب نيران الحرية المنبعثة من عمق القوقاز. لكن آه! لقد بدأت نيران الروس تعمل عملها بعد أن سقطت جمرات الطمع في بعض القلوب. وإلا فهل يمكن أن يرتاح العدو في مكان تنبعث منه الغيرة الدينية؟

كم كان هذا الظلام دامساً، ياربي! .. لا شيء فيه يبين، لا اتجاه ولا طريق. لا صديق طاهر ولا غريب. إنما مجموعة من الفدائيين، ذاقوا أهوالا كثيرة. تخطوا الوحدات الروسية موجة بعد موجة، كسروا إطاراتهم، نجوا من ذل الأسر أسرعوا في الجرى وهم يحترقون في مشعل الحرية، وصوت «شامل» الجهورى يدوى :

«من يفكر في نهايته لن ينجح أبداً في أى وقت. إنما القوة والقدرة من الله وحده».

اللهب في الغابات، وضياء اللهب في العيون .

تتقيأ الغابات لهيبا، لماذا؟ داخل الغابات يحترق . ينظر إلى الحرب التى يشنها عدة مجاهدين باسم الدين ضد آلاف المعتدين. تحترق الجبال تحترق الأحجار، يحترق كبار مجاهدى القوقاز.

كان هناك أحدهم يحترق من الداخل: امرأة عظيمة وأم وقورة هي والدة الإمام «شامل» .

- يجب ألا ينتهى الأمر هكذا.

كانت تقول هذا وهى تئن، وهى على سجادتها وكانت تذرف الدموع مدراراً على جلد الماعز الجبلى الذى تصلى عليه. إن المياه البيضاء التى على خديها المتجعدتين تنزل في خيوط.

- يا أمى، بعض الناس يريدون لقاءك.

أدارت وجهها نحو زوجة ابنها. مستغرقة، مرهقة. قالت :

- يا زوجة ابنى.. يجب ألا يبلع هذا الظلام، حرية القوقاز.

- لقد نجا ابنك كثيرا من بوادر مثل هذه. وإذا أذن الله فسينجو من هذه أيضا.

- صعب يا بنيتى. لقد تحامل الروس بكل قواتهم، أربعون ألف روسى. وهذا العدد لا ينفع فيه القتل ولا الضرب. يا ربى، لو انشقت الأرض.. هل تسمعيننى يا زوجة ابنى، لو فتحت الأرض فاهها، وبلعت الأجساد التى جاءت لقتل حريتنا .

- ربما فى ذلك الوقت ينوب النحيب المنسد فى حلقى .

واعتدلت :

- هل قالوا لماذا جاءوا ؟

- سيقولون لك يا أمى .

- خيرا إن شاء الله. أفى هذا الوقت من الليل .

ومضت الأم المجاهدة إلى غرفة الضيوف . القادمون كبار السن من أهل القرية وهم رجال عصرتهم المعارك الطويلة طوال الأعوام وحولت وجوههم إلى لون صخور الجرانيت. كل واحد منهم أدلى بدلوه فى الجهاد وأرسل القذائف على رؤوس قطعان الروس . أجسادهم تزدان بجروح من سيوف ورصاص.

قابلتهم الأم . وقفت أمامهم ونقابها على وجهها وهى تقول :

- ماذا تريدون ؟

أخذ أكبر هؤلاء المسنين فى التحدث.

- استمعى إلينا أيها الأم. إننا نرتجف من التحدث مع ابنك. ونحمد الله أن الدماء فى عروقنا مازالت تجرى، وطالما أن هذا الدم يجرى فى عروقنا فإننا نستطيع مواجهة العدو والموت جهادا. تتجمد دماؤنا، نسرع لنظفر

بالشهادة . لكن ماذا يمكن أن يتغير . لا موت «شامل» يضمن منفعة للقوقاز، ولا موتنا نحن .. ترين إننا نجاهد منذ شهور فى هذه القلعة. ولم يبق حيا منا غير حفنة من المجاهدين. وهؤلاء اليوم أو الغد ... الشهداء المباركون وضعناهم خلف كبوات جدار القلعة ووضعنا فى أيديهم البنادق.

وغرضنا من هذا أن يظن العدو أننا مازلنا أحياء، وماذا يفيد كل هذا ؟ إن الروس يستعدون للهجوم الأخير علينا. والله شاهد علينا أن ليس فينا قدر ذرة من خوف على أرواحنا. لو أمرنا الشيخ أن نلقى الآن بأنفسنا داخل العدو ونعمل فيهم كالسيف سنفعل هذا بلا تردد .. لكن ليبق هو حيا. إن حياته ضرورية ، فربما يحمل غدا مشعل الحرية من جديد. قد يقود أولادنا من نصر إلى نصر مثلما فعل من قبل معنا. إن موت «شامل» يعنى انطفاء آخر ضوء أمل . لقد ناقشنا هذا الأمر كثيرا بيننا . وأخيرا اقتنعنا . وكان نصيبنا نحن إبلاغ الموقف . ومع ذلك لم نجد فى انفسنا الجرأة لمواجهة ابنك بهذا. إنه شيخنا وأسدنا وقائدنا. خفنا أن يغلبه غضبه لحظة. إننا نسترحمك التوسط، نتوسل إليك أن ترديه. حياته مرتبطة بتسليمه. إن هذا من أجلنا وليس من أجله هو . فليلق سلاحه إذا أراد أن لا تفقد القوقاز كل آمالها.

ركع الرجل المسن ووضع كفيه بجوار بعضهما البعض وكأنه يدعو :

- من غيرك يا أختاه يستطيع أن يفهم منى إننى أفضل الموت ألف مرة على القيام بإبلاغ البطل هذا الاقتراح.

حدجت المرأة المسنة ممثلى الشعب بنظرات صقرية تماما مثل التى يفعلها ابنها، حدجتهم واحدا واحدا. ساد المكان صمت القبور. انطلق مدفع من بعيد.

ولم تعقب على هذا، غير قولها :

- حسنا .

وذهبت .

انزعج «شامل» وتغير لون وجهه عندما أعلمته أمه بالاقتراح. لكنه تذكر فجأة أن الذى أمامه هى أمه .

صاح قائلا :

- أمى!

وتوجه مباشرة نحو المسجد. وصلى ركعتين . وسالت دموعه تجرى من ماقيهما على خشب الأرضية .

وجمع العلماء بعد الصلاة صباحا، وقدم لهم الاقتراح الذى قالته له أمه. وطلب محاكمة مقدم الاقتراح، بتهمة الخيانة .

كانت الرغبة مفزعة، لأن أمه كانت موضوع المسألة : أم الصقر لكن كان يجب محاكمتها وتوقيع الجزاء عليها . وكان ذلك متوقعا من الإمام الذى لم يتصرف طوال عمره تصرفا مخالفا للعقيدة .

واجتمع المجلس. تقدمت الأم المسنة وهى صامتة كالتمثال أمام هيئة المحكمة. ووقفت فى مكان الاتهام. وقفت منتصبة القامة.

قال «شامل» اقتراح أمه، كما هو، استدار الحاج قاسم رئيس هيئة المحكمة إلى أم الصقر .

- هل تقبلين الاتهام ؟

لا يبعد عن الحق حتى فى لحظة الموت؛ ذلك الإنسان الذى لايعرف معنى الكذب. هل ينساق إلى الحرام كى ينقذ روحه؟ أضف إلى هذا أنها هى نفسها تؤمن بأن هذا ذنب بالفعل. ليس خطأ يمكن العفو عنها محاولتها تحطيم شجاعة ابنها فى الوقت الذى لابد فيه من تشجيعه فى وقت حرج مثل هذا. حتى ولو كان هذا آخر حل .

- نعم أقبل .

انطلق هذا الجواب مثل قذيفة أطلقت من مدافع الصحراء الروسية التى يسميها الداغستانيون «مسدسات القيصر» تجمدت أوصال كل الموجودين. وجفت الشفاه.

وبحركاته المعتادة سجل الشيخ قاسم فى دفتره ما يلى :

«اعترفت أمه، ففهمت بدرجة أكبر كنه بعض المميزات السامية التى أظن أن «شاملا» قد اكتسبها منذ مولده. إنى أؤمن جدا أن هذه المميزات جاءته من أمه. لا تلد مثل هذا الرجل غير أم كهذه الأم».

اتخذت هيئة المحكمة بعد استشارات قصيرة القرار المدهش الآتى:

- مائة جلدة !

كان واضحا أن شامل قد ارتعش ارتعاشا واضحا. مائة جلدة لهذا الجسد الرقيق النحيل المسن! فظيع لكنه ضرورى. يقولون إن الإصبع الذى تقطعه الشريعة لا يؤلم.

صاحت الأم مثل أنثى فهد تعرف جيدا ابنها مثلما تعرف خطوط كفها، صاحت قائلة :

- يا بنى، إذا ترددت فى تنفيذ عدالة الله. فلا أحل الله اللبن الذى أرضعتك إياه!

أمسك «شامل» نفسه بصعوبة كى لا يبكى . إنه بين حكم الشريعة وبين أمه المحترمة التى يرى أنها واحدة من أكثر مخلوقات الدنيا احتراما.

تلعثم فترة ثم اعتدل كالبرق. وخاطب الحاج قاسم مباشرة قائلا :

- إنها أمى، وأنا ابنها . أريد تطبيق العقوبة التى قدرتموها على، على أنا .

استشارة قصيرة مرة أخرى ثم قرار :

- يجوز .

خلع قفطانه وصديريته . ظهره عار تماما. وصاح بحامل السوط قائلاً:

- لعن الله من يتردد ولو لحظة فى تنفيذ حكم الشرع ومن ترتعش أياديهم فى ذلك. إنى آمر بأن تضربوا بكل قواكم. على اللعنة أيضا إذا كان هذا الأمر ثقيلا على نفسى أو إذا وجدت حكم الشرع ثقيلا. لا تقفوا هكذا. هيا اعملوا.

وانهالت ضربات الأسواط على ظهره. وانتفخ جلد ظهره خطوطا خطوطا، وبدأ قلم الحاج «قاسم» يخط على الورق كتابته قائلاً :

«إنى واثق أن «شاملا» لا يحس بآلام السوط. إنه كان وقتها مشغولا بالتخطيط لإنقاذ «داركو»، فى هذه اللحظة التى يمزق السوط فيها ظهره. وعندما تزداد كثافة طلقات المدافع: «بدأ الروس هجومهم، هيا أسرعوا!» من قوله هذا فهمت ما فهمته وهذا الذى أسجله» .

وبعد مائة ضربة سوط غرق قميصه فى الدم وعلى الفور أسرع يتسلق الأبراج. وضع منظاره المكبر على عينيه ونظر نحو خطوط العدو. وكان أول أمر أصدره هو :

- رصوا الشهداء خلف الكوات.

كان يخادع الروس. إذا نظروا من الخارج لأنهم سيشاهدون الأبراج ممتلئة بالجنود وأمامهم بنادقهم. لكن لم يبق فى داخل القلعة سوى ثلاثمائة شخص أغلبهم مسنون لم يعودوا بمستطيعى إطلاق الرصاص. أو أطفال لا يستطيعون الصعود إلى الأبراج. لكن فيها نساء. أخذت النسوة القوقازيات أمكنتهن بجوار رجالهن. تعلمت الأيدى الناعمة الإمساك بالبنادق ومع ذلك لم يكف هذا. ورغما عن هذا، فقد رفض الشيخ اقتراح التسليم الثالث الذى كانت مدته حتى المساء .

وأعلن قراره الحاسم بقوله :

- عدو، كل من يمد يده إلى العدو.

لم يكن عاجزا عن فهم وخامة الموقف . كانت «جونيب» - وهى آخر دعامة له - على وشك الانهيار. «جونيب» بعد «داركو» و «ويدين» ولم يبق مكان آخر يمكن أن يسقط. كانت الحرب تسير ببطولة وكان شرب كأس الشهادة يسير معها الطريق الوحيد. كانت الحرب والشهادة والبطولة الطريق الوحيد.

وبعد ذلك كانت قطعان الروس ستدخل القلعة وهى تدوس فوق الشهداء البررة سيبحثون أولا عن بيت مال حكومة «شامل» المخصص لشراء السلاح ثم سيحرقون عشش آخر مقاومة للقوقاز وكان هذا فظيعا. اختار أربعة من الأصدقاء الأذكياء الذين يعتمد عليهم وأعطاهم الخزانة كلها .

- بالتأكيد خذوا هذه وادفنوها فى بحيرة الآذان التى فى وسط جبال أندى. ولا تعودوا إلى هنا مرة أخرى. ولمواصلة الجهاد ستحتاجون هذا المال جدا . أخرجوه حتى إذا احتجتموه استخدموه فى طريق الحق .

أخذ الأصدقاء وأعينهم دامعة، صندوق الخزانة، واختفوا فى ظلام الليل .

النهاية

توقفت الطيور المغردة عن تغريدها. أيام الصيف الأخيرة حزينة. سطوع الشمس ذابل والسحب تملأ السماء. والأرض مشقوقة أشبه بكفى الفلاح القوقازى. ودماء الشهداء الحمراء متجمعة فى هذه الشقوق.

تلقت قلعة «جونيب» مائة جرح فى جسمها. وبذلك بدت فى مظهر أساطير الأبطال فى القصص الخرافية وهى مستطيعة أن تقف على قدميها صامدة، وعلى الأبراج أجساد الشهداء التى بردت من زمن. والمواقع مزدحمة بالأجساد.

وبعد قليل ستوضع علامة فاصلة (،) أمام الكفاح من أجل الحرية. فاصلة فقط. فاصلة وليست نقطة بالتأكيد. ذلك لأن هذه الشعلة التى أوقدها «شامل» للذين معه ستوقد حيناً بعد حين أيضا فى يد الذين بعده.

ويأتى القلم الذى سيضع علامة الفاصلة.

وذلك هو الحاج «قاسم».

ومن خلفه عدة علماء .. يتوقف فترة، يتفرجون على الإمام وهو يجول فى عصبية، لم يكن فى مقدور أحد قط إفساد الهدوء، كانوا من الذين يعلمون أن المنطق يسكت حيث ينتهى الأمل. وفى هذا الموقف، لابد أن يعجز الكلام. لاسيما طلب التسليم من الإمام.

لكن هذا العمل الصعب لابد منه. وإلا فإن الشيخ شامل نفسه مع «جونيب» سيتحولان إلى أنقاض. مع أن الحياة واجب. ومجهول ما يحمل به المستقبل. وقد يكون من المجهول أيضا أن يكون «شاملا» مستقبلا ضوء أمل .

- يا شيخ «شامل».

التفت ونظر إلى الشيخ «قاسم» .

- ماذا تريد أيها الدرويش؟

- ندعو لك بالصحة أيها الإمام .

- الصحة؟ أية صحة؟ إنى أفتح يدى لأستشهد، وأنتم تقترحون على أن أكون أسيرا.

ارتعشوا . اقشعرت أبدانهم. تحرق هذه الكلمة آذانهم، وتصب الرصاص المذاب فى آذانهم. قال الإمام بذاته الشىء الذى لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة على قوله . ورغم كل شىء فقد ارتاحوا. تقدم الحاج «قاسم» بضع خطوات إلى الأمام، وقال :

- لو كنت أعلم أننى سأضطر لحمل هذا الاقتراح إليك ، ما كانت تطأ قدماى هذه الأرض قط، ولكنت أواصل ذهابى إلى البلاد الأخرى بلدا بلدا. بلغ الأمر بهذا البغل الحبيب المرافق إلى أن تدحرج من فوق الهوة إلى أسفلها، بلعته داغستان ، لكنى لا أود أن تبلعك أنت ، لذلك أنا هنا.

تبسم الشيخ «شامل» بألم :

- هيا تحدث أيها الدرويش، لا تطل الكلام، ما لى وللبغل؟ هل جاء الموفد الروسى؟

- إنه ينتظر فى الخارج يا سيدى .

- دعوه يدخل .

أدخلوا موفد الأمير بايراتنيسكى القائد العام الجديد، أدخلوه لمقابلة «شامل» ركز الإمام على الرجل نظراته التى تصب نارا .

قال :

– اسألوه، هل رأى كل شيء؟

ترجم الحاج «قاسم» هذا .

قال الموفد الروسى :

– وإن لم أر كل شىء فقد رأيت الكثير. ولم يكن حراس الأبراج الذين ظننتهم وأنا فى الخارج أحياء، شيئاً غير أجساد ميتة.

قال «شامل» :

– قل له إن هذه الأجساد تحرس القلعة منذ شهر ونصف. هؤلاء الشهداء الذين رآهم، موتى .. وإلا فهل هناك أدنى إمكان لكى يتصدى مائة شخص وهم الذين بقوا أحياء هنا للجيش الروسى المجهز بأحدث الأسلحة والذى يتكون من أربعين ألف رجل ؟

اتسعت عينا الموفد الروسى، وهمهم قائلا :

– مائة شخص؟ أتقول الحق؟

نظر إليه «شامل» بقوة.

– ماذا يريد قائدك؟

ناول الموفد الروسى الإمام «شامل» – باحترام وتقدير – الخطاب . أخذه الإمام وبعد أن ألقى نظرة سريعة على الخاتم الذى فوق الظرف مده إلى الحاج «قاسم»، وقال :

– ترجم هذا .

قرأ الحاج «قاسم» الخطاب بصمت، ثم ترجمه.

– «أيها الإمام «شامل» إنكم بدوركم تعلمون أن كل خطوط دفاعكم قد انهارت . شمال القوقاز وبلاد الشيشن كلها الآن تحت الاحتلال الروسى. مات الكل وهم يكتبون ملاحم البطولة. وأنت تحارب دفاعا عن «جونيب» منذ

عدة شهور بجلادة لم يسجلها التاريخ من قبل. لكن القدر. نعم الانتصار فى الحروب والهزيمة مرتبطان بالقدر. إنك تستطيع الآن بعد أن اتخذت كل تدبير بوسعك اتخاذه، أن تسلم نفسك لحكم القدر وأنت مستريح. وباسم القيصر الروسى وبشرفى العسكرى أقسم أن لن يصاب أحد بضرر من الذين حولك، وأنت وكل أفراد أسرتك، وستقيم فى المكان الذى ترغب الإقامة فيه وأنت فى وضع أكثر ضيوفنا احتراما، وإذا لم تكن مهتما بنفسك فاهتم بما يجرى للأطفال وللمسنين وللنساء فى القلعة. ولا تعط الفرصة لبذل دماء أكثر ..».

أجهش الحاج قاسم بالبكاء ولم يستطع التحكم فى نفسه وهو فى أواخر الخطاب . ابتسم «شامل» بمرارة، وقال :

- نعم .. هكذا يا حاج «قاسم» إنك لا تستطيع تحمل المكتوب، وتريد منى أن ألين لما هو مكتوب، ما كل هذا ؟

والتفت إلى الموفد ، وصاح بكل جلادته :

- اذهب، وقل لقائدك : إن «جونيب» أعلى من أن تصلها يد القيصر الروسى وأسلحة الجنود الروس البيضاء . ولن نسلم طالما أن هناك سيفا واحدا سليما فى يد شخص وحيد بقى حيا. إن هذه القلعة التى لم تستطع منذ شهر بأربعين ألف جندى مزودين بأحدث الأسلحة، أن تهدمها ، ليست فى الواقع قلعة وإنما هى سد من الإيمان يهز القلوب. وإن اجتياز هذا السد يفوق حدود القيصر وقائد قواته. احملوا بكل إمكاناتكم، وأرسلوا كل ما تملكون من نيران وسنمسك قذائفكم بأيدينا . أما التسليم .. فمحال!

كان القرار على وشك الاتخاذ . بل إنه اتخذ بالفعل. هناك شىء واحد فقط يمكن أن يغيره، وكان هذا الشئ الوحيد يقبع بين ثنايا حزام الحاج «قاسم» .

أدخل يده بسرعة. وفتح بأيد مرتعشة فتحة الكيس الجلدى الذى أخرجه، ومد ورقة متجعدة، وقال بكلمة واحدة .

– فتوى .

وأعطاه قرار العلماء بالتسليم .

تجمدت أوصال «شامل» . وأحس كأنه قد قيد بحبال غليظة من الصلب. أراد أن يتحرك لكنه لم يستطع الحراك. بدا وكأنه قد تحجر ، تحول إلى تمثال فجأة.

وتمتم قائلا :

– فتوى .

-- نعم يا شيخنا، فتوى، فتوى تحمل توقيع أكبر علماء القوقاز. خاصة بضرورة إنهاء هذا الصرا ع الميئوس.

وأخيرا ، تناول الورقة، وقرأها فى نفس واحد .

وبعد الانتهاء منها، رفع ناظريه الدامعين إلى السقف وقال :

– يشهد الله أنى لا أسلم، وإنى أخضع لفتوى العلماء .

وعقد ذراعيه على صدره . وانتصب مثل الصخرة أمام الموفد .

– استمع أيها الموفد. إنى أملى شروطى على قائدك : أن يصرح لى هذا الجيش الروسى الذى يحاصرنا بالذهاب إلى الدولة العثمانية مع أقربائى . ولن يضار أحد ممن معى . ولن تمس أسلحتهم . لن يقف طوال الطريق بأى شكل من الأشكال المحاربون المحليون الذين خانونا طوال الجهاد المقدس. ولا تجند الحكومة الروسية فى جيوشها أحدا من أهل داغستان. ولن تجمع ضرائب باسم روسيا وتأذن بقيام حكومة مستقلة لإدارة داغستان حسب الشريعة الإسلامية.

أحنى الموفد رقبته وعاد .

وعندما عاد مرة أخرى بعد ساعتين ، أبلغ شاملا بأن كل شروطه مقبولة وقدم تعهدا يحمل توقيع الأمير برياتينسكى بذلك.

«شامل» صامت. التصقت شفتاه حتى بدتا كأنهما شىء واحد لا يفتحه سكين. أتخفت بهذا الشكل شعلة الحرية التى حملها خمس عشرة سنة وتنقل بها من جبل إلى جبل ومن غابة إلى غابة؟ يا لها من نهاية محزنة.

التقى مواجهة عند الباب بزوجته السيدة «زاهدة» وأحنى رأسه. لم يكن بمستطيع أن ينظر إليها . سمع صوتها، وكان متمزقاً :

«- أيها الإمام الكبير يا إمام هذا الوطن، سمعت أنك ستستلم، إذا كنت تقوم بهذا الفداء العظيم لحماية حياتنا، فإنى أقول لك باسم كل النساء فى القلعة إننا مستعدات للسباق إلى الموت. لا تخف، افعل ما تعرفه».

التمع فى عينى الإمام ذلك البريق الذى ينتاب عينيه فى لحظات الحروب. هبط صدره، وأخذ قلبه فى الضرب وكأنه سيسقط من مكانه .

غير طريقه واتخذه نحو المسجد. وحرك شفتيه. سيقول إنه تراجع فى كلامه وسيأمر رجاله بعدم ترك السلاح.

ولحقه سريعا العلماء وأحاطوا به . وسدوا عليه طريق الرجوع. أحنى رقبته عجزاً. ونظر مرة أخرى إلى جبال القوقاز. وتنفس بعمق كثير وكأنه يريد أن يجعل رئتيه مخزنا لهواء الحرية هذا ليتنفسه لعدة سنوات مقبلة. وقال :

- قضى الأمر .

قال هذا لكنه لم ينثن، بل صاح بصوت عال، وكأنه يصدر أمراً. ونظر باشمئزاز إلى الجنود الروس المتجمعين فى مكان مهدم من القلعة .

سقطت ورقة من التقويم، وانتهى عهد (٦ سبتمبر ١٨٥٩) .

لم ينفذ الأمير برياتينسكى قائد قوات القيصر الروسى، الذى بنى سياسة الدولة على الكذب والخداع ، لم ينفذ هذا الأمير وعده. حقيقة إن «شامل» لم ير قط أحدا يعامله كأنه أسير ولكنه كان يذكر ببلبل نسى التغريد وهو فى قفص ذهبى .

كان يمكن أن يعيش حياة مرتاحة فى قصر رائع تحت أمره فى «كلوجا» براتب أمر بصرفه له القيصر قدره ٢٤ ألف روبل ذهبى فى السنة . ولكن الدنيا انتهت فى نظر «شامل» كان ينصح الداغستانيين الذين كانوا يأتون لزيارته ويقولون له إنهم يريدون الهجرة .

« - لا تتحركوا من أراضيكم. ولا تفقدوا إيمانكم بأن هذا الوطن سينال حريته ذات يوم، ولو لم أكن موجودا فبالتأكيد سيأتى واحد منا وسيقود حركة الحرية».

إن هذه الكلمات مازالت حتى الآن توقد الأمل عند أحفاده.

أقام عشر سنوات فى «كلوجا» ثم طلب الإذن من القيصر للذهاب إلى الحجاز. وعندما صدرت له الموافقة على هذا، أخذ أقاربه واستقر فى الحجاز. وهكذا نال أملا من أكبر ما يتمنى، وأدى فريضة الحج. ومات فى المدينة المنورة عام ١٨٧١م وترك داغستان يتيمة. عليه وعلى الشهداء الذين ساروا فى طريقه رحمة الله .

أحدث إصدارات روايات الهلال عامى ٢٠١١، ٢٠١٢

اسم الرواية	المؤلف	الشهر	السنة	رقم العدد
والنجوم أيضا تموت	د. ليلى عنان	نوفمبر	٢٠١١	٧٥٤
الحجاج بن يوسف	جرجى زيدان	ديسمبر	٢٠١١	٧٥٥
حجر السرائر	نبيل سليمان	يناير	٢٠١٢	٧٥٦
مها تبتسم للملائكة	على ماهر عيد	فبراير	٢٠١٢	٧٥٧
عاشق تراب الأرض	أحمد الشيخ	مارس	٢٠١٢	٧٥٨
لا أحد يقفز فوق ظله	شعيب حليفى	أبريل	٢٠١٢	٧٥٩
حكايات المدينة السرية	منال القاضى	مايو	٢٠١٢	٧٦٠
عناد الأمواج	محمد جبريل	يونيه	٢٠١٢	٧٦١
فى البحث عن الزمن المفقود	مارسيل بروست	يوليه	٢٠١٢	٧٦٢
شهب من وادى رم	بشرى أبوشرار	أغسطس	٢٠١٢	٧٦٣
دلال ويسيمة	وفية خيرى	سبتمبر	٢٠١٢	٧٦٤
موسم العنف الجميل	فؤاد قنديل	أكتوبر	٢٠١٢	٧٦٥
العنتر	صلاح عبدالسيد	نوفمبر	٢٠١٢	٧٦٦


رواية
فؤاد قنديل
موسم العنف الجميل

المترجم في سطور

الدكتور محمد حرب:

- دكتوراة فى التاريخ العثمانى الحديث- جامعة استانبول.
- أسس مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى بالقاهرة.
- أول من طرح فكرة الاستشراق الجديد فى محاضرة ألقاها فى الأكاديمية النمساوية وكتب عنها.
- حاضر فى أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية بالقاهرة فى ملفات تركيا القوة الشاملة، وملف الأكراد.
- ألقى عدة محاضرات فى عدة مدن أوروبية وعربية.
- اشترك فى عدة مؤتمرات دولية فى قيرغيزستان وقازاخستان وروسيا وتركيا وهولندا وألمانيا والسعودية.
- رأس عدة مؤتمرات دولية فى آسيا الوسطى.
- عضو شرف بجامعة الاستشراق فى ألما أطى فى قازاخستان.
- أشرف على عدة رسائل جامعية: ماجيستير ودكتوراة.

من أعماله:

- الصراع بين الفكر المادى والإسلام فى تركيا المعاصرة.
- المثقف وتغيير نظام الحكم: نموذج أتاتورك.
- تاريخ مصر العثمانية، مخطوطة جورجى زيدان. تحقيق ودراسة.

من ترجماته:

حرب الاستقلال ملحمة ناظم حكمت

مذكرات السلطان عبدالحميد

السنوات الرهيبة لجنكيز ضاغجى (دار الهلال)

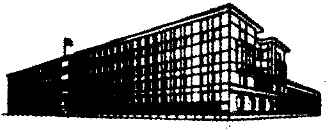
أشرف على إصدار:

موسوعة الحرمين الشريفين وجزيرة العرب(٥ أجزاء)

رحلة أوليا جلبى إلى مصر (جزآن).

من كتبه الموجهة إلى المثقف العام:

- العثمانيون فى التاريخ والحضارة.
- المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان.



الطباعة : مؤسسة دار الهلال - القاهرة